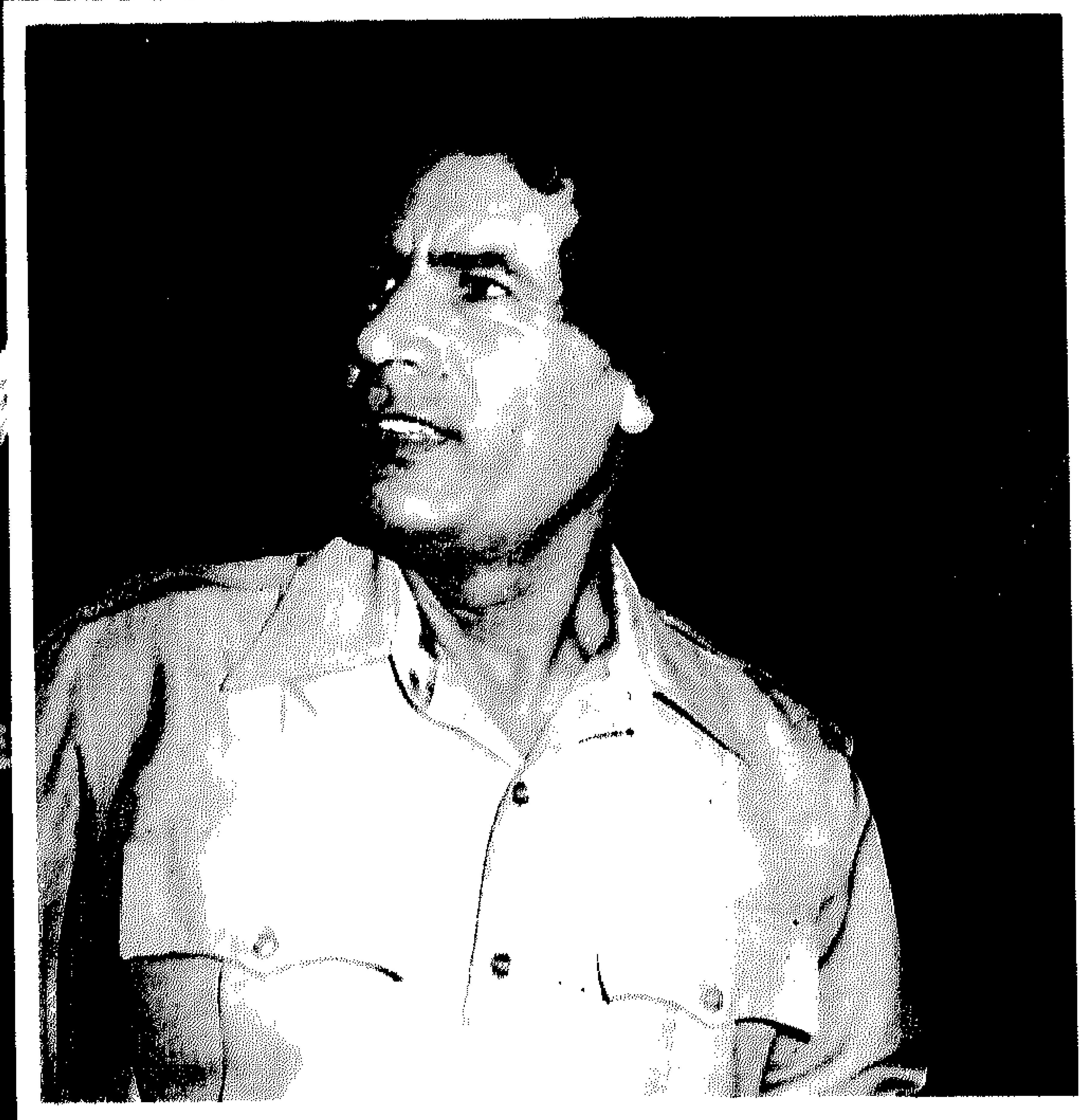
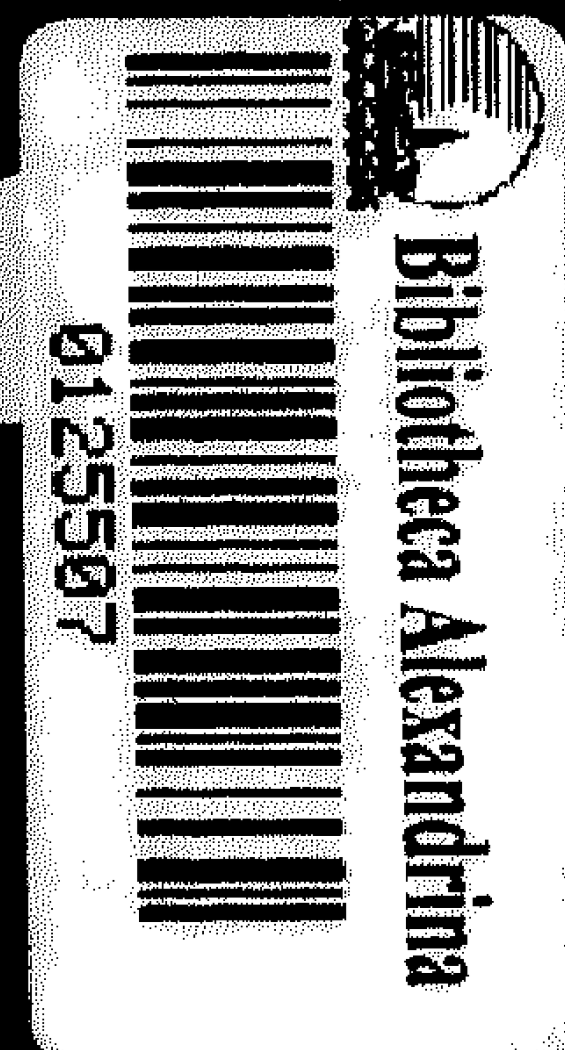
فضل عفاش

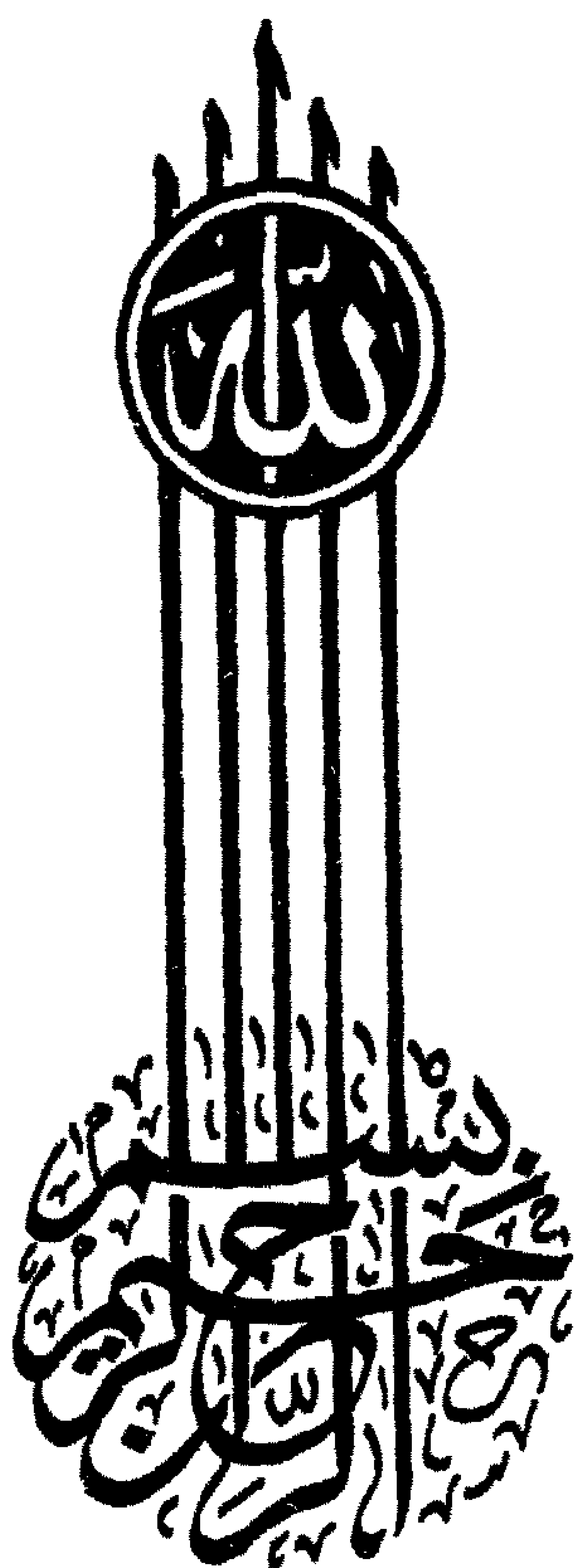


الماضي يبدأ غداً

قصة حياة الزعيم العربي الليبي معمر القذافي في حياة عربي وحدوي

الجزء الأول




الله
بسم الله الرحمن الرحيم

فضل عفاش

الماضي يبدأ غدا

تاريخ في رواية

قصة حياة الزعيم العربي الليبي معمر القذافي في حياة عربي وحدوي

الجـزء الأول

(أ)
الجـزء الأول

سنوات ما قبل الولادة

« 1941 م – 1966 م »

(ب)
الجـزء الثاني

الـولادة

« 1966 م – 1977 م »

(ج)
الجـزء الثالث

سنوات ما بعد الولادة

« 1977 م – 1991 م »

ما أقسى البشر عندما يطغون جماعيًا .. !!
ياله من سيل عرم لا يرحم من أمامه !!
فلا يسمع صراخه .. ولا يمدُ لهُ يده
عندما يستجديه وهو يستغيث .. بل
يدفعه أمامه في غير إكتراث ! إن طغيان
الفرد أهون أنواع الطغيان ، فهو فرد في
كل حال .. تزيلهُ الجماعة ، ويُزيله
حتى فرد تافه بوسيلة ما .. أما طغيان
الجموع فهو أشد صنوف الطغيان ،
فمن يقف أمام التيار الجارف ؟
.. والقوة الشاملة العمياء ؟

معمر الإنسان

الإهداء

إلى .. ما بعد رحيل الروح

حيث تحيا الفاضلة عائشة بن نيران ويحيا
المجاهد أبو منيار -
فإلى ذلك العالم الأنقى .. أهدي الماضي يبدأ غدًا

المؤلف
فضل

بطاقة حب

أقدمها عبر هذه الصفحة إلى العظيمة
مصر
أرضًا وشعبًا فى أمة

المؤلف

شكر وتقدير

أسطر شكري وتقديري إلى كل هؤلاء من شعبنا العربي في ليبيا الثورة .. ليبيا الإنسان .. وهنا أجزم القول .. فأقول هنيئاً لمعمر القذافي بهؤلاء .

الأستاذ الفاضل / المبروك الفار
الدكتور / المدني الصديق
الأستاذ / محمد أكليلى
الأستاذ / على الطبولي
الأستاذ / مسعود الرقعي
السيدة / عتيقة القذافي

مع خالص المودة

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل عفاش

الماضي يبدأ غدا .. !!

تاريخ في رواية

قصة حياة الزعيم العربي الليبي معمر القذافي في حياة عربي وحدوي

الجزء الأول

الطبعة الأولى
١٩٩١

تصميم الغلاف وإخراج الكتاب
جمال حسنى

الماضي يبدأ غدا

(أ)
الجزء الأول

سنوات ما قبل الولادة

«1941م – 1966م»

(ب)
الجزء الثاني

الولادة

«1966م – 1977م»

(جـ)
الجزء الثالث

سنوات ما بعد الولادة

«1977م – 1991م»

الجزء الأول

سنوات ما قبل الولادة

« 1941م - 1966م »



الماضي يبدأ غداً ..

ثمة قواعد قد تخالف هذا المنطق .. لكنها لا تتعارض عن قرب ومن حيث المبدأ والبنية بعيداً عن أرض الواقع ..

لأن المأساة أولاً من صنع البشر وما كانت ومنذ ولادتها الأولى وظهورها على مسرح الحياة والتاريخ من صنيعة ذاتها ..

والسؤال المطروح .. أين يبدأ ذلك الماضي ولماذا يبدأ غداً ؟

فما دامت أمي قد ولدتني ذات يوم وفي ساعة محددة لم يؤرخها الزمان ولا المكان ساعة لها طقوسها وملامحها في ولادتي أنا .. أنا فقط في هذا العالم ولن تعود أبداً هذه الساعة ولا ذاتها تلك المرة .

وما دامت الحضارات بذاتها وليدة أزمان مختلفة وعهوداً صارت في عمر الزمان منسية ..

أين يبدأ الماضي ؟

هل من حيث أطراف الشمس تغادر .. والعبادات تصير في زمنها الغابر .. أم .. من مواطن الحريق التي تشتعل في الصدور في هذا الزمان الأكثر عهراً ورذيلة ووحشية .. هل هنا يبدأ الماضي ؟

فضـل

دمشق أواخر شتاء 1989 م

الفصـــل الأول

لم تكن المدينة نائمة أو هائمة حالمة ، لكنها كانت زاهية تحيا حياتها وتتنفس بالرغم من أنها تخبىء في حضنها مواطن مختلفة لا تعرف للرجاء سبيلاً ولا للعفة مكانة .

كان الوقت بعد المغيب .. عندما بدأت آخر خيوط الضوء تتسلل حزينة كئيبة وببطء شديد في يوم خريفي غريب . لتخرج من عمق ذلك الكوخ الصغير الواقف بتمرد ومنذ سنين علىٰ مقربة من شجرة التين العجوز بين جموع البيوت المتكسرة المتعثرة ، تلك التي انتصبت أعمدتها وجدرانها غصباً من بقايا نفايات أشياء الخرائب ليسكنها المساكين وتزاحمهم في ذلك الفصول قهراً .. وقذارات يرميها عليهم الزمان ويقسو ..
والخريف واقف في كل مكان .. وكل شيء في الكون لا يضحك والضوء وحده اختفى وصيحات « دنيا » الجميلة قاطنة الكوخ لا تختفي .. ما زالت تبعث من أعماقها صراخاً حاداً موجعاً .. وكأن في جسمها احتراقاً رهيبا .
ها هي ذي تستعد لاستقبال مولودها الأبكم .. وساعة الولادة أليمة .. حزينة فزوجها ما عاد بعد منذ ليلة أمس وما من مسعف لها أو مغيث ووحده الليل غدا طويلاً موحشاً وغريبا .. لم تكن ظلمته قادرة علىٰ أن تخفف من بعض آلام دنيا وأوجاعها تلك المرمية وحيدة .. متمددة على البساط الصوفي العتيق جاهدة في ساعة الولادة علىٰ أن تضع وليدها الأبكم .. ها هي تلف في قبضة يدها ظفيرتها المجدولة.. وتشدّ أعصابها ويزداد الألم ويقسو .. فتصرخ صرخات طويلة ولا تقسو الولادة .. فتتحرك حركة لا تعرفها إلا الأمهات في مثل هذه الساعة وحدث أن تمت الولادة .. وجاء صراخ المولود يتحدىٰ ظلمة الليل ووحشته جاء ممزوجاً بأنفاس دافئة .. معذبة ، كان في صراخه لحن غريبٌ .. ونشوة لم تدركها إلا دنيا ، تلك المقهورة المعذبة التي ظلت تجاهد .. وبقوة الجبابرة لأن تفصل ما ارتبط بين جسمها وجسم وليدها .
ونجحت ..

ونجحت في ذلك . وكان ثمن هذا النجاح باهظاً .. فتوقف آخر نبض في قلبها .. ولم تلبث أن ارتخت يدها ، وسقط رأسها إلى الوراء فلفظت أنفاسها ورحلت بهدوء شديد ، كما رحلت آخر خيوط الضوء بعد المغيب .

ليظل المولود وحيداً سجين العتمة ويبدأ مشوار الصراخ .. فيصرخ ، ويصرخ وتبدأ ساعاته الأولى .

في تلك الأثناء لم يدر كل العالم أن دنيا الجميلة قد ماتت وأن نزيفاً حاداً قد أصابها ليزحف دمها ويتدفق لا ليعلن موتها في قلب الظلمة .. بل ليخرج إلى خارج حدود جدران الكوخ وكان في ذلك عذابٌ ومرارة .

والمولود تائه في العتمة داخل الكوخ ، ذلك الواقف بتمرد بين جموع البيوت المتكسرة على مقربة من شجرة التين ..

والخريف نائم لا الإعصار موجود ولا الزمان في رحلة مفقودة .

وزحفت الساعات حائرة لترتمي بأثقالها على أكتاف الفجر .. وما أن بدا الشفق وكأنه في رحلة جنون الكون زاهياً حتى حطت النسمة الباردة أوصالها في الرحاب جاءت ممزوجة برائحة الدم .. ورائحة عيدان التين ومثلها حبال الضوء العريضة قادمة عنيدة تناطح كل شيء وتنتشر انتشارا عمّ المكان لتكشف عن كل شيء كان غريقاً في وحشة الليل .

وزحفت الكلاب جائرة جائعة قاصدةً ذلك الكوخ الحافل بصراخ المولود وبرائحة الدم المتبخر عبر أشرعة نسمات هذا الفجر .

ها هي ذي قد اقتربت ومثلها حبال الضوء لتمتد الألسنة وتتذوق طعم ذلك الدم الآتي من جثة دنيا الهامدة في العمق البارد الملتهب .

ومثلما تكالبت الكلاب الجائرة لتتذوق طعم الدم ، تكالبت في الكون عاصفة خريفية هوجاء فهبت الريح لتحطم أحلام الفجر وأحلام المساكين في بيوتهم المتعثرة .. فتقذف بكل شيء .. هنا وهناك بأسقف المنازل وبقاياها وتعاند جذوع الأشجار فتكسرها ويتطاير حتى سقف ذلك الكوخ .. وينهار .. فتكشف الريح للكون عن تلك الجثة الهامدة فيه .

والمولود ما زال غائباً في ضمير ذاكرة الزمن .. ومنذ البدء ما زال يصرخ وعذرية الأشياء تصرخ وتظل الصرخة ، رغم أن العاصفة قد ولت وويلاتها ظلت ، وتلك جذوع أشجار الصنوبر تتدحرج بعد العاصفة على المنحدر ، والحفر الأرضية صارت مليئة بأوراق التين المتساقطة ..

وهدأ الكون .. وما هدأت ضجة الناس الذين راحوا يلملمون بفزع شديد الأشياء المبعثرة من بيوتهم ليعيدوا إليها سقوفها ونوافذها تلك التي اقتلعتها رياح العاصفة ورمتها .. قبل قليل .

وبينما كان أحدهم يبحث عن لوح من التوتياء كان قد اعتمده لغطاء أطراف سقف بيته ذلك اللوح الذي كان يخفي تحت ظله كل أوجاع السنين في حياة بيت بائس . وما أن شاهده مرمياً على مقربة من انقاض كوخ تحطم رأساً على عقب حتى مد يديه لينتشله فلفت نظره منظر دنيا تلك المتمددة المرمية في الأنقاض ، فذعر من منظرها وأصابه الدهش الشديد الذي استحال إلى مرارة .

كان الفجر كأنه واقف بلا حراك في حالة احتراق واكتئاب عندما خلع الرجل معطفه من علىٰ جسده وهو يرتعش بشدة ليرميه علىٰ ذلك الجسد المكشوف الملطخة أطرافه بالدم .. الغائص في ركام أنقاض الكوخ .

وما أن تحرك ، حركة المفجوع ليبتعد قليلاً بعد ما أدرك وللوهلة الأولىٰ أن المرأة صريعة متوفاة ، حتى سمع صراخ مولود صغير لم يكن يشبه صراخ الزمن . كان نقياً مقهوراً .

فهرع إلىٰ حيث الصوت وانحنى جاثياً على ركبتيه ليفتش بين الركام والصفائح المبعثرة .. إلىٰ أن اهتدىٰ لصاحب الصوت ، وجده مازال عارياً قد لفه صدفة طرف بساط صوفي عتيق .

مد يديه المرتجفتين وانتشله من بين الركام فرفعه ثم أعاده إلىٰ فوق البساط لحظات ليخلع قميصه من علىٰ جسمه ويلف به المولود .

كان المولود مغمض العينين ولكنه ما زال يجهش بالبكاء وشيء من لون وردة بنفسجية قد لون جسمه الصغير الرقيق .. ويتنفس بالرغم من أن ساعاته الأولىٰ ما تنفست بعد .

ومشىٰ الرجل عاري الصدر متثاقلاً حزيناً يحمل بين يديه المولود قاصداً بيته كان كالمصروع الذي ضاقت الدنيا فجأة في عينيه وبدت عليه علامات دهش غريب ويأس فظيع .. رهيب .

وما أن مرت عدة دقائق من عمر الزمان خاليات حتى حاذىٰ بيته ثم دلف لاهثاً إلىٰ داخله ، فهبت زوجته أم زهرة واقفة مذعورة وفتحت فاهاً مشدوهة لتنطق قائلة :

– ماذا أصابك ؟!! ومن خلع من علىٰ كتفيك ثيابك ؟ ومن ذا الذي بين يديك ؟

– اطمئني وهدئي من روعك قليلاً ، وخذي مني هذا الوليد .. هيا .. هيا .. اسرعي واهتمي به لينقذه الله علىٰ يديك .. هيا هيا أطعميه من لبنك فقد أمّ علينا ضيفاً .. عزيزاً .

وبرفق لا حد له تناولت أم زهرة من زوجها «المولود» وأسرعت لتهتم به .. والحيرة ملكت الرجل ، فماذا يفعل بخصوص دفن تلك المرمية بين الأنقاض علىٰ مقربة من شجرة التين .. تمتم مع نفسه قليلاً ثم تحرك حركة سريعة باتجاه خزانة عتيقة كانت تساند احد جدران البيت واستل منها قميصاً وبينما كان يرتديه لفت نظره ابنته زهرة تلك التي رزقه إياها الله قبل أيام معدودة .. وهي تبتسم ابتسامة نقية لا يستحقها سواه في العالم .. فانحنىٰ جاثياً على ركبتيه بخشوع واقترب منها وقبلها بحرارة ثم خرج من البيت قاصداً بعض أهل الخير .. لتقام بمساعدتهم ومع الصبح مراسم الدفن .

وتعاقبت الساعات لاهثة ، وما أن فرش الصبح أشلاءه في الكون حتىٰ لاذت دنيا إلى حضن أمها الأرض وللأبد .

ولما اشتدت حرارة النهار عاد الرجل إلىٰ بيته حزيناً كئيباً وعندما دلف إلى داخله ورأىٰ المولود بين يدي زوجته آمناً ترقرقت من مقلتيه دمعة حرّىٰ ، مسحها بطرف كمه ثم قال بصوت خافت فيه من الرجاء ما فيه .

– كيف حال ضيفنا يا أم زهرة .

أجابته قائلة :

– الحمد لله حالته في تحسن اطمئن فلا خطر عليه فالله كبير الرحمة .

أردف قوله :

- سأسميه صعب .

وبدهش شديد قالت أم زهرة :

- لماذا صعب !! .. ولماذا أنت الذي يسميه ؟ أليس له أهل يسمونه ؟ أين أمه ؟ .. وأين أبوه ؟ .. ما لقصته ما قصة هذا الفجر ؟

قال الرجل بعد أن تنهد تنهيدة طويلة حزينة .. متعبة :

كان فجراً غريباً .. كان فجراً غريباً ، سأخبرك فيما بعد فأنا الآن متعب جداً وأود النوم .

وأخلد إلى النوم فنام ، ولم تلبث أم زهرة أن وضعت صعبا بجانب زهرة على الفراش وهزت رأسها مبشرة زهرة بأخيها صعب فافتر ثغرها عن بسمة الأمل والألم وجعلت تضحك ثم أوت لفراشها ونامت .

وما نامت قصة الفجر .. ومرت ساعات النهار ، ومثلها ألف ليل أرخى سدوله لتغصّ الطفولة .. ووحده الزمن سيد الحصار .. وما غصّت .

الفصـــل الثـــانى

ومرت .. بضع سنين أشبه بعاصفة طويلة الأمد كانت في أوج شدتها تزأر وتزمجر ، ووالد زهرة كان خلالها لاهثاً مزمجراً متمرداً في حلبة الصراع المجنونة مع الحياة للحصول على لقمة العيش ، واللقمة كانت مُرة صعبة المنال ، وما من مهرب فالأفواه الطفلة مفتوحة وهي دائمة الانتظار .

فمرةً كان يهتدي للقمة بعد أن تكون أضلاعه قد تكسرت وتهالكت وانكتمت أنفاسه من عتالة أكياس الطحين الثقيلة وحملها من مخازنها إلىٰ عربات المخابز .

وأخرىٰ لأجلها يقطع المسافات الطويلة المجهدة الممتدة في أزقة بيروت وحاراتها ، مشياً علىٰ قدميه حيناً .. متثاقلاً .. وحيناً آخر متثاقباً .. يبيع أصنافاً مختلفة من الكعك فيتعب ولا يبالي أبداً من أن يصيبه ويداهمه الهلاك .. وما كان يعلن ذلك قط . فتارة يطوف للرزق جاهداً .. معانداً كمن يبحث عن قطرة الماء في غابة العطش .. ويفر من شبح الجوع ووهمه ، فتجده بين لحظة وأخرى .. يتهادىٰ ويتراكض كهارب من قبضة الموت الحديدية ، يحمل بين ذراعيه ما رمته المطابع من جرائد ومجلات إلىٰ الناس والشوارع .

ومن رصيف إلىٰ رصيف وفي الزحام .. يكابر ويصبر لأجل زهرة وصعب وينتصر في آخر النهار . ويكسب اللقمة بعد الألم والعلقم .

ومنذ أن طل هذا الصيف على الوجود كنت تجده وقبيل المغيب جاراً أمامه عربة بعجلتين لملم فيها ما لملمه من نفايات وقذارات رماها الناس وراءهم في الطرقات قاصداً محفلاً كبيراً أقيم بطرف المدينة لتخزين القمامة وإتلافها .

وبعد المغيب يفر فرحا هارباً من الحلبة المجنونة إلى أهل بيته حيث هناك تبتسم الطفولة لما يحمله بين يديه ، فتفرح وتكاد ترقص كالمساء وفي فرحتها تمسح من ذاكرته ومن كل أشيائه آلام النهار وأتعابه ، فتتبدل الغصّة لتصير متعة لا يدركها إلا الذين هم في حلبة الصراع

يتناطحون .. ويتراكضون لاهثين كالكلاب للحصول على رغيف الخبز ليسدوا به رمق أطفالهم .

وانصرمت أيام الصيف بعذاباتها ، والعربة ذات العجلتين ما فتئت تواكب مسيرتها وتبحر في الشوارع وعلى أكتاف الأرصفة ، جارة وراءها أبا زهرة بكل آلامه وآماله .

ها هي تتقدم قبل مجيء الغروب لتقترب من كورنيش البحر كما يقترب قرص الشمس ليغوص فيه ويغيب والنسمة مسكينة في فاه الكون خائفة مكتومة ، مثلها هؤلاء الرجال الذين جلسوا يتكلمون كثيراً ويتنهدون .. تنهيدات طويلة في مقهى «البحر» المتواضعة الفقيرة .. يرتشفون الشاي ..

ها هم يتحدثون أحاديث لا تخلو من الألم والمتعة معاً وعلى مقربة منهم اصطفت متتالية العربات ذات العجلتين الواحدة تلو الأخرى مملوءة بقذارات الأحياء والشوارع متوسمة بالمكانس الكبيرة .. وما هي إلا لحظات معدودة مرت حتى حاذت العربة زميلاتها وأخذ أبو زهرة مكانه بين الرجال في المقهى ليرتشف الشاي ويبادلهم أطراف الحديث .

ووحدها تلك الكلمات التي كانوا ينطقونها تنسج ذاتها بذاتها وتحيك قصصاً أشبه بقصص العصيان والتمرد إلا أن عصيانها كان لرغيف الخبز فقط . قصصاً قد غابت هي أصلاً في كهوف الذكريات لكنها كانت تبعث على المتعة والشجون برغم مرارتها .. فيقهقه البعض لها والبعض الآخر يخطفه الذهول فيصمت صمت اليأس والقنوط .. ثم يصحو من هذا بعد أن يكون قد لفظ من أعماقه آهاً حزينة وأي آه تلك وأبو زهرة شارد يفكر بشقائه لقد استولى عليه شرود هو أشبه بشرود المفكر المستغرق في خواطره وحاله .. يائسة بائسة . والكل لاحظ عليه ذلك ودهش من منظره .. فخاطبه أحدهم قائلاً :

– ما بالك يا أبا زهرة .

التفت إليه أبو زهرة قائلاً :

– لا .. لا شيء يا صاحبي .

استطرد الرجل : «انني أراك شاحب الوجه مصفراً .. شارد الذهن ، فهل أنت مريض ؟» قل .. قل مم تشكو .

هزّ أبو زهرة برأسه وكأنه يؤكد على الشكوى ولا يستغيث ثم قال :

– أشعر بالتعب يلف جسدي .. وقد أخور صريعاً كالثور بعد التعب .

– ماذا .. ماذا تقول .. سلامتك يا رجل وعليك اذن بالطبيب .

– وماذا يفعل الطبيب .. فلو خلصني من الآلام التي حطت بأطرافي وكتفي وأحشائي ، لن يكون قادراً على أن يخلصني من آلام ذاكرتي وفكري وحياتي ، ووحده الله ولي التدبير .

ثم انتفض رجل كان يجلس في الزاوية الركنية في المقهى قائلاً مخاطباً أبا زهرة :

– كلنا في خدمتك يا أبا زهرة . فما كان منه إلا أن مد يده إلى جيبه واستل منها بعض النقود ليعطيها إلى أبي زهرة .. واستطرد : (خذها ياصاحبي ليدبر الله أمرك فالباريء رزاق كريم» .

– شكراً لكرمك وشهامتك يا صاحبي .. أرجع نقودك إلى جيبك فوالله .. والله ما أجد فيها نفعاً ..

.. وبعد . استأذن من صحبه للانصراف .. وانصرف تعباً تجره العربة ذات العجلتين .

وحديث الرجال في المقهى توقف برهة من الوقت عن الهذيان والجريان وكأنهم ذعروا من شحوبة حال صاحبهم المسكين وأخذ كل منهم على حده يقول في سريرته متسائلاً :

– لو داهمني المرض فجأة فكيف سيكون المصير ؟؟ .. كيف .. كيف ..

وكأنهم جميعاً بدأوا الغوص في لجة النهاية المؤلمة تلك المختفية في ظلال المجهول ، ليجيء قدوم الليل موقظاً منقذاً .. فيفترق شملهم ويذهبوا ..

وقبل أن يسدل الليل سجونه الثقيلة ويحطّ جرانه على المسكونة وصل المتعثر إلى بيته حاملاً بين يديه قوتاً لزوجه وطفليه ..

ولما دلف داخلاً إليه ، أسرعت زوجه لتتناول منه ما حملت يداه وطلتْ كبدر الدجىّ مشرقة ابتسامة زهرة رقيقة شافية شفافة لتبعث في نفسه الارتياح والطمأنينة ، فابتسم لها ابتسامة ظلت تعبة رغماً من أنفه ، وما لبث أن اقترب منها لينحني إليها ويقبلها وأي قبلة !! .. حتى نظر بعينين مسكينتين متعبتين تجاه صعب النائم على الفراش قرير العين .. فتقدم منه رويداً .. رويداً ولما اقترب جثا على ركبتيه .. وامتدت يده لتتلمس برقة متناهية خصلات من طيات شعره لتمر لحظة فيقبله فيها مراراً وما كاد ينبس ببنت شفة بعد حتى شعر بغيبوبة ثقيلة تحط على جسمه فأخذ يستلقي على ظهره مسرعاً .. مستسلماً .. لدوار في رأسه .. دفعه لأن يجمد في مكانه لعدة دقائق ..

ومرت الدقائق ..

ولما التفتت إليه زوجه لم تفجع من منظره أبداً .. لكنها أوشكت وللوهلة الأولى . وقالت في سريرتها : إلى متى تملكك هذه الغيبوبة .. ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً يخلصك من هذا الألم .. ثم أسرعت تجلب بعض الماء وتسقيه فشرب وبعدها جاءته رجفة شديدة فشعر ببرودة غريبة تلامس مسامات جلده .. فاصطكت أسنانه وتأتأ فطلب وبعصبية الغطاء الصوفي .. ولما جلبته ولحفته به هرعت بعد أن ملكها احساس مشوش لتعد وجبة الطعام .

أما الرائعة زهرة فكانت فضولية جداً تتبع أمها كظلها وتراقبها بشدة وتود أن تقلدها في إعداد وجبة العشاء وحتى في تنهيدة طويلة تخرج من أعماقها ولكنها لم تكن قادرة على أن تدرك جيداً ما وراء تلك التنهيدة .

ولما جلبت أم زهرة الطعام ايقظت زوجها من غفوته المتعبة فاستيقظ متكاسلاً وأيقظ صعباً من رقاده .. ليجلسوا جميعاً على مائدة العشاء .

قالت الزوجة لزوجها بعد أن أدركت أن شروداً ما قد ملكه :

– لماذا لا تأكل .. وما الذي يشغل بالك ويتعبك يا عزيزي ؟

أجابها قائلاً :

– تقرصني عقارب الجوع فأشد بيدي على بطني .. ونفسي كارهة ترفض القوت .. ولا أخفي عليك فأنني أشعر ببركان قد ينفجر في رأسي .. ولا أدري ما سبب ذلك أهو الخوف من الغد أم من تعب النهار وقسوته .

وسكت ثم استطرد « ما دمتم أنتم بخير .. فأنا بخير .. ويا خوفي لو داهمني الموت ماذا سيحل بكم » .

انتفضت الزوجة من مكانها وبعصبية قالت :

– اسكت .. اسكت لا تقل هذا ففي هذا كفر عظيم . وما أن سكتت حتى انتفضت الرائعة زهرة من مكانها مقلدةً أمها لتقول مخاطبة أباها ما قالته أمها :

– اسكت .. اسكت لا تقل هذا ففي هذا كفر عظيم .

وعلى الفور ابتسم الزوج وزوجه واستطاعت زهرة وببراءتها أن تبدل الألم بالإبتسام .

وسارعت أم زهرة تطعم زوجها كما تطعم الأمهات أطفالهن ، وكذلك زهرة ما زالت تهوىٰ التقليد فتبدعه .. وما أحلىٰ من طفولة تقلد ..

ها هي ذي تنهال .. لترتمي في حضن والدها وتطعمه كما تفعل أمها .. ووحده صعب كان يراقب بعينيه ما يجري .. على مائدة العشاء ويبتسم ويبتسم .

ومرت ساعات ما قبل منتصف الليل .. فنام صعب وكذلك زهرة واستسلم الزوج أيضاً للنوم فنام نوماً عميقاً .

والزوجة ظلت وحيدة تساهر الليل وكأنها الضوء المشرق والرقة الناضجة عن الطيبة .. ها هي تستسلم .. لشجونه كأنثى مطيعة لبهجته فتأججت عواطفها .. بعد ذهول طويل .. طويل في حالة زوجها وبلا شعور انهال شعرها على كتفيه مستسلماً براقاً والليل باقٍ مضيء براق ووحده الليل كان قادراً على أن يوقظ الرجل من نومه ، لترتفع يده اليمنى وتغوص ملامسة أمواج شعرها والأخرىٰ راحت تلف خصرها . فلفهم الليل في عظيم نشوته وأزاح فى بالهما : ما عاداهم به النهار .

ومرت ساعات من الليل خائفة مطمئنة ، لاهثة دافئة، مرتجفة ساكنة ، ساخنة باردة ، ليستسلم كل شيء ويجيء الفجر بعد السحر مسرعاً قبل الشروق .

وبعد أن بدأت الشمس تسترجع مستلة بهدوء كساهمة شاردة أولىٰ خيوطها المذهبة من كل سفح وقاع في عصر اليوم التالي .. مرت بمقهىٰ « البحر » مطلة إلىٰ عمقه الدافىء عبر نافذته الصغيرة المطلة على وجه البحر .. وجدته حافلاً يجمع شمل المعذبين .

ولما أدركت أن حرارة أحاديثهم أكثر حرارة ودفئاً من خيوطها .. انسحبت دون استئذان مسرعة لتختفي وراء غيمة خريفية مسافرة .. فابتعدت وتابعت سيرها متجهة إلىٰ أسفل عرض البحر لتنتحر فيه ولا تموت .

والحديث في عمق المقهىٰ حار .. وما أدراك .. فحديث الفاقة والجوع .. الممزوج مزجاً غريباً بالرأفة والخشوع يظل ملتهباً .. رغم برودته ووحده كوب الشاى الذي يقدمه حكيم لزبائنه كان يستنزف الكلمات بقوة .. والعربات مصطفة علىٰ مشارف المقهىٰ واقفة ساكتة مزدانة ومملوءة بالفضلات وبقايا الأشياء ومن [illegible]زي ما أعنيه ببقايا الأشياء ؟!!

وفي زحمة الحديث التائه المشتت بين الفقر والفضيلة ، وبين الشكوى والأماني النجوى ، دلف داخلاً أبو زهرة مشرق الوجه مبتسماً بعد أن غادره الشحوب ، فحيّا الرجال وحيوّه ثم جلس بينهم يشاركهم الحديث ويرتشف معهم الشاي .

قال أحدهم يطمئن على حاله :

– عساك اليوم بخير يا شيخ « الزبالين » ..

أجابه أبو زهرة قائلاً مستبشراً بالله عزّ وجل :

– بخير والحمد لله على كل شيء .. فوحده الله وليّ التدبير .

استطرد الرجل : « ونِعم بالله .. ونِعم بالله » ثم أردف : « لقد مررت مع هذا الصباح بساحة الزعيم رياض[1] الصلح لأطمئن عليك فلم أجدك هناك ، عندها انتابني الظّن بأنك قد منحت لنفسك أجازة من العمل لتستريح .. وبالتالي لم أتوقع مجيئك إلى هنا » .

رد عليه بعد أن تنهد تنهيدة قصيرة : « لقد صدق ظنك والله فأنا فعلاً قد منحت نفسي اجازة ليوم واحد فقط ومع ذلك أفلحت برؤيتكم فيه وبذلك أكون قد أفشلت توقعك يا أخ رأفت وأتيت » .

فابتسم .. وابتسم .. فابتسموا .

وفجأة قال أبو مسعود وبصوت ثخين غليظ خرج من حنجرة خشنة دوى في آذان الجميع :

– كل شيء يتدحرج في هذا الخريف .. إلا جدتي البخيلة ، لا تتدحرج إلى القبر .

فضحك الجميع « .. ها .. ها .. ها .. » ثم استطرد وقال : « وهل يود صاحبنا أبو زهرة أن يتدحرج كورقة خريفية صفراء ويترك هذا « الكار » القذر .

التفت إليه أبو زهرة وحدجه بنظرة لم تكن ساحقة ، ثم نطق وقال يخاطبه :

– أدري .. ويدري الكل أنك فوضوي مشاغب وتميل للمزاح كثيراً ولكنهم لا يعلمون بأن صوتك الرقيق الشفاف هو الذي يقف بعناد في وجه عواصف الخريف ويمنعها من أن تدحرج أمامها جدتك » .

وعلى الفور عمت ضجة في المقهى ، كانت عبارة عن ضحك طويل طويل وصدّه وكالعادة صاحب الصوت الثخين الذي أصابه بعض الغيظ فهب يقول :

– اضحكوا .. اضحكوا على أبي مسعود ليسعد الله الفقراء .. ليسعد الله الفقراء . ثم سكت وعاد واستطرد بعد أن ابتسم ابتسامة خشنة :

« تضحكون وتشربون الشاي .. وأنا مضحكتكم ومع ذلك فأنا لا أشرب الشاي مثلكم فأين الشاي ياحكيم .. أين الشاي يا حكيم » .

قال حكيم صاحب المقهى .. حالاً .. حالاً سآتيك به يا ثرثار ..

أجابه باستهزاء غير معهود :

---

(1) رياض الصلح « ١٨٩٤ – ١٩٥١ م » سياسي لبناني ولد ببعبدا ، عمل على توطيد استقلال لبنان وولي رئاسة الوزراء عدة مرات ، اغتيل في عمان .

– إذا كنت أنا الثرثار .. فأنت الحكيم قليل الكلام .. وهاك مختصر الكلام .
وقال بعد أن مد يده إلى جيبه وتناول منها بعض النقود مبتسما مرفوع الرأس والجبين :
– خذ هذه النقود يا قليل الكلام ولتكن المشاريب هذا اليوم على حساب أخيك الثرثار .
وما كان من حكيم إلا أن جفل دهشاً وانشداهاً وقال :
– غريب .. شيء غريب .
قال الرجال وبصوت واحد متكاتف .. وما الغريب في ذلك يا حكيم .
حكيم : « من جيب أبو مسعود تخرج النقود » ثم سكت وأردف مخاطباً أبا مسعود :
– وهل عثرت يا صاحبي على الكنز المفقود .
أجابه أبو مسعود : لا .. لم أعثر بعد على الكنز المفقود ولكني عثرت على محفظة عامرة بالدراهم وجدتها مرمية منفوخة البطن والكتفين على حافة الطريق ..
« .. أليس من الواجب أن تبحث عن صاحبها وتعيدها إليه » هكذا قال حكيم لأبي مسعود . فرد الأخير قائلاً :
– نويت ذلك والله ولكني عندما فتحتها وتفحصتها جيداً لم أجد فيها غير النقود وأنا أولى بها من غيري وأنت حكيم تفهم قصدي !!
ثم التفت إلى أبي زهرة مبتسماً وقال :
– أليس كذلك يا صاحبي .
أجابه بسرور : « مبروكة عليك النقود » .. ثم شكره على دعوته وأردف قائلاً :
– سنشرب الشاي على حسابك فخذ النقود يا حكيم ولا فرق بيننا فكلنا إخوة والحال واحدة .

وفرحة عظيمة غمرت صاحب الصوت الثخين ورفاقه في الشقاء ، إلا أن شروداً ما قد داهمهم جميعاً وبدأ يشدهم الواحد تلو الآخر ، كان هذا الشرود قد ملكه كحلم قصير من أحلام اليقظة ، والكل وبدون استثناء تخيل في تلك اللحظات وتمنى بحبكة مقصودة رسمها خياله من صور هي دفينة مكبوتة .. وتقول الحبكة وكذلك يقول الخيال .. أنه وبينما كان يلملم الفضلات تلك المتروكة على رصيف ما .. عثر على محفظة مملوءة بالدراهم ، فارتفعت درجة حرارته ، وتسارعت دقات قلبه فقفز في الهواء ثلاث قفزات ثم فرح فرحاً عظيماً لا حدود له .. لم تعرفه العصور ولا حتى الأساطير ثم هرع راكضاً ليدعو صحبه وأولاد « كاره » رفاقه في العمل ليشربوا ، على حسابه الخاص الشاي في مقهى حكيم .. ثم يفر قبل المساء ليشتري كل شيء .. كل شيء في هذا العالم ، سيشتري الخبز واللحم والفاكهة . ولن ينسى أبداً أن يشتري غطاءً صوفياً ليلتحف فيه هو وأطفاله من برد الشتاء القادم على الأبواب .
ها هو ذا .. يتذكر ويقول في سريرته : قبل كل شيء يجب أن أشتري لوحين اثنين لا ثالث لهما من صفائح التوتياء لأسد به سقف البيت المكشوف . نعم .. لن يزاحمني مطر الشتاء في هذا العام .

ومرت لحظات معدودة كان خلالها الكل غواصاً ماهراً في حلم اليقظة الذي ما زال . وما أن قهقه صاحب الحنجرة الثخينة ، حتى ايقظهم من شرودهم الجميل .. فاستفاقوا ليبقى الواقع المر كالشبح المخيف المتمرد .

وكرة أخرى عاودت أحاديثهم جريانها وحرارتها فتعالت حبال الصوت الدافئة المرة من حناجرهم لترمي ومن جديد الضجة في عمق « المقهى » منتصرةً على الواقع وأي انتصار !! بعد أن خضعت وضربت ذاتها بسياط الزمن .

— — —

« ما بالي .. ما بالي أرى الشوارع هذه الأيام عامرة مطفوحة بقصاصات الورق الصغيرة والكبيرة المتناثرة بآلاف الأشكال في كل مكان كأوراق الشجر التى هزّتها رياح الخريف أفي هذا لغزاً صعب الحل ؟ » كذلك قال أبو حازم « الزبال » مستفسراً عن هذا الأمر الذي غدا له وكأنه لغز يحتاج إلى حل .

أجابه فرج مبتسماً .. وهذا بدوره أصغرهم سناً في مجلسهم وفي العمل أيضاً وهو ابن القيروان[1] جاء لبيروت منذ أعوام قليلة ليتابع فيها دراسته في كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية .. واتخذ من عمله كمنظف لأحد شوارع بيروت سبيلاً ليقتات منه فيدرس أولاً ثم يعيش .

نطق قائلاً : لا أرى في قصاصات الورق المبعثرة في الشوارع أي لغز .. يا أبا حازم فكل الأوراق تلك المتناثرة في الشوارع وعلى الأرصفة وحتى في الأطراف هي عبارة عن

نداءات ، وبيانات مختلفة لأحزاب كثيرة .. كثيرة .. كثيرة موجودة في هذه الديار العامرة بالاتجاهات المختلفة المتخلفة المساعي والأهداف الحائرة مستجدية لأن تجد لها طريقا إلى ساحة النضال .

وهنا ضج أبو مسعود بضحك هادر .. هادر إلى درجة جعلت أبا حازم يسترخي وجعلت فرج نفسه يبتسم .. ثم وبغباء قال :

ماذا ؟ بيانات ، أحزاب ، واتجاهات .. وأنا الذي بأمّ عيني رأيت الصبيان في الطرقات يلملمون من هذه القصاصات ويصنعون منها الطائرات الورقية .. نعم نعم .. لقد رأيتهم يصنعون منها سفناً صغيرة وصواريخ أيضاً .. وما أبدعهم وهم يتسابقون إلى قذفها هنا وهناك .. في الهواء وإلى الماء .

وباحترام بالغ القدر أجاب ابن القيروان قائلاً :

بيانات ، أحزاب ، اتجاهات ، وغيرها جميعها مصطلحات سياسية ومن يقذف بالقصاصات الورقية إلى الطرقات يقذفها لتقرأ الناس ما كتب فيها .. لا ليصنع منها الصغار سفناً وطائرات .. أفهمت يا صاحبي .. أفهمت ..

(1) القيروان مدينة بتونس بناها القائد عقبة بن نافع سنة 670 هـ ، اقامت بها عاصمة الفاطميين الأولى 909 هـ ، وبها جامع القيروان الشهير ، والذي يرجع إلى القرن التاسع تشتهر القيروان بصناعة السجاد ويبلغ عدد سكانها 33968 نسمة .

« لا .. لا لم أفهم » كذلك قال صاحب الصوت الثخين ساخراً ، فانتفض فرج من قعدته مكتظاً وهرع مسرعاً باتجاه العربات المزدانة المطفوحة بالفضلات وقصاصات الورق المختلفة .. فمر على الأولى لا ليتفقدها .. بل ليمد يده ويستل من حضنها بعض القصاصات ثم .. آل إلى أخرى .. وأخرى .. وأخرى .

وعاد يحمل بين يديه قسطاً لا بأس به من الأوراق المختلفة الأحجام والألوان وما أن مكث على الكرسي الخشبي الصغير بين الرجال .. حتى تناول ورقة من القصاصات التي وضعها أمامه على الأرض قبل قليل كما يستل أحدنا ورقة الحظ من بائع أوراق اليانصيب .

– ولما عزم على قراءة ما كُتب على ظهر الورقة قال :

– .. اسمعوا يا رجال .. إن لكل قصاصة من هذا الورق حكاية .. وهأنذا سأعرفكم بهوية هذه الورقة لكنني سأعجز بكل تأكيد على أن أسرد لكم حكايتها وما أن بدأ ليقرأ ويقول .. في أعلى .. حتى قاطعه صوت غليظ يقول الصوت بلهجة الساخر : « وهل للأوراق هوية يا فرج » .

« اسكت ، اصمت قليلاً يا رجل .. دعنا نسمع ما يقول » هكذا قال الجميع وبصوت واحد .

وأردف فرج :

« في أعلى الورقة كتب وبخط عريض .. عريض « مجموعة الانتقام » وفي منتصفها كتب وبخط بارز .. أقصد بحرف نافر « سننتقم .. سننتقم لأن شعارنا وهدفنا هو الإنسان » .

ثم سكت فرج وأردف يقول بعد أن تناول ورقة أخرى :

– انظروا إلى هذه الورقة .. تبدو جميلة اللون زاهية أليس كذلك !! وهذه الباهية كتب في وسطها وبخط غليظ « مجموعة الثأر » وأهدافنا أخونا الإنسان « سنثأر .. سنثأر » ..

ثم رماها من يده وتناول ثالثة وقال :

هذه الورقة تبدو مستطيلة الشكل لكنها تعود للحزب التقدمي الاشتراكي وما أدراك ما الحزب التقدمي الاشتراكي .. ثم رماها أيضا وتناول رابعة تعود لحزب الكتائب .

ثم ارتفع صوته بعد أن بدأت عليه ملامح المتحمس لشيء ما .. وقال :

– انظروا .. انظروا إلى هذه الورقة البراقة ذات اللون البرتقالي فهذه الورقة التحفة تعود لحراس الأرز ..

ومد يده لواحدة أخرى وقال :

– أما هذه القصاصة الصفراء فتعود للتجمع البطريكي ..

ثم هز رأسه إلى أعلى وأسفل .. وبعد أن تمتم كالخائف وكأنه يطالب حبال صوته بأن لا تعلو حيث قال :

– وهذه التى تناولتها يدي مؤخراً تابعة لقوات الصاعقة ، وأختها القادمة من تكون ؟

هات وناولني ورقة يا أبا حازم .. فناوله ثم ضحك ضحكة خوف وقال :

– ألم أقل لكم ستكون أخت التى قبلها فهذه المحظوظة تابعة ومباشرة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين .

وكرة أخرى قاطعه صاحب الصوت الثخين بعد أن مد يده إلى القصاصات واستل واحدة منها قائلاً : بحق الرب عرفني بهوية هذه الورقة .. فتناولها فرج .. ولما قرأ ما كتب فيها قال ضاحكاً ساخراً : « أنها تابعة لمجموعة أيلول الأسود » بيض الله بختك وأزاح السواد من أيامك .

ثم كانت المفاجأة حيث قال أبو زهرة بعد أن استل من جيبه ورقة أنظف الأوراق على الاطلاق وأبهاها منظراً ولوناً مخاطباً فرج بعد أن أعطاه الورقة :

وماذا عن هوية هذه الورقة التي زينت بصورة أبي خالد .. ووالله لولا صورته ما وضعتها منذ أيام في جيبي .

قال فرج وبدون أن يقرأ ما كتب عليها :

إنها تابعة « للمرابطين » ما دامت قد زينت بصورة الخالد .. ثم شده شرود أدهش الجميع .. وأدهش أبا زهرة ذاته . ليقول أحدهم : المرابطون .. ما يعني هذا يا فرج .

أجابه فرج .. جماعة تتزاحم على نضال الخالد فتحاول الانتماء إلى اسمه .. ولا أكثر ولا أكثر .. وتطلق على نفسها « حركة الناصريين الاشتراكيين » وسكت سكوتاً طويلاً .

ثم قال صاحب الصوت الثخين وبعصبية المتمرد الرافض .

وماذا يعنينا من كل هذا .. فكل هذا هراء .. ما دامت الأوراق كلها قد غاصت آمنة حالمة في حضن العربات .

وبهذه الكلمات ختم أبو مسعود حديث الرجال .. وما أن انتحرت الشمس غريقة في عرض البحر حتى تفرق شملهم من جديد .. ليفروا إلى منازلهم فيضحك عليهم ولا يضحك لهم ذلك القدر .

وظلّ ..

وظلّ البحر وحيداً عملاقاً يتحدى المساء بعدما ابتلع قرص الشمس ليجيء الليل محطماً غروره ساكباً عليه وشاح الظلام .

ومضت مطوة من الليل .. فلاذ أبو زهرة لبيته ، وكذلك مكث رفاقه في بيوتهم مغموسين غمساً فيها .. خانعين طائعين لأسارير الليل وبهائه وسرعان ما استسلمت أجسادهم المنهكة التعبة لسنة النوم .

وتجدد صراع !! فانتصر الحلم واحتل كل نفوذ ضارباً في عرض الحائط سكون البحر وغروره محطماً عرش الليل الذي لا يقهر ، فتارة يفرح الحلم ذاته فيفرحهم في رقادهم ، وتارة يجيء منسوجاً بالخوف والقهر مذعوراً فيخيفهم ، وتارة ثالثة يحلق طائراً في سماء السعادة فيخلصهم من عذابات ومرارة الواقع فيسعدهم ليعود في آخر المطاف ويصبح مكللاً .. مجللاً .. في كيانهم كابوساً ذا وشاح رهيب رهيب فيرهبهم . وقبل أن يزدادوا لهاثاً .. ويصرخوا .. يرتفع الضحى . فيعيدهم كرة أخرى إلى الواقع .. فيستفيقوا من رقادهم فيهب في وجههم النهار هباً ويسبحون إليه نشوراً .

ولما اشتدت حرارة النهار ، تجمعوا في ميقات واحد أمام بوابة مقر بلدية « منطقة الدورة » الواقفة على الشط في العاصمة .

ها هم اولاء يشكلون حلقة دائرية ليست كمثل الحلقات في المحافل الدولية ، كانت هذه الحلقة بريئة المرام .. وسامية الأهداف والمنال ، أهدافها النظافة نظافة بيروت الحالمة المطمئنة بشوارعها وأحيائها وناسها الطيبين . أما مرامها في البدء والنهاية لقمة العيش الهاربة الغائبة المنال !!

« لقد جاء مسرعاً بعد تأخير ناظر البلدية صاحب الأمر الذي ليس له مثيل .. ها هو قادم إلينا بقائمة شوارع المساكين » ..

عندئذٍ قال فرج مجيلاً الطرف في حوله :

– أظن يا رجال أن الحظ هذه المرة أيضاً سيحالف صاحب الصوت الثخين ويبقى المسؤول عن تنظيف شوارع جل الديب .. فيبدو أن هناك علاقة وطيدة وخفية بينه وبين جل الديب .

فابتسم الجميع ابتسامات عريضة ثم حضر صاحب الأمر الذي ليس له مثيل وبيده ورقة مستطيلة كتب على ظهرها أسماء رجال وحارات وشوارع .. ثم قال في لهجة آمرة بعد أن ابتسم نصف ابتسامة مجاملاً الرجال :

– مرحباً بكم يا رجال ، لتلتزموا الصمت قليلا .. فالتزم الرجال .

ثم أردف ، سأتلو عليكم الآن اسماءكم وأسماء المناطق التي تم اختياركم للعمل فيها ضمن الدورة الجديدة بعد التبديل الأخير وهذا عرفٌ مقصود تثابر في تدبيره إدارة البلدية كلما اقتضت ذلك الضرورة .. فهلم اسمعوا ..

السيد أبو مسعود « شرق العاصمة » منطقة « جل الديب »

وهنا قاطعه الرجال بالضحك والثرثرة فيما بينهم على أبي مسعود .

وقال فرج مبتسماً : ألم أقل لكم يا رجال إن هناك علاقة وطيدة بين أبي مسعود وبين جل الديب .

« اسكت يا سيد .. اسكت والتزموا الصمت جميعكم حتى يمكنني أن أتابع قراءة القائمة » كذلك قال الناظر بعصبية ثم أردف وبصوت عالٍ :

أبو حازم	« شرق العاصمة »	– « منطقة انطلياس »
أبو محمود	« شرق العاصمة »	– « منطقة نهر الكلب »
أبو ريمون	« غرب العاصمة »	– « منطقة المتحف »
أبو سيمون	« غرب العاصمة »	– « منطقة البربير »
أبو جريس	« غرب العاصمة »	– « منطقة دويرة المطار »
أبو وليم	« غرب العاصمة »	– « منطقة رأس بيروت »
فرج القيرواني	« غرب العاصمة »	– « شارع جمال عبد الناصر »
أبو حسين	« شرق العاصمة »	– « منطقة الزلقا »

أبو زهرة «شرق العاصمة» - «مشفى دير الصليب».

وكرة أخرى قاطعه الرجال بالضحك الطويل والمشاغبة المقصودة فقال الناظر في إيماءة ضارية - وما الذي يضحككم .. ولم هذا الشغب المقصود ؟

قال أبو مسعود مقاطعاً إياه : العصفورية يا سيدي الناظر .. إنها العصفورية .

الناظر : وما بال العصفورية يا ثخين الصوت .

ثم أردف أبو مسعود : لا .. لا شيء تفضل وتابع قراءة القائمة .. وتابع الناظر فقال : فلان شرق المدينة .. منطقة ؟ .. وفلان غرب - ولما انتهى من قراءة جدول الأسماء أضاف يقول :

ها أنا قد تلوت على مسامعكم الأسماء والأماكن ويبقى أن أقول للبقية الباقية منكم أقصد الذين لم يسمعوا أسماءهم فعليهم جميعاً أن يختاروا بحرية مطلقة من يرتاحون للعمل معهم من رؤساء الورديات الصباحية فقط ولا أقول المسائية .. انتبهوا .. ثم فر مسرعاً ليدخل إلى مبنى البلدية وهو يتمتم ويقول : «هراء .. هراء .. إلخ ..» .

وما هي إلا لحظات مرتْ حتى علا صوت الرجال وهم يثرثرون ضاحكين على أبي زهرة . ووحده أبو مسعود من كان يشعل فتيل الضحك .

عندئذٍ قال أبو زهرة رافعاً عينيه في ضراعة .. مخاطباً الجميع :

- ما بالها العصفورية أليست بدورها أرحم من زحمة الشوارع وأتعابها وعلى الأقل فهي بيت كبير عامرٌ بالرحمة والحنان .. لخدمة الإنسانية ، وأنا سأكون سعيداً جداً عندما أباشر عملي في هذا البيت العظيم .. الذي تسمونه أنتم العصفورية .

وانصرم ذلك اليوم من عمر الزمن .. وكذلك توارت الأيام ساخرة مستهزئة وغير مبالية بالذين ما زالت أفواههم عطشى في غابة اسمها الحياة .

وأبو زهرة المسكين ، جاهداً .. يثابر في عمله ، ينظف ويكنس في ذلك البيت العامر . ومن يدري بما عَمَّرْ .

الفصــل الثــالث

كان الصبح طفلاً ما يزال ، عندما فتح صعب عينيه ، ونهض من فراشه كما نهضت منذ لحظات خيوط الضياء الأولى من حضن الكون براقة غير قلقة لتشق طريقها إلى الوجود .

لقد استشعر الطفل أنه بهيج سعيد لأنه سيرافق والده إلى بيروت العظيمة ، لم يكن وقتذاك يدري عنها أي شيء .. وما كان باله مشوشاً بقذارات الزمن ، ووحدها ذاكرته العذراء الصافية النقية كانت في أوج ولادتها نشطة نظيفة ما مستها شائبة بعد كبرعم زهرة ربيعية ما قبلته الشمس وما صادقه الندى بعد ..

في هذه الأثناء جالت في خواطره أفكار هي بعفتها أطهر بكثير مما يدبره الزمن للفقير ، كان يبحث في خيال خصب ومجتهد عن صورة تتمثل أمامه لبيروت ، فصار خياله ينسج خيوطاً غير حائرة لما تدبر وذاتها بذاتها تحيك الخيوط لتبعث في صور متعددة الجمال والروعة لكنها في حقيقتها تشبه بيروت إلى حد ما .

في الوهلة الأولى تخيل بيروت على أنها حديقة من ورد رائعة الجمال عامرة بالفرح ويلعب في حضنها الأطفال لعبة « الطمامة » كما كان يلعب هو وأخته زهرة على مقربة من بيتهم الواقع بين البيوت المتكسرة .. المتعثرة .

ثم تراءت له بصورة أخرى على أنها كقطعة من الحلوى سيتذوقها اليوم لا محالة وينعم بطعمها اللذيذ وتخيلها أيضاً على أنها أرجوحة وادعة سيرتمي في حضنها ويفرح كتلك الأرجوحة التي نصبتها له أمه بين الصنوبرات على مقربة من البيت الذي يأويهم . ولم يستبعد في احدى الصور أن تكون دميةً صغيرة تشبه عذراء طاهرة اسمها زهرة الدلوعة .. وعلى كل حال كان مسروراً جداً لكل ما صنعه الخيال ذلك البرعم النظيف .. وأي سرور ذاك !!

ومرت اللحظات غير خائفة فتنفس الصباح .. جاء مشرقا خلابا فبزغت الشمس واستيقظ أبو زهرة وكذلك زهرة الدلوعة وأمها وبعد أن جلسوا جميعا لتناول ما احتفت به « مائدة الإفطار » الفقيرة .. انطلق صعب فرحاً برفقة والده إلى الشارع قاصدين بيروت الحلوى والأرجوحة !!

وفي الطريق ..

وبعد ما أن قطعا مشياً على الأقدام مسافة كانت تقع بين البيوت المتعثرة .. ومنطقة القصور .. وعندما دخلا منطقة القصور العملاقة بدت على وجه الطفل أمارات دهش أبكم .. كان بصره يجوس متعطشاً لرؤية كل ما حوله في رحاب هذا الكون العظيم الكبير فأخذ بشكل أو بآخر يلتفت يمنة ويسرة ويتتبع بعينيه الواهنتين ما يجرى هنا وما يقع هناك .

على يمين الطريق كان يرى أشجار الورد والياسمين البري قد وقفت تتسلق جدران القصور الكبيرة وحيث اللبلاب يتعرش حول جذوع الأشجار .. والرياحين قادمة من تلك الحدائق الواقعة على أكتاف القصور .. جاءت معطرة بالهواء بضروب من الشذى الأرج .

وعلى مقربة دانية من زريبة صغيرة تشبه بشكلها بيته الصغير خرجت أحصنة حمراء عدة وحولها ينبح كلب صغير .. لم يدهشه ذلك أبداً ولكن أمتعه هذا التشابه الكبير .. ؟

ومن جديد أمعن النظر في كل ما كان يحتفي به الكون ، وعندما مدّ نظره إلى مسافات بعيدة .. وقريبة رأى الأرض قد اكتست بوشاحها الأخضر الأشد اشراقاً وسفحت فيه الأرجاء عطورها الأشد ذكاء .. ذلك كان الربيع حوله في أوج قوته وكل شيء بهيج ولكن ليس بمستوى بهجة صعب الذي ما زال يفكر بالحلوى والأرجوحة .

والطفل يده مشبوكة بيد والده كما اشتبكت خيوط الشمس التي أخذت تتسرب من بين عيدان البلوط الواقفة على مقربة من مشارف المدينة ..

ها هم قد سارا فترة من الزمن خلال الجزء الفاصل بين بيتهما في الأطراف والعذراء بيروت . ولما دخلا في جزء من المدينة وكان من أشد أجزائها ازدحاماً وأكثرها اكتظاظا بالسكان .. وأصاب ما أصاب صعب من دهش وغرابة عندما رأى بأم عينيه السيارات في الطرقات والأبنية الشاهقة .. وضجة وشغب لم يألفها من قبل . وعندما هبطا شارعاً مؤديا إلى كورنيش البحر توقف صعب عن المسير وفاجأ والده بقوله :

— أين بيروت يا أبتي ؟

فأجابه أبو زهرة بعد أن ابتسم ابتسامة عريضة .. عريضة ..

« عند بائع الحلوى يا ولدي .. هناك قرب الكورنيش ، لا تهتم ستلتهمها بعد قليل هيا .. يا نتابع المسير » .

فابتسم الصغير .. وتابع مسيره برفقة والده .. وبدا عليه أنه كان مسرعاً يود أن يسبق كل شيء ليصل إلى الكورنيش والحلوى .

ومرة أخرى وقف .. ليقول :

— ألم نصل بعد يا والدي .

أجابه أبو زهرة قائلاً : « ما بالك يا صغيري .. ستأكل الحلوى .. ستأكل الحلوى » ..

وتابعا سيرهما حتى وصلا إلى مقهى « البحر » فدخلاه ، وعلى الفور تم الترحيب بهما بحرارة ، وجلس أبو زهرة بعد غياب على كرسي صغير بين الرجال مبتسما مشرق الوجه ليسامرهم ..

ويحادثهم .. ويشرب معهم الشاي .

وظلَّ صعب واقفاً جامداً كالمهزوم من حرب ضارية .. يائساً حزيناً ينتظر الحلوى ولا جدوى فلقد مر من الوقت أكثر من نصف ساعة وهو لم يتذوق الحلوى بعد .. فقال حكيم يخاطب أبا زهرة « من هذا الصغير الأمير يا أبا زهرة » .

أجابه : إنه ولدي صعب .

أردف حكيم « وما باله يبدو حزيناً » .

أجابه قائلاً وهو يبتسم ويضحك : « يود أن يتعرف على بيروت وينتظر أن يأكل الحلوى » .

« ولم لا .. فالحلوى كثيرة ومتنوعة وبيروت اليوم تبدو رائعة وسيمة » كذلك قال حكيم ثم استطرد بعد أن توقف عن الكلام برهة من الوقت :

« سآتيك بالحلوى يا وسيم .. يا أمير .. تعال يا صغيري واجلس بجانب والدك » ثم قدم لصعب كرسيا صغيرا فجلس عليه ، وهرع حكيم ليخرج من المقهى قاصداً بائع الحلوى الواقف على بعد أمتار من المقهى .

وحديث الرجال متصل تارة يقسو وتارة أخرى يلين .

ووحده صعب لا يبالي بالقسوة واللين كل همه أن يعود حكيم حاملاً بيديه قطعة فاخرة من الحلوى .

ولما اشترى حكيم بعض الحلوى من عند بائعها عاد مسرعاً إلى المقهى ولما دلفه قدمها لصعب فابتسم الصغير وأي ابتسامة .. وتلذذ بطعمها الطيب اللذيذ .

فابتسم الجميع لمنظره وهو يلتهم الحلوى بشراهة غير معهودة وهذه بدورها لا يعرفها إلا من هم في سن البراءة والعفة الخالصة الحدود .

ومضت برهة من الوقت وقهقه أبو مسعود صاحب الصوت الثخين ثم قال يخاطب أبو زهرة على سبيل المزاح والنكتة .

« ما بال ولدك الجميل يأكل الحلوى كالمفجوع .. ألم تطعمه الحلوى من قبل » .

أجابه أبو زهرة :

وكيف تود أن يأكل أطفالنا الحلوى ونحن فعلا لم نقدمها لهم طوال هذه السنين .. ملعون أبو الفقر .. ملعون أبو الفقر » . ثم تنهد تنهيدة طويلة وسكت

وفي هذه الأثناء كان صعب قد التهم الحلوى ولم يبق منها شيء .. ففتح فاها صغيرا ليخرج منه لسان صغير .. وبدأ يلحس ما حوله كما يفعل قط صغير .. فالتفت إليه أبو مسعود ضاحكاً . وكذلك الجميع .

وصعب ما كان يدري علام يضحك الرجال . ثم وبلا شعور وبينما كان الكل في فورة أحد احاديثهم تسلل صعب من عمق المقهى .. فخرج .. وهو ما زال يحدق بعينيه الواهنتين ويتتبع كل ما وقع حوله في الكون ..

لفت نظره هنا على مقربة من المقهى زورق صغير يرقد ساكنًا على الرمال .. فأسرع نحوه وما أن

حاذاه حتى جلس بحضنه .. وبدأ يتأمل ما احتواه ثم فجأة لفت نظره سمكة صغيرة ميتة فمد يده وتناولها وبدأ يتفحصها ويتمحصها .. ويتلمسها .. ثم قذفها إلى بعيد ..
وعاد يتأمل بشدة هذا البحر العملاق ويتتبع هناك حركة الموج وهي تتسارع إلى الأمام لتناطح الصخور ثم تعود مهزومة .. وكم أدهشه هذا المنظر العجيب .. ثم نهض من مكانه وغادر الزورق ليتقدم باتجاه الموج .. وتقدم .. وتقدم حتى توقف عندما تسرب الماء إلى قدميه وابتل حذاؤه .. فرجع كما رجعت الأمواج إلى الوراء .. ثم جلس على رمال رطبة وشيئاً .. فشيئاً بدأ يلملم الحصى .. ويدفع بيديه ليجرف من الرمال ما استطاع وكأنه يود أن يحفر حفرة صغيرة .. ولما حفر الحفرة نهض ليلملم الحصى .. ويلملم .. وبينما كان يفعل هذا عثر على السمكة مرة أخرى فحملها وجاء بالحصى ليرميها جميعها في قلب الحفرة .. ثم ردمها .. ومن جديد عاد يتأمل كل شيء .. التفت إلى يمينه .. ثم إلى شماله كان كل شيء جميلاً والنسمة رقيقة منعشة وهناك على مد النظر كان يبحر ذلك السفين في عرض البحر .. فكم تمنى صعب وقتذاك أن يركب البحر .. والبحر عملاق أخرس ..

وفجأة ناداه صوت .. انه صوت والده الذي خرج من المقهى يتفقده ..

صعب ... صعب هيا يا ولدي سنذهب .

فابتسم صعب ونهض من جلسته وفر راكضاً باتجاه والده . وما أن حاذاه حتى شبك يده .. بيده ليقول له والده :

أأعجبك البحر ..؟

صعب : انه كبير يا والدي ..

أبو زهرة : أسعيد أنت يا ولدي ..

فابتسم الصغير ثم قال : نعم .. نعم .

وما هي إلا لحظات مرت .. حتى استأذن أبو زهرة بالانصراف وانصرف جاراً وراءه صعبا قاصداً « دير الصليب » مقر عمله .

ها هما يسيران ببطء كعقارب الساعة بخطوات هادئة ومطمئنة ، ليعبرا أرصفة وشوارع اكتظت بمظاهر الفرحة متظاهرة وكأنها في يوم لم تعرفه من قبل والمسافة .. تطول ولا تطول ، وتكبر في بيروت الفرحة ثم تكبر الصرخة .

صعب ما زال يلتفت يمنة ويسرة ، وبين الفينة والفينة تراه وكأنه يبحث في الأشياء التي يراها للوهلة الأولى ، وبهرته عن شيء في معناها ومدلولها لكنه لم يكن بمقدوره أن يدرك لمعانيها أي تفاصيل !!

من الغرب إلى الشرق سيارات صغيرة وكبيرة تجيء وتمضي مسرعة مزدانة بالأعلام الملونة والصور المختلفة لأشخاص كثيرين .. والناس قد برزوا من نوافذها بروز المبتهجين المسرورين .

البعض منهم يصفق بيديه والبعض الآخر يهتف ويغني ، وتلك فتاة جميلة تمد يدها عبر احدى نوافذ السيارة ملوحة بمنديل أبيض وإلى جانبها وقفت أخرى تبعثر من يديها قصاصات من الورق ..

وراحت تتطاير القصاصات لترتمي هنا ... وهناك على الأرصفة وفي الطرقات .

ومن أمام صعب مرت سيارة مجنونة عبرت مثل زمورها كلمح البصر أو الطيف كانت تقل في حضنها رجالاً مسلحين يرتدون لباسا مموهاً فيه ما فيه من لون الخضرة ورمال الصحراء وأحدهم يرفع يده اليمنى مشيراً بعلامة النصر .. وأي نصر هذا !!

وآخرون يوجهون فوهات بنادقهم إلى السماء ليضربوها بالرصاص ضرباً .. وصوت الرصاص أخذ يدوي وكأنه يود أن يملأ الكون صدى .. وصدى الفرحة عمّ المكان وما عمّ الزمان .

ومن هنا ..

من زاوية ركنية على رصيف وقفت النسوة تطلقن من أفواههن الزغاريد .. وعلام تزغرد النساء .. علام تزغرد النساء وتفرح ؟!

وصعب يتتبع بعينيه ويسمع بأذنيه .. وما زالت قدماه تضربان الأرض ضرباً ما زال يسير وراء والده القاصد دير الصليب .

فجأة وقع بصره على لوحة كبيرة من قماش سدت واجهة بناء شاهق وكبير رسم عليها قيود مكسرة وشعلة في يد ملتهبة ، ووردة حمراء قانية وشيء من حريق ولهب .

توقف صعب عن المسير ، ثم قال مندهشاً يخاطب أباه :

- ما الذي يجري هنا يا أبتي .

التفت إليه أبو زهرة قائلاً :

- بيروت في عرسها اليوم يا ولدي .

صعب .. وبغرابة قال :

- وأين هي العروس بيروت يا أبتي .

أبو زهرة .. ومن حنجرة دافئة نطق ليقول :

- هي كل ما حولك من طفولة ، أرضٌ وناس أبرياء طيبون .

هي أمنا قلب هذا الوطن المسكين ألم ترها بعد .. ألم ترها بعد .

ولم يرها صعب وقتذاك . لكن ذاكرته العذراء كانت تستقبل بمهارة كل هذه الصور الرائعة تلك التي التقطتها من هنا ومن هناك واختزنتها بنشاط واهن لا مثيل له .

فجأة اتفق الواقع مع الحقيقة ليمنحا صعبا صورة هي بحد ذاتها مزيج من أحقاد وأطماع سياسية لتبقى هذه الصورة محفورة في ذاكرته على مر السنين كانت أولى السموم التي تجرعتها ذاكرة نظيفة صافية هي أصفى بكثير من سياسات قذرة لا ترحم .. أبداً .. بل أول غيث الحقد الذي انتزع عذرية الطفولة وعذرية الأشياء التى فجعت واندثرت شيئاً فشيئاً .

وبينما كانت الشمس ما زالت واقفة كان أبو زهرة يجر وراءه صعبا قاصداً دير الصليب حتى إذا عبرا شارعا ثم دلفا إلى عمق شارع من شوارع منطقة عين الرمانة توقف صعب عن المسير بعد أن أصابه التعب ثم نطق قائلاً :

- لقد تعبت قدماي من المسير يا أبتي .. لنجلس هنا على حافة سور الحديقة .

التفت إليه أبو زهرة قائلاً :

مثلما تريد ياولدي .. هيا إلى حافة سور الحديقة .

.. وجلسا على مقربة من سور الحديقة تلك التي ازدانت بشجيرات الرمان ..

ومرت لحظات ..

وها هي ذي قادمة تسبقها الزمامير .. ورشقات الرصاص .. وفرحة من هم في الطرقات . ها هي تتقدم .. وتتقدم قوافل المتظاهرين المحتفلين من مختلف المناطق اللبنانية بأول مناسبة يوم الأرض[1] بعد فرحة كبيرة لم تدم احتفت بها بيروت قلب الوطن منذ مطلع هذا النهار تضامناً مع شعب فلسطين .

ها هي قد عبرت وما زالت قوافل الفرحة .. وبفرحة قال صعب يسأل أباه :

– وإلى أين تذهب كل هذه السيارات والجموع الغفيرة .

أجابه : إلى مخيم تل الزعتر يا ولدي .

فجأة توقفت في الطريق عدة سيارات صغيرة .. لينتفض من داخلها رجال مسلحون يحملون بأيديهم رشاشات لئيمة .. كانوا في حالة ارتباك شديد وبدا أحدهم غاضباً .. ناقماً يصرخ ويقول : توزعوا .. توزعوا ..

وتوزعوا في عرض الطريق هنا وهناك .. ليصنعوا كميناً .

وصعب يتتبع حركاتهم بشدة ..

فجأة قال أحدهم : يخاطب أبا زهرة وولده :

هيا .. انهضا من هنا .. هيا ولي يا رجل أنت وولدك .

وولى هارباً أبو زهرة وولده .. فقفزا من على سور الحديقة ليدخلا إليها ويجلسان تحت ظلال شجيرات الرمان .

ومرت لحظة خاطفة .. وصعب ما زال ينظر .. إلى عرض الطريق ويراقب بشدة ما يجرى هناك وأبوه يزداد خوفاً وخاصة عندما لم يعد يرى حركة السير عبر الطريق حتى بدا الطريق خاليا من حركة المارة والسيارات .. فابتلع ريقه .. مرة .. بعد مرة .. وكأن الريق صار مراً .. فارتجف خائفاً وهو يقول في سريرته :

ما هذا !! شيء غريب .. شيء غريب ..

ومرت لحظة أخرى .. حتى حضر كالمارد إلى الطريق ماراً . قاصداً تل الزعتر باصٌ كبير فاستوقفه هؤلاء الأوغاد بالقوة وهرولوا حوله لاهثين وكأنهم يودون أن يفترسوه كالذئاب التي لا تجير تائها . وهاجموه بسرعة جنونية كسرعة الضوء الفائقة الحدود .

---

(1) في الحادي والثلاثين من آذار عام 1977 م استولت القوات الإسرائيلية على آلاف من الدنومات من الأرض في الجليل الأعلى في فلسطين تحت قوة السلاح وهذه الأراضي تتبع للملكية العربية في البقعة المذكورة ولم يسكت أصحاب هذه الأراضي على ما حدث فقامت الاحتجاجات التظاهرية واشتبكت عناصر من الشباب العربي مع السلطات المحتلة مما أسفرت هذه الاشتباكات عن استشهاد سبعة مواطنين وجرح ثلاثين آخرين على أرضهم وفوق ترابها دفاعاً عنها .. وسمي ذلك اليوم بيوم الأرض « المؤلف » .

وصعب .. الطفولة .. ما زال يتتبع هذه الواقعة بشيء من الغرابة والتعجب وازداد تعجباً عندما رأى كل الذين احتفل بهم الباص في داخله يهرعون خائفين ليفروا من الباب الخلفي ومن النوافذ .. وما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .. جاءهم الرصاص يستوقفهم ثم جاء صوت الرصاص يدوي ويصرع فجاءت ساعة الموت والكارثة حزينة .. حزينة ..

« ما الذي يحدث داخل الباص ، ولماذا الرصاص والصراخ » كذلك قال صعب في سريرته ويده اليمنى تقطف وبلا شعور زهرات الرمان .

عندها كانت اللحظات قد مرت مجنونة في ساعة من ساعات الموت الجماعي لم يعرفها غدر العصور .. فقتل المهاجمون كل من احتفل الباص بأنفاسهم الدافئة .

ومزقت رصاصات الغدر أجسادهم الطاهرة ، وكذلك مزقت أطراف ذلك الباص المارد .

ثم فرت بعد ذلك وبسرعة الضوء السيارات الصغيرة وعلى ظهرها الشياطين المسلحون وظلّ الباص واقفاً بلا حراك .. وكل ما في داخله هامد لا يتنفس قد استسلم للموت وماتت الفرحة .. وما ماتت الصرخة .

في هذه الأثناء ودون أن يدري صعب ووالده كانا قد اقتربا رويداً .. رويداً على مقربة من سور الحديقة .. ثم على مقربة من الباص لينظرا عن كثب ما وقع للباص المفجوع قبل قليل ..

وقع بصر الطفل على أسفل ركائز الباب الخلفي للباص .. كانت خيوط الدم الحمراء تتدفق .. جاءت زاحفة من عمق أجساد تمزقت لكنها ظلت دافئة .. وتخرج الخيوط متقطرة .. هاربة تنساب لتسقط على حافة الطريق بجانب بقايا الزجاج المكسر المحطم المتناثر هنا وهناك .

وما أن اقترب صعب .. أكثر فأكثر حتى حاذى جانب بقع من الدم تلك التي شكلت لوحة رهيبة من لوحات الموت ..

ما كان منه إلا أن رمى ما بيديه من زهرات اقتطفها قبل قليل من على أغصان شجرة الرمان .. وتناثرت زهرات الرّمان فوق بقعة من بقع الدم .

وبعد أن انغمست زهرات شجرة الرمان بالدم .. فرّ الوالد حزيناً وولده المدهوش أيضاً بعد أن دبّ في قلبهما ذلك المشهد ما دبّه من الخوف والاشمئزاز والفزع الغريب .. قاصدين دير الصليب .. تاركين وراءهما « عين الرمانة » وهي تصرخ مفجوعة وتبكي بكاءً مراً محتفية بأولى المآسي الرهيبة تلك التي لم يصنعها القدر بل صنعها سياس الحمير الذين يحملون حقائب سياسية كانت قادرة على أن تمزق كل شيء وتلهبه لهباً .. ووحدها أشياء الموت الرهيبة تلك التي رآها ذلك الربيع في أول يوم للأرض ظلت محفورة في الذاكرة الطفلة .

وها هما يتابعان المسير بخطوات ذاهلة حيناً .. وحيناً آخر ثقيلة مبالية ومستهزئة في آن واحد لا تسرق الخطوة أختها كما يسرق ناظر الطفل صوراً براقة مبدعة تارة وأخرى مخيفة تفجع .. يقتطفها من هذا الوجود مع هذا النهار الذي غدا في نصفه الآخر .

وعين الشمس ظلت دافئة مثل ذاكرة طفلة تختزن ولا تختزل ، تستلهم ولا تستسلم

والاستفهام في ذاته غير مطروح على الإطلاق ما زال الطفل يبدو منطلقاً بكل ما فيه .. ينظر ويتعجب ويستغرب من كل شيء أحيط به قصراً غير مستفسراً عن أصول الأشياء ومعانيها .

لكن البحر هذا الكيان العملاق ظلّ يشكل عنده أمنية لم تكن غريبة على البراءة بأسمى آياتها فالطفل يودّ أن يمتطيه كما يمتطي الرجل الحصان ، ولا يودّ أبداً أن يبحث فيه عن قصة المد والجذر أو الخوض في أغواره . وأبدعه الموج الذي سارع ليناطح الصخور .. وكما تمنى أن يركب في حضن زورق عثر في حضنه على سمكة ميتة .. مثل ذلك البحار الذي رآه يركب في حضن السفين هارباً إلى العمق البعيد وما أدرانا ما وراء ذلك العمق البعيد .. ربما هناك دمية صغيرة أو قطعة حلوى وربما أرجوحة وادعة .. طاف إليها خيال صعب .. وما أبدع ذلك الخيال .

ومثلما ظلّ النصف الآخر من النهار طلت عليهما زاهرة بأحراشها المنعشة النشطة « منطقة الزلقا » الواقفة بين عملاق أخرس وجبل شامخ يمتطيه بناء ضخم .

وفي طريق ملتوية جبلية عابقة برائحة الصنوبر والخرنوب كان يتدحرج منساباً ماء النبع الكامن على كتف الجبل .. جاء مسرعاً بعكس اللذين ما زالا وبيطء شديد يصعدان إلى رأس الجبل .. وزفرات أنفاس شيخ الزبالين لاهثة هياجة من التعب والطفل بعمر البراعم يشدو لروعة المكان لا يهاب غور الأحراش ولا شموخ هذا الجبل .. ونفسه تواقة مطمئنة .. تواقة للصعود .. إلى الأعلى وكأنه مسافرٌ إلى تلك السماء الرحبة ربما سيصل إليها وما أدرانا !!

وظلّ على مقربة منهم المبنى شامخاً مبتسماً للبحر صباح مساء يفترش حوله جناحيه حدائق الورد المزدانة بسور من شجيرات الصبار .

ويحمي في عمقه نساءً .. ما فرحت فرحة العقلاء .. نساءً تُذْبَح يَذبَحها فكر الشيطان فيسلبها كل شيء .. إسوة بما سُلبت منه من قبل .

وعبر أشرعة أكبر نافذة احتفت بها مبنى « دير الصليب » وقف كارو يحدج بعينيه الثاقبتين إلى أطراف البحر والأحراش ، لم يكن يبحث في هذا عن أطلال ماضٍ ولّى بل كان دماغه منهمكاً يفرز للعقل وظيفة هي أقرب من الأبالسة للشيطان .

ها هي ذي يده اليمنى تمتد لا لتداعب . جورية بيضاء مبتهجة في مزهرية صغيرة وضعت على كتفي النافذة بل امتدت إليها لتهرسها وتفتت أوراقها وتبعثرها ، واليد الأخرى ارتفعت لا لتحاذي الوجه بل لتلامس طرف شاربه الغليظ .. لا لتفتته إنما لتتلمسه برقة تشبه رقة من يفاخر بشاربيه ويتباهى بنفوذ كبير .

وكارو صاحب رأس كبير وقف على جسد رشيق لا يميل للبدانة ولا للنحوب ، ووجه لا يعرف الشحوب أبداً لكن فكره. ظلّ مسموماً شاحباً تكمن فيه غرائز لا تنتمي لبشر بل هي ذئبية وحشية لا ترحم .

وفي صوته بحة غريبة لا تجدها من فاه الزمن ولا حتى في موسيقى العصر ، بحة تشبه العهر في أعلى مواقعه ، ووراء عينيه شيطان يدبر ، وتبقى النفس مريضة غير راضية تواقة للرذيلة في أبشع مستوياتها .

ها هو ذا يتراجع إلى الخلف خطوة ليمد يده ويتناول من علبة صغيرة مزخرفة بالياقوت والفضة وقعت على طرف مكتبه رائعة .. ليستل منها سيجاراً ، ومن جيب سترته الحريرية البيضاء استل ولاعة صفراء مذهبة وأشعل السيجار كمن ينفخ في بوق .. وما لبث حتى لفظ من صدره سحابات دخان التنباك ، وما زال يفكر ، ويبحث في عينين براقتين فيهما بريق كانون ويجيل البصر هنا .. وهناك في الأطراف الرائعة بعد أن كان قد تقدم كرة أخرى وحاذى وجه النافذة .. ثم تمتم بكلمات غريبة وقال :

« علام تبقى عذرية الأشياء .. علام » ..

وانتفض غضباً ليقول كرة أخرى وبصوت شيطاني عنيد : « لا .. لا .. لا .. لن تبقى » . ثم انتابه حزن شديد وأعقبته رجفةٌ فاهتز منها ولها وتنفس على أثرها الصعداء وتلهف .. ثم تلهف « وبدأ اللهاث كـ .. » ..

وما أن هدأ قليلا حتى عاد بصره يجوس غضباً في الأطراف ليقع وباتجاه الأسفل على مقربة من بوابة المبنى حيث طل صعب يجره شيخ الزبالين .

وبرهة من الوقت مرت ، دلف خلالها القادمان إلى مبنى « دير الصليب » وفي الشطر الأول من مدخله الفخم توقفا ينتظران المصعد الكهربائي ، ولما حضر دخلاه وامتدت يد شيخ الزبالين لتضغط على « الزرار » رقم ثلاثة المحفور عليه سهم مقلوب باتجاه الأسفل .. وإلى أسفل المبنى هبط المصعد ثلاثة طوابق ، وصعب الوسيم مشدوهاً يتعجب .. لقد أسعده ذلك !!

وما هي إلا ثوانٍ من عمر الوقت فرتْ حتى خرجا من داخل كبينة المصعد ليستقبلهما ممر ضيق وعبره مشيا بخطوات عجلة ليدخلا إلى البهو الكبير ذلك المزدحم بالرطوبة والسخونة معاً ، والصغير كالواهن يتتبع بعينه الطفلة ما يقع أمام ناظره ، فتارةً تراه يلتفت يمنة وتارةً يسرة .

وبدهش أبكم كان يتمعن بشدة ما وقع حوله ولم يكن يدري لماذا وقفت تلك الخزانات الضخمة المصطفة الواحدة تلو الأخرى المملوءة بالماء الساخن والبارد والمحروقات المختلفة ولا حتى أي شيء عن تلك المولدات الكهربائية الضخمة الواقفة منذ سنين تساند الجدار الأيسر ومنها وإليها تتشابك وتتسابق ولا تتنافر الأسلاك .

ها هو ذا .. يتقدم بخطوات بطيئة وكسولة ليدخل إلى غرفة التنظيفات القاعدة في منتصف البهو .. ولما دخلها لفت انتباهه تلك الأوعية المرمية على بلاطات الغرفة فانهمك لا ليلملمها بل ليلعب فيها لأنها كانت بشكلها كروية أشبه بالكرات المدورة وشيخ الزبالين ينهمك أيضا في غرفة المصعد المخصص للقمامة .. ها هو يستقبل حاوية ويبدل أخرى .. وهكذا .

وجاء فجأة ليدوي في مسامع صعب صوت نسائي يدعو السيد أبا زهرة قائلاً عبر « انترفون » وضع كوسام على صدر أحد جدران الغرفة :

-- الرجاء .. من السيد أبي زهرة عامل التنظيفات مراجعة رئيس القسم ..

— الرجاء .

عندئذٍ التفت الصغير يمنة ويسرة .. ويسرة ويمنة ثم ازدادت لفتاته وبدا عليه علامات

دهش أبكم .

فقال في سريرته : « ما بالي لا أرى صاحبة الصوت » .. وبعد جاءت صيحة والده مسعفه الموقف .. حيث ناداه بصوت خاطف قائلاً :

– « هيا يا صعب .. هيا يا بني لنسرع .. سنذهب » فهرول إليه وهرعا معاً ليصعدا إلى الطابق الثاني في القسم العلوي من المبنى . ولما وصلا إلى غرفة رئيس قسم التنظيفات ، فامتثل السيد أبو زهرة أمام السيدة أوديت ووراءه وقف صعب مكتوف الأيدي هادئاً جميلاً .

وعلى الفور رحبت به السيدة كثيراً لأنها كانت تكن له احتراماً خاصاً لوفائه وصدقه في العمل وعندما طلّ من خلفه وجه الطفل الوسيم في وجه السيدة أوديت كالشهاب على الأرض الظلماء انتفضت من قعدتها كفراشة هائمة استهدت لخد الورد بعد توهان .

وبلهفة ملؤها الحرارة نطقت قائلة تخاطب الصغير :

– « ما أبدعك .. ما أبدعك طفلاً » .

ثم اقتربت منه أكثر .. فأكثر وبدون استئذان قبلته قبلة غريبة فيها ما فيها من الحنان والعطش ، جعلت أبا زهرة يفاخر قائلاً بعد أن ابتسم ابتسامة عريضة :

– أنه ولدي .. ولدي صعب .

« اسم غريب لوسيم رائع » كذلك قالت السيدة أوديت وبعد .. عزمت على أن يجلس الوسيم على مقربة منها بعد أن كرت إلى قعدتها ، فجلس ، ويداها امتدت لتلامس طيات شعره .

في تلك الأثناء ارتفع صوتها ينادي احدى العاملات ، وشيخ الزبالين ما زال واقفاً على مقربة من باب الغرفة يمتثل أمام السيدة رئيسة القسم .

ولما حضرت عاملة القسم أمرتها السيدة باحضار عصير الليمون للوسيم ووحده صعب تلهف وبشدة لتذوق عصير الليمون بعد تعب هذا النهار ..

ثم اردفت السيدة تخاطب أبا زهرة برقة متناهية الحدود ..

« .. اوه .. أوه .. لقد نسيت ، أن السيد المدير العام يستدعيك على الفور .. هيا .. هيا أسرع إليه » .

وبغرابة تمتم أبو زهرة قائلا بصوت خافت وكأنه يهمس همساً :

– الدكتور كارو .. الدكتور كارو ولماذا يطلبني ؟

السيدة أوديت : « هيا اذهب إليه يا أبا زهرة .. هيا » فذهب مسرعا تاركا صعبا في ضيافة السيدة رئيسة القسم تلك التي ما زالت تتلمس طيات شعر الطفل وتنظر إلى عينيه باحتراق شديد ، وبرعم الورد مستسلماً لمداعبتها ما زال منتظراً عصير الليمون .

وها هو ذا يبتسم لليمون القادم ذلك المملوء في الكأس .. انه يتراقص ويطفح .. وها هي عاملة القسم قد وضعته على المنضدة الكبيرة

وأسرعت تغادر .. الغرفة بكل هدوء .

وعدة دقائق مرت حظي خلالها صعب بعصير الليمون ، وحظيت أوديت بمزيد من القبلات

الحارة .. الحارة ..

والسيدة أوديت بدورها امرأة طفلة لا تنجب الأطفال ، كالحورية حورائية العينين جيداء ، ممشوقة القامة مكتنزة ، ضامرة شقراء بيضاء كبياض الثلج الذى لم تلذعه أشعة الشمس ، لكنها مزاجية إلى أبعد الحدود تمتاز أحيانا بعصبية عالية مرامها حب النظام وبخدمة أهل هذا المبنى .

وكانت قد ورثت عن زوجها الذي غادرها وللأبد منذ سنين أثر نوبة قلبية حادة أسمى آيات الحنان والرأفة ، وبيتاً هادئاً صغيراً يقع في غرب المدينة يتوسط بناء ضخماً جميلاً يقف على أكتاف منطقة « المنارة » المطلة على وجه البحر .. وبعد عدة أيام ستحتفل أوديت وحدها كالعادة بعيد ميلادها الثلاثين وقد تسعدها جداً المفاجأة لو وقعت وعادت أختها من بلاد المهجر بعد غياب طويل .

وتعاقبت بضع دقائق .. وما رحلت بعد آخر ساعات النهار ، واليوم طال ويطول وبال أبي زهرة الواقف في غرفة السكرتارية يزداد تشوشاً وحيرة ..

ها هو ذي ينتظر أن يسمح له بالدخول إلى غرفة مكتب السيد كارو .

وعندما دخل وامتثل صامتاً طائعاً بين يدي سعادة الدكتور كارو دون أن ينبس ببنت شفة حتى طلت ابتسامة القاعد مرتخيا وراء المكتب الكبير على كرسي يكاد يبتلعه .. لينطق كارو قائلاً وبلطف شديد :

– تقدم .. تقدم .. يا أبا زهرة .

فتقدم أبو زهرة بعدة أشبار من ربع خطوة حائرة .

واستطرد كارو :

– ما بالك كالخائف .. تقدم .. هيا تقدم .. تعال واجلس .

ولما جلس نصف جلسة خجولة ومرتبكة .

أردف كارو يخاطبه بعد أن خطفه شرودٌ ما ..

« أدرك جيداً أنك من أشد العاملين أخلاصا للعمل .. وتقديراً لهذا الاخلاص قررت مكافأتك أولاً ، ونقلك إلى الطوابق العليا ثانياً ..

وقبل أن تشرق ابتسامة أبي زهرة .

استأنف كارو بعد شرود قصير داهمه كرة أخرى :

« .. ولكن .. ولكن قل لي .. من يكون ذلك الصبي الصغير القادم إلى الدير بصحبتك » .

أبو زهرة وبصوت مذعور أجابه قائلاً :

– أنه ولدي صعب يا سيدي، ولأول مرة أحضره للمبنى ..

كارو .. ومرة ثالثة داهمه الشرود .. ليقول بصوت رقيق خبيث بعدما استفاق من شروده :

– ولماذا لم تحضره إليّ لأتعرف عليه .

فصمت أبو زهرة وأصابه ما أصابه من الدهش والاستغراب . لينطق قائلاً وبحرارة : يشرفني .. يشرفني ذلك يا سيدي ..

« إذن هيا اسرع وأحضره إليّ » كذلك قال كارو الخبيث .
فانتفض أبو زهرة من قعدته كما ينتفض هيجان النفس وهرع مسرعاً ليحضر الصبي وبعد ما أوصد باب غرفة مكتب السيد كارو خلفه راح يخطو كالبرق إلى قسم التنظيفات تغمره سعادة فائقة لا حدود لها .

في هذه الأثناء نهض كارو من قعدته على الكرسي الهزاز الكبير كالذئب من وكره وخطا خطوات باتجاه النافذة وعبرها حدج الكون بنظرة ساحقة .. وأي نظرة تلك . وبعد تأمل عميق بمنظر ذلك الغروب الراكن في وجه كل شيء .. همس الخبيث قائلاً :

– « أدري .. أدري أن لا شيء سيبقى .. لا شيء سيبقى وحتى عذرية هذا الغروب البارع .. براعة فيها حمرة الورد واحتراق الزمن » .

.. ومن جديد تراجع عن وجه النافذة وجعل يذرع أرض الغرفة جيئة وذهوباً وبدأ خياله المسموم القذر ينسج صوراً مختلفة شيطانية لا تعرف الرحمة .. فتخيل فيها الطفل ذلك الذى ينتظر قدومه عارياً جميلاً يمثل بين يديه .. يتلمسه .. بيديه القذرة كما تلمس وريقات الجورية فدهسها .. وبعثرها .. فلذذت نفسه لهذا وشعر بمتعة غريبة لا يدركها إلا اللوطيون من هم مثله في هذا العالم .. ذلكم الذين يسعدهم جداً أن ينتهكوا عذرية الطفولة .. واباحة ودهس كل جوريات الدنيا .

ووحدها عذرية الطفل تبقى .. وتبقى .. وتبقى ..
ولا تبقى بعد حين الطفولة العذراء عندما ستغوص الرؤوس وحدها في لجة النهاية المؤلمة وتختفي في ظلال المجهول .

وقبيل رحيل المساء ببرهة قصيرة من الزمن غادر صعب مبنى « دير الصليب » برفقة والده .. وبذاكرة نشطة .. طفلة أبحرت منذ مطلع هذا النهار في بحر مسموم قذر .. كالح الألوان أغواره لا تعرف العفة .. شيطانية منحلة لا قصاص فيها بين بسمة وصرخة ، ولا حتى بين فرحة وغصة . وفي الأعماق لا رحمة لا رحمة .. وزهرات الرمان انغمست ببقعة من الدم .. ستغدو نهراً .. فسيلاً .. فبحراً .. ويغرق الكل وينغمس في الدم غمساً ..

وقبيل أن ينغمس ظلام الليل في حضن الكون غمساً قفل شيخ الزبالين وولده عائدين إلى البيت في أناة .

الفصـــل الرابـــع

في هدأة الليل من ذلك اليوم اختفى صوت الهدهد في الأحراش ليظلّ صوت أزيز يبعثه زيزٌ صغير ، وبدا « دير الصليب » ذلك الموطن الذي لا يسكنه العقلاء هادئاً ، ساكناً ، ساكتاً يمتطي رأس الجبل ، وتسطع في داخله مصابيح خافتة حمراء وبيضاء مبهرة المنظر لترسل إلى الأحراش المظلمة خيوطاً من الضوء كخيوط النجم في السماء لكنها ما كانت قادرة على أن تصل إلى عمق الأحراش الخاوية .

وقبيل أن يهجم مستسلما منتصف الليل على صدر الكون وتحط النسمات الباردة أثقالها على أغصان البلوط والصنوبر .. دوى صوت عواء لذئب هرم وما كان للقاطنات في الدير مصدراً للإزعاج بل جاء محرضاً على إثارة ضجة لا يدركن معناها أبداً ، وكان للفريق المناوب من طاقم الممرضات شيئاً اعتيادياً كإعلان ساعة بكبن إشارة ما قبل منتصف الليل .

ومن غرفة ركنية في الطابق العلوي ها هي ذي إحدى القاطنات تمد برأسها عبر شباك حديدي وقف عنيداً قوياً بقضبانه الغليظة يسد نافذة الغرفة منذ سنين لتنطق القاطنة فرحةً كفرحة النعجة بسكين ذابحها وتصدر عبر موجات حبالها الصوتية صوتاً تقلد فيه عواء الذئب .. ع ووو .. ع ووو لتشدها فجأة ومن شعرها رفيقة لها في مسكنها .. ثم تدعها على الفور فتضحك لها ضحكاً طويلاً دفع بالباقيات على أن يضحكن .. ويضحكن ، وقبل أن تمر لحظات انقلب الضحك إلى بكاء .. فبكت تلك التي كانت تقلد عواء الذئب .. كثيراً وكذلك رفيقاتها الواحدة تلو الأخرى .. وما أدراك ما شدة تلك العلاقة بين الضحك والبكاء على أن لا تطول المسافة بينهما .. لحظة واحدة .

ثم انتفضت من على سرير توسط الغرفة فتاة أقرب أن تكون في جمالها بنتاً للشمس ، شقراء ذهبية لكنها مفزعة المنظر عندما تمتلكها عصبية حادة وبعض آلام الرأس .

ها هي ذي تهرع خائفة مرتجفة إلى زاوية الغرفة لتقول بصوت خافت خائف ..

« .. لا تقترب مني فأنا ما زلت عذراء » .

« لا .. لا .. لا » . ثم تصرخ بحدة وتصمت صمت المذعورين ويتنابها حزن شديد تطرده ضحكة طويلة تجيء مخلصاً .. ومن حين إلى حين وعمر هذا الحين لا يتجاوز لحظة يجيء الضحك ثم البكاء ولا يلتقيان معاً .. وعواء الذئب يدوي ولا يصرع .

وما أن مرت برهة قصيرة من الوقت .. حتى خمدت الضجة وسكت البكاء والضحك معاً في الطابق العلوي وبدون سبب مؤثر ، سكت الأزيز أيضاً وظلّ ضوء مصباح مبهر لسيارة تشق طريقها إلى الدير في رأس الجبل ، وعندما حاذت السيارة على مقربة من مشارف بوابة المبنى توقفت فتوقف محركها عن الدوران وفتحت أبوابها ليهرول من داخلها إلى داخل المبنى الدكتور كارو وبصحبته ثلاثة رجال يحملون بأيديهم حقائب دبلوماسية ..

وما أدراك ما قصة تلك الحقائب !!

و ..

ها هم أولاء جميعاً اتباع الدكتور كارو قد دخلوا إلى غرفة مكتبه الفخم تباعاً كذيله لا كظله وجلسوا مباشرة على مائدة البحث وأي مائدة تلك !! يقابلهم تماما الدكتور كارو الجالس في حضن كرسيه الهزاز وراء مكتبه الضخم لكنه ما كان هادئاً أو صافي الذهن على الاطلاق ..

ها هي ذي يده اليسرى تلك التي احتفت من احدى متاجر لندن بخاتم من « السولتير » الباهظ الثمن .. ها هي اليد تمتد إلى « انترفون » وضع كالحريص الطيع على زاوية المكتب فوق المنضدة ليضغط السيد بإبهامه على الزرار ويستدعي مريم إحدى العاملات المناوبات في الدير ، ثم يدفع بكتفيه إلى الخلف ويتنهد تنهيدة قصيرة جداً ليخاطب أحدهم قائلاً :

– دكتور مارون قبل كل شيء هيا خبرنا عن سلامة مقاعدنا في المجلس النيابي قبل أن تداهمنا موجة الانتخابات فالانتخابات على الأبواب .

وبعد أن ابتسم الثخين الذي يدعى الدكتور مارون ابتسامة الساخر من شيء ما قال كالواثق جداً من نفسه :

– اتشك يادكتور أن أحداً يجرؤ على الاعتداء على مقاعدنا في المجلس ، لا .. لا .. ، اطمئن فوضعنا سيبقى جيداً وعلى الأقل ما دامت الأفواه مكتومة ، ولا تنسى أن الأخضر وتأشيرة الخروج سيلعبان دوراً مؤكداً في الوقت المناسب ولن نحتاج إلى هذا مؤقتاً لأن ألسنة هؤلاء المغفلين لا يمكنها أبداً التفكير في الاعتداء على المقاعد المارونية في المجلس وكذلك الدروز الذين لا يشكلون أي ثقل أبداً .. فاطمئن .. لا خوف أبداً .

« كل ما يهمني وزارة الصحة وبعض أجزاء من الداخلية » كذلك قال كارو برجاء رافقه لين شديد .

ثم أردف مارون قائلاً :

« لا تهتم يا عزيزي سيحالفنا الحظ بكل تأكيد ونحتفي بالصحة والداخلية كلها وقد نحتفي بالمالية أيضاً » .

« ولكن .. ولكن لماذا الصحة وأجزاء من الداخلية بالتحديد » كذلك قال جورج الجالس على يمين المائدة .

وقبل أن ينبس كارو ببنت شفة ويجيبه على استفساره قرع باب غرفة المكتب بعدة نقرات خفيفة .

قال كارو : « ادخل .. ادخل » ..

ولما فتح الباب طلت مريم احدى المناوبات وكأنها حورية من حوريات الجنة لتنطق كالهامسة قائلة للدكتور كارو :

– أمرك سيدي .

– كارو : اقتربي يا مريم .

فاقتربت عدة أشبار :

كارو مستفسراً : كيف حال الدير ؟

مريم : كل شيء على ما يرام يا سيدي .

– أود منك احضار ملف الطفلة التي دخلت الدير منذ أيام .

– أتقصد اللقيطة المتسولة يا سيدي .

–هل هي حقاً لقيطة ، ما كنت أعلم ذلك قط .. هيا من فضلك أسرعي وأحضري لي ملفها .

ولما تراجعت مريم عدة أشبار لتخرج .

أردف كارو قائلاً :

– ولكن .. أين .. أين هي الآن ؟ .. وكيف حالتها .

مريم : انها راقدة في سريرها لكنها ما زالت تعاني بشدة من آلام في رأسها .

كارو : سأتدبر أمرها فيما بعد .. هيا أسرعي وأحضري لي ملفها .

وهرعت مريم توصد باب غرفة المكتب خلفها لاحضار ملف الطفلة المتسولة . وعندما أغلق الباب أخذ الثخين مارون يقهقه بطريقة غير عادية أثارت بعض اشمئزاز الجميع فما كان من كارو إلا أن حدّجه بنظرة ساحقة أدرك معناها مارون وكف عن القهقهة ليقول مخاطبا كارو :

– عذراً .

– عذراً انها جميلة وهادئة وما أثار قهقهتي هو أنك تبدو حنوناً جداً وليناً في معاملتك مع « ... » .

كارو : « كف عن المزاح فالوقت غير مناسب للقهقهة لدينا أعمال كثيرة تشغل بالي وتشوش فكري » وسكت . فسكت مارون .

يردف كارو قائلاً :

وأما جوابي لك يا سيد جورج ، فهو أننا لو تمكّنا من وزارة الصحة وبعض أجزاء من الداخلية سيوفر لنا ذلك جواً مريحاً في العمل الذي نقوم به وذلك الجو نحن بحاجة ماسة إليه .. فالصحة وأجزاء من الداخلية مكسب بالغ الأهمية .. من خلال هذا المكسب سننقل ما نريد نقله إلى الخارج بسهولة وبطرق أكثر شرعية وسلامة وعلى الأقل لن نحتاج عندها إلى من نتعاون معهم في الداخلية وفي الهجرة والجوازات وغير ذلك وبالتالي سيكون السيد جوزيف دبلوماسيا محمياً من كل المتاعب أفهمتني ..

« نعم .. نعم فهمتك يا معلم بكل تأكيد ستتمكن من الصحة والداخلية معاً » كذلك أجابه مبتسما ثم أردف قائلاً :

على أية حال المكسب معنا ولنا في كل الأحوال .

مارون : ما الذي تقصده بقولك هذا ..؟

جورج : الوضع العام في البلد يبدو لي غارقاً في لجة الحرب تلك التي بدأت نارها تلتهم كل شيء ، وهذا سيسهل علينا كثيراً القيام بما نريد أن نفعله .. والفوضى تبدو أنها عارمة في هذه الأيام وستأخذ مكانها المرموق في هذه الديار بعد حين .. فالمكاسب تبدو لي واضحة المعالم في كل الاحتمالات . ألا توافقني بذلك يا دكتور .

كارو مبتسماً : « أنت رجل ذكي .. وهذه شهادة قديمة كنت قد أدليت لك فيها منذ سنين عندما كنا معاً في واشنطن » .. أتذكر ..

جورج : « وكيف أنسى واشنطن تلك الحبيبة العظيمة .. » ثم تنهد الأخير تنهيدة طويلة .

ثم أردف كارو يقول :

يا سادة : الحرب ستساعدنا فعلاً وستدعم دخلنا بشكل لا يصدق أبداً والبضاعة ستتوفر بدون أية متاعب ، وكلي أمل أن تكون لنا في النهاية زمام الأمور .

مارون مبتسماً وبعد أن أصابته نشوة عظيمة قال : « نعم .. نعم .. سيكون لنا كل ما نريد .. كل ما نريد .. » .

أثار ما قاله مارون الضحك لدى الجميع ، وبعد أن ضحك قال كارو يخاطبه بسخرية : أؤكد لك أن لا شيء يكفيك يا عزيزي فبطنك كبيرة جداً ولا يملأ عينيك غير حفنة من تراب .

مارون أجابه قائلاً :

– « لو كان عليّ فسأبتلع كل شيء ، ولكنك لن تدعني أبتلع كل شيء لأن القسط الأكبر من كل شيء سيكون في حوزتك يا معلم » ..

فابتسم كارو ابتسامة رقيقة وكذلك جورج وجوزيف الذي ما تكلم أبدًا .

كارو يخاطب جوزيف قائلاً :

ما بالك يا سيد جوزيف لا تتكلم أبداً ألا تود مشاركتنا في الحديث .

أجابه جوزيف قائلاً :

علمتني الحياة أن أكون كالماء الراكن في مستنقع عميق الغور ، فعندما سيأتي دوري في الكلام سأتكلم .

كارو : « يعجبني فيك أنك رجل هادئ ولكنك ذكي خبيث وماهر » .

أثار ما قاله كارو لجوزيف قهقهة مارون بشكل أوجد في غرفة المكتب ضجة لن تهدأ إلا عندما قرع باب المكتب ودخلت العاملة مريم تحمل بين يديها الملف ، وعلى الفور قدمته للسيد كارو وانصرفت بعد ما أمرها بالانصراف .

فأخذ كارو يتصفح ويتفحص ويتمحص الملف بانتباه وتركيز شديدين وكذلك الرجال الثلاثة فقد بدا عليهم جميعا أنهم ينتظرون شيئاً سحريا سيعبق من ذلك الملف . وازداد شغفهم لسماع

أية كلمة سينطقها الدكتور كارو .

ومرت لحظات معدودة فنطق بعدها كارو قائلاً :

– كل شيء على ما يرام .. يمكننا يا سادة أن نبدأ بالعملية الجديدة في غضون أيام قليلة .. أجاهز أنت يا جوزيف .

جوزيف وبعد أن هزّ رأسه قال مبتسما « بكل تأكيد يا سيدى » . فسرّ الجميع سروراً بالغاً وموجة من الفرح ظلت فى خلدهم باقية ليعاود جوزيف ويردف قائلاً : إذاً ..

إذاً يمكنني أن أحصل على صور فوتوغرافية للطفلة بالاضافة إلى بعض الأوراق والتقارير الطبية اللازمة لنحصل لها على جواز سفر وتأشيرة لأميريكا .

كارو وبعد أن تناول من علبة السجائر سيجارة واشعلها وقذف من فمه سحابة من الدخان طويلة قال :

لك ما تشاء غداً .. فافعل ما تريد المهم يمكنك أخذها إلى هوليود في غضون أيام قليلة .

جوزيف وبشغف قال :

– الا يمكنني رؤيتها الآن يا سيدي ..

كارو مبتسماً : « ولم لا .. ستراها الآن .. » .

وعلى وجه السرعة وعبر « الانترفون » أمر كارو العاملة مريم بإحضار الطفلة فوراً .

ومن جديد تابعوا أحاديثهم المسمومة تلك الأحاديث القذرة التي استهدفت في طياتها طفولة لبنان والطفولة فيه .

والطفلة كانت غارقة في بحر النوم الذي كان يخلصها من عذابات آلام تسكن في رأسها تلك العذابات التي توارثتها رويداً .. رويداً من بيئة ظالمة ومجرمة في مجتمع لا يرحم أبداً .. منذ أن طلت على وجه هذا الوجود .. وحيدة غريبة لقيطة سُلبت معظم أيامها الأولى بما فيها تلك الطفولة الغضّة التي ما انتهى عهدها بعد ، تلك الطفولة المقهورة التي ذعرت وخضعت في ريعان تفتحها وهي ما زالت برعماً لتسلط إمرأة خبيثة استغلتها مقابل تربيتها ثمانية سنوات أبشع استغلال ، ثم قذفتها إلى الشوارع ، لتتوه .. وتتوه فابتلعها الطريق وضاقت بها الدنيا فلا مطرحاً لمأوى ولا سبيلاً لمأكل أو مشرب ليكون بالتالي المصير مفزعاً ومخيفاً .. ففي ذات يوم وبينما كانت تتوه في أحد الشوارع المتطرفة في المدينة شاردة ذاهلة جائعة .. كان الوقت قبل المساء عندما لجأت إلى رجل يجلس وحيداً تحت اكتاف شجيرات صغيرة وقفت على حافة الطريق ، ولما اقتربت منه داهمتها رائحة غريبة لم تكن على السكير بغريبة .. وأخذت تطلب راجية إياه أن يمدها ببعض الطعام والشراب .. فما كان منه إلا أن عاملها بلطف ولين وأطعمها خبزاً ولبنا ولما شبعت وارتوت ابت الرحيل ، فمنعها ومنعها وحاول هذا الذئب البشرى أن يتمكن منها ويشدها إلى خلف الشجيرات ويغتصبها بشكل قذر .. لا أجرأ أبداً على وصفه ..

ولما فعل بالطفولة ما فعل وتمكن منها جيداً وهي ما زالت غضة غريرة رماها على حافة رصيف .. ومضي تاركاً قعدته بين أشجار طفلة لا يتجاوز عمرها ثلاث سنوات وقفت على كتف

شارع متطرف صغير يحاذي وجه البحر ويجاور الرمال .

ومرّ ذلك المساء حزيناً والطفلة باقية على حالها مفجوعة مسلوبة قد أصابتها حالة اغماء شديدة وما زالت تنزف نزيفاً حاداً .

.. وقارورة الخمر تحت أكتاف الشجيرات باقية وكذلك بعض بقايا اللبن .. وعلى مقربة منها وقعت قطرات من دم طاهر نظيف .. ووحده الخبيث قد ولّى .. وآلام طفلة غضة ما ولت .. وما ولت .

وقبل أن تحطّ ظلمة الليل سوادها في حضن الكون .. وبقدرة قادر يمر في ذلك الوقت بائع متجول يجرّ أمامه عربته ليرى الطفلة متمددة .. ممزقة الثياب ، فيسرع نحوها ويفجع لمنظرها ثم يحملها بين يديه ويهرع مسرعاً باتجاه مشفى قريب تاركاً عربته على حافة الطريق ..

ويتم في ذلك الليل الذي طال وطال .. إسعاف الطفلة التي انقذها الله وحده من الموت .. لتبقى في المشفى لعدة أسابيع ويتم نقلها فيما بعد لدير الصليب لأنها كانت قد فقدت عقلها أثر ذلك الحادث الرهيب .

وها هي بعد كل العذابات تتمدد راقدة هائتة في بحر النوم .. ومن يدري بماذا تحلم الآن .. فهل هي حقاً قادرة على أن ترى حلماً جميلاً بعد ما سلبها الواقع عذريتها وعقلها وذاكرتها بل وسلبها كل شيء .

ها هي ذي تتقلب في نومها وتحرك شفتيها لتنطق هامسة راجية قائلة : دميتي .. أريد دميتي ..

إذاً هي تحلم ما دامت تقول وتردد في نومها « دميتي .. دميتي » نعم هناك داخل كيان الإنسان عالم آخر هو أصفى من عالمنا بكثير .. يدركه فاقد عقله ولا ندركه نحن العقلاء .. كل ما ندركه هو القتل والغدر والتدمير وسحق الطفولة في فجر رونقها ويفاعتها ..

في هذه الاثناء وبينما كانت الطفلة ما زالت هائتة في نومها دخلت العاملة مريم للحجرة التي تنام فيها هذه المعذبة .. وبكل رقة وحنان أيقظتها من نومها وهي تقول في سريرتها :

— لأني ادرك يا صغيرتي إنكِ تعبة وما زلت بحاجة ماسة إلى النوم التمس منك العذر ..

وما كان بودي أن أوقظك من نومك ولكن كارو تعود على ازعاجنا دوماً !!

واستيقظت الطفولة من نومها كالخائفة المذعورة ثم قعدت على الفراش نصف قعدة وامتدت يداها لتشدا شعرها بعصبية لا حدود لها من شدة ألم يسكن في رأسها .

وتحركت المسكينة حركةً تعبة ، وما كفت يداها عن شعرها إلا عندما قادتها مريم وأخذتها جاهدة مسرعة تمتثل برفقتها أمام الدكتور كارو .. ولما وصلتا .. غرفة المكتب .. امتثلت مريم وبجانبها الطفلة التي ما زالت تشكو من آلام في رأسها ، وعلى الفور أمر كارو مريم بالانصراف فانصرفت وسارع ليقف تاركاً كرسيه الهزاز ويخطو باتجاه الطفلة لا لأنها تشدّ شعرها وتتألم ، وليس ليقدم لها أية مساعدة أو على الأقل ليمنحها مسكناً يخفف بعض آلامها .. بل لينظر نظرة طويلة .. طويلة في لؤلؤ عينيها وكأنه ذلك المحار الذي يتأكد من صحة قطعة من الماس الثمين .

وتمتد يده إلى عينيها ويفتح جفنيها ثم .. يتركها ليبتعد خطوات ويتناول من خزانة صغيرة عدسة

اسطوانية وكرة أخرى يعود إليها .. ويتفحص .. ويتفحص شيئاً ما .. في لؤلؤ عينها ولما وجد ما يسره .

قال مخاطباً الجميع ذلكم الذين ذهلوا للوهلة الأولى من منظر الطفلة وهى تشد في شعرها .

– يا سادة : البضاعة جاهزة وكاملة المواصفات .

وما كان من جوزيف ورفاقه إلا أن ابتسموا .. ابتسامات عريضة .. عريضة ، ثم اعيدت الصغيرة ذات العينين الخضراوين إلى سريرها الذي ستغادره بعد أيام قليلة إلى هوليود العظيمة !! بعد أن أظهر كارو كرماً رائعاً وأمر باعطائها مسكناً لا ليخفف بعضاً من آلامها بل حفاظاً على أن تبقى البضاعة جاهزة إلى حين الطلب .. وتنجح العملية ذات الرقم الستين .

ومرت اللحظة خائفة .. فنامت الصغيرة وما نامت بيروت ولن تنام وها هو كارو وعصابته يغادرون الدير متوجهين قبل مجيء الفجر إلى فندق « السمرلاند » الفخم حيث اقامة السيد جوزيف الدائمة لقضاء متعة وعربدة لا نعرفها أبداً .

في تلك الأثناء مرت السيارة التي تقلهم بمنطقة رياض الصلح الواقعة في غرب العاصمة حيث كانت تشهد مع هذا الفجر طقوساً للموت لم نألفها من قبل انفجاراً مرعباً هب في سيارة صغيرة مفخمة وملغومة (بـ التي إن تي) على مقربة من المسجد الكبير في الحي الغربي .. لينسف نصف المسجد وثلاثة أرباع البيوت المجاورة له ، لقد أرعب الانفجار بيروت ومسح مسحاً مئات الأبرياء الذين لم تبق أشياؤهم تلك التي تناثرت وتفتت هنا وهناك بين ركام الجدران التي تحطمت بشكل مذهل .. أدى ذلك لعدم قدرة رجال الأطفاء والاسعاف على أي إنقاذ .

هذه اللقطة الإنسانية الرائعة مع هذا الفجر الإنساني الخالص أسعدت السيد كارو ورفاقه وزادت من ثقتهم بأن الحرب ستبتلع فعلاً كل شيء ليبقى ما يريدونه هم من دمار لإنسان لبنان مقابل مصالحهم وطمعهم وجشعهم .

وما أن غادرت السيارة التي تقلهم منطقة رياض الصلح المزدحمة بالموت والفزع معا حتى قال مارون الذي كان يقود السيارة فرحاً :

صدق المثل القائل « مصائب قوم عند قوم فوائد » ثم قهقهه بطريقة مقرفة لم تزعج كارو وصحبه هذه المرة فما رأيك بمثل هؤلاء الذئاب الذين ينتمون لفصيلة البشر .. ما أبشع هذا !!

الفصل الخامس

رقعة الأفق الواقفة في الكون كمظلة عظيمة أبدعتها يراعة قدرة بارئ عظيم ، كأنها وسام يزهى ، به صدر الليل ، وبحر يتناثر فيه النجم ويسبح ، وكأن على ظهرها قد امتطى وبكبرياء ذلك القمر الذى بدا كقنديل براق يبعث بالضياء ويساهر الوجود دونما قلق ليطل على بيروت الحزينة تلك المتكئة على أطراف الشطآن وفي وجهها بات البحر هياجا غشوماً في حالة توتر وهذيان ، وفي حضنها ذلك الذي غدا قاعاً مظلماً يعيش فيه البؤساء والأشقياء يرهبهم الموت ويداهمهم تارة بانفجار وتارة بحريق ودخان فيبدل الضياء بظلام .. ويعمُ في الأجواء الدخان كضباب قاتم الألوان صنعته ببراعة يد الإنسان كستار يفصل بين الضياء والشطآن ليضيع الأمان ، وكذلك يختفي الاطمئنان وينشط زمان الغدر والأوثان فتهب من كل ناحية على الأصقاع جماعات الأحزاب والقرصان تفرض الموت فرضاً فتنتهك البيوت بأهلها ، وتصرع الحارات بما فيها غصباً وتغلق الشوارع بالمتاريس والحواجز والحطام قهراً لكي لا يبقى شيء إلا وقد دخل أسيراً في بوتقة الرعب والخوف والهذيان ..

ذلك الخوف ..

وذلك الرعب ..

وذاك الهذيان ، أشياءٌ تربعت كأخطبوط سيطر تماماً على حالة الجميع بما فيهم حورائية العينين أوديت الوحيدة التي كانت تود أن تحتفل الليلة بعيد ميلادها الثلاثين .

ها هي ذي مرعوبة خائفة داخل جدران بيتها الصغير أسيرةُ تلك الأجواء وكأنها في حالة اغتراب شديد . يدها ترتجف خفيفاً وكذلك شفتها السفلى ، ونبضات قلبها تتراكض .. وتتراكض .. وظلّ بالها مشوشاً كبال الذي سيسقط لا محالة في فوهة بركان يشتعل أو كذلك الذي ينتظر الهاوية على مقصلة الموت .. ولا مفر من هذا القصاص .

ماذا تفعل هل تبقى في بيتها ففي خاطرها تدور عدة احتمالات .. احتمال أن يداهمها رجالات الأحزاب السياسية أولئكم الذين يغتصبون البيوت اغتصابا .. واحتمال آخر يقول : أنها لو خرجت

لتستنجد بالجيران لن تجد مسعفاً أو مجيباً .

أما الاحتمال الثالث فهو الأقوى ربما يسقط المبنى كاملاً وتضيع هي وبيتها بين الركام .. نعم .. نعم ربما يحدث ذلك كما حدث فعلاً قبيل ساعات وسقط المبنى المجاور من عدة ضربات قاضية تحالف عليها المدفع والصاروخ والآربي جي .

ماذا تفعل والحرب ثرثارة لا تسكت .. ؟

أتنظر عبر النوافذ لتتأكد من سلامة احدى الطرقات .. لا يمكنها ذلك .. خوفا من رصاصات قناص أو رصاصات طائشات .

فهل تغادر البيت وتفر هاربة إلى الشوارع والأحراش ، لا يمكنها ذلك أيضاً فالشوارع مغلقة والأحراش بعيدة وما من مسعف أو مجيب .

« لقد وجدت الحل .. لقد ... » هكذا قالت المرعوبة وهي تغمغم خائفة حائرة ثم أردفت تقول في سريرتها :

« نعم .. نعم التمرد من أجل البقاء .. سأبقى في البيت ولن أبالي بما يجرى في العالم الخارجي .. لن أبالي بما تفعله الأحزاب بل سأحتفل بعيد ميلادي وليفعل الله ما يريد » ..

وتمردت .. وعلى الفور هرعت لتبدل ثيابها وتعد مائدة الميلاد .. ها هي ذي قد فعلت فلبست ثوباً زاهياً في لون أزهار البنفسج فبدت رائعة وهي تنشر على ظهرها وكتفها شعرها الجميل .

وما أن مرت لحظات حتى احضرت الشمع وكذلك قطعة من الحلوىٰ وبعضاً من عدة مشروبات مختلفة ، عصير الليمون .. والأناناس ثم الماء وعنقود عنب ثم المسجل الصغير وموسيقى الرحيل الصاخبة ليجيء أخيراً ضوء الشموع على مائدة الميلاد باهتاً خافتاً خائفاً حزيناً يتحدى ارهاصات الموت وكل ما يدور في خلد العالم الخارجي .. ليحتل الشجن مكانه ويجيء الشوق بعد احتراق على ذكريات استرسلت فيها ذاكرتها بل انتزعتها من كهوف ذلك الزمن البعيد ليمر الوقت خاطفاً كل شيء جارفاً في طريقه الخوف والرعب معاً .

وما أبدع تلك النفس البشرية عندما تتمرد على الموت لأجل البقاء فقد يكون في التمرد ذلك الخلاص المؤقت .

وتوارت ساعات الليل .. ليطل الفجر ناقماً علىٰ الرصاص .. فيسكت الرصاص من رهبة الفجر .. والحرب ظلت وأدويت ما زالت شاردة الذهن ذاهلة في معالم ذلك الأمس الجميل .

.. وتمر اللحظات صامتة فتداهمها عاطفة ما .. تذكرها بأمها فتتذكرها ثم تتذكر جيداً أنها لا تنجب الأطفال ، وشيئاً فشيئاً تتذكر الوسيم صعب فتبعث ذكراه الابتسام فتبتسم في وضع من يرجو شيئاً ما .

وقبيل الصباح .. تعلن الشموع مصرعها فتذوب وتنتهي عندها تستسلم أوديت للنوم فتذهب إلى سريرها وتنام والحرب ثرثارة ما نامت . وكذلك الحياة تبقى

وبيروت على مقصلة الموت تنتظر .

ولما فرش الصبح أشلاءه على المعمورة اشرقت الشمس لا لتطل في هذا اليوم على الوجود وتبعث بالدفء بل جاءت لترى مراسم الموت في وداع طفلة مسكينة سترافقها حتى المغيب .

وعين الشمس التي تحدق غاضبة جائرة وتتابع بترقب ما يجري في « مطار بيروت الدولي » ظلت دافئة فاترة لا لأجل جوزيف بل من أجل تلك الطفلة التي يقودها .. لتنفيذ عمليته ذات الرقم الستين .

ها هي المسكينة وبعد أن غادرت « دير الصليب » وللأبد .. تبدو وادعة تحمل بين يديها دمية صغيرة وترتدي أحلى الثياب .. ثياباً بيضاء نظيفة لم تلبسها من قبل وعيناها الخضراوتين تنظران بعفوية إلى كل ما حولها .. من موجودات المطار ثم ينتابها ضحك لا سبب له فتضحك .. وتضحك ، ثم تدخل برفقة جوزيف إلى غرفة الانتظار في قاعة المطار بعد أن أنهى جوزيف اجراءات الخروج قاصداً هوليود مدينة الإنسان والإنسانية !!

ففيها في ذلك العالم حيث يعيش البشر ستتم عملية نقل عين الطفلة ومنحها لأخرى تحمل الجنسية الأميريكية مقابل مبلغ ضخم جداً لا تكسبه أكبر عماية تهريب .. سيوزع وبالتساوي بين جوزيف وجورج ومارون بمن فيهم كارو الذي امتهن أنبل مهنة يحتفي بها إنسان .. وبعد ذلك سيكون مصير الطفلة مرعباً بشكله الاتوماتيكي حيث ستدخل بعد وفاتها إلى غرفة صغيرة يتوسطها وعاء ضخم يستوعبها تماماً وذلك الوعاء سيكون مملوءاً بمركب الأسيد في أعلى درجاته حيث لو أنها غاصت فيه لن تمر عدة دقائق على بقاء جثتها فستذوب الجثة لحماً وعظاماً .. بكل تأكيد وبذلك تنتهي العملية ذات الرقم الستين .. وكرة أخرى يعود جوزيف لتنفيذ العملية التي تليها ..

ها هي ذات العينين الخضراوتين تبدو أنيقة رائعة قد صعدت أخيراً برفقة جوزيف على سلم الطائرة وعين الشمس قد غادرتها قليلاً .

ها هي الطفلة تدخل الطائرة برفقة ذابحها وما زالت ولعبتها في يدها تمسك فيها بشكل غير معقول .. وبدا على جوزيف اهتمام بالغ بالطفلة .. ها هو يعاملها بكل لطف وحنية على مرأى من المسافرين .. إلا أن الطفلة لم تبد لهذا اللطف أو تلك الحنية أي اهتمام لأن المسكن الذي جرعته من يد كارو الخبيث كان يبعث في نفسها الكسل ويشدها إلى النوم ..

انها تود النوم .. وقد أصابتها بعد ما جلست على الكرسي المخصص لها في الطائرة .. حالة استرخاء وتعب .. وعلى يمينها نافذة طلت عبرها عين الشمس لا لتدخل الطائرة بل لتزيد من قبلاتها على وجنتي الطفلة .

ولما أغلق باب الطائرة ، وربط المسافرون أحزمتهم ، وتحرك محرك الطائرة أعلن مكبر الصوت عن الاقلاع .. فأقلعت الطائرة وعندما ارتفعت قليلاً بدت بيروت التي طلت تزاحم الشمس عبر النافذة الواقفة على يمين المسكينة .. حزينة شاكية ببيوتها وحاراتها وناسها .

وذات العينين الخضراوتين لم تعر أي اهتمام ولا حتى فكرت بأن تلقي على بيروت نظرة الوداع كما يفعل كل أبنائها المغادرين المخلصين .

والمسكينة لا تتذكر في بيروت شيئاً وما شعرت بأنها تفقد عظيمة وان عظيمة ستفقدها وما بيديها أن تفعل لها شيئاً .

والطفلة .. ما تذكرت شيئاً من تلك الأيام ..

يوماً كانت فيه طفلة . مرمية على حافة طريق .. ويوماً بكت فيه وصرخت .. ويوماً قلص الجوع معدتها وجف حلقها من عطشها ..

تلك الأيام ظلت لبيروت .. لذاكرة بيروت ..

نعم ستذكر بيروت تماماً أن في حضنها سُلبت طفلة عذراء عذريتها وكل ما تملك حتى غادرتها وللأبد وهي لا تمتلك شيئاً سوى دمية صغيرة وقعت بين يديها تتمسك فيها بشدة .. وعيناها الخضراوتان .. اللتان ستغادرانها أيضاً في هوليود مدينة الوحش الإنسان ..

ها هي الطائرة تغادر سماء بيروت وتبحر في عمق الغيم .. وترتفع عن سطح الأرض آلاف الأقدام ..

والطفلة قد استسلمت للنوم فنامت نوماً عميقاً ، وذابحها يقلب في صفحات مجلة تهتم بالعلوم الإنسانية ..

وعين الشمس كالواهنة باقية في اطلالتها ترافق الطفلة ووحدها من يدري بما تحلم فيه الآن .

هل تحلم برغيف خبز .. أم ببعض اللبن وربما بذلك الذي اغتصبها ..

هل تحلم بأمها التي ما عرفتها أبداً أو بذلك القدر الذي عاشته غصباً في كنف امرأة حقيرة استغلتها أبشع استغلال .

بماذا تحلم ذات العينين الخضراوتان .. بقطعة حلوى أم بأرجوحة وادعة تفرح بها وتسعد .

لا أحد يدري .. غير الشمس .. تلك التي فجعت عندما أغلق جوزيف النافذة التي تطل عبرها .. وبهذا يكون قد طردها .. غصباً .. وظلّ يتنفس ويشعر بنشوة عظيمة .. وكم تمنى حين عودته أن يفوز حزبه بالصحة وببعض أجزاء من الداخلية .

الفصـــل الســـادس

شجيرات الياسمين والقرنفل والبنفسج تتزاحم بأزهارها وبعيدانها الرفيعة ووريقاتها الصغيرة للتدلى رأساً على عقب من على سور فخم صنع من حجارة ذات لون ناري خالص أبدعته يد ماهرة ليلتف حول قصر عظيم قد وقف منذ سنوات قليلة يزاحم غيره في منطقة القصور الواقعة بين سفح جبلين يتخللها نهر يجيء هادراً من أعالي قمم الجبال الشمالية ..

ورحيق الزهور يتلاحم ويمتزج بالنسمات الحديدية تلاحماً يشبه في طبعه تلاحم الهواء بالضوء والأوكسجين .. ليدخل ذلك المزيج المركب إلى عمق القصر عبر نوافذه الضخمة ويعبق فيه ثم لتستنشقه رئة كارو صاحب القصر .

ها هو ذا يتمدد مسترخياً على سريره الفخم المزخرفة أطرافه بالعاج والمطعم بالفسيفساء ، ويتنعم على فراش ناري اللون خامته من ريش النعام والحرير وتحت رأسه وقعت وسادة محشوة بالريش أيضا أما عيناه الثاقبتين فما زالتا تنظران عبر نافذة كبيرة إلى قرص الشمس ذلك الذي بدا مع هذا الغروب وكأنه برتقالة نارية تود أن يبتلعها رأس الجبل .

ولما ابتلعها في هذا المغيب الرائع انتشى كارو لذلك نشوة لا يدرك معناها سواه .. وتناول على أثرها لفافة تبغ من علبة لفافات التبغ وأشعلها بعصبية وبعد أن امتص منها شيئاً لفظ بقاياها فلفظه الفراش وقادته نفسه لتناول كأس من خمر ناري عمره ربع قرن من الزمان .. ولما ارتشف منه قليلاً .. فقليلاً .. فكثيراً داهمته سكرة وأجبرته على العودة إلى السرير فعاد ليشعل لفافة أخرى من التبغ وبعدها يفكر .: ويتفكر والسكرة في رأسه تخطو وتتمختر فيملكه الشيطان ويسرح به .. فيسرح خياله في صعب الوسيم .. وبعذريته ويرضيه جداً ذلك الخيال .. ويتخيل الطفل على مقربة منه عارياً تماماً .. فتتحرك في أعماقه غريزة شيطانية تدفع بنفسه إلى حالة تلذذ وغليان لا يخمدها سوى النعاس الذي غلبه فغلب غرائزه الشيطانية ، لينام الشيطان ويحلم حلماً لا يمت أصلاً للإنسانية .

في النوم ..

تراءى له أنه يخرج من غرفة العمليات منتصراً انتصاراً لا مثيل له في الوجود سيمكنه هذا

الانتصار من أن يحكم الأصقاع بأسرها .

ها هو قد خرج من غرفة العمليات بعد اجراء عملية جراحية قد نجحت نجاحاً مذهلاً .. فلقد تمكن كارو من نقل دماغ بشري لقرد جيء به من أقاصي القارة الرابعة ، وبهذا يكون قد أصبح القرد عاقلاً ما دام العقل هو أصلاً وظيفة للدماغ كما السمع وظيفة للأذن .

ثم عزم الدكتور كارو على أن تتتالى العمليات فتتالت واستطاع أن يحقق ما أراد بنجاح مدهش فلقد شكل له أخيراً فريقاً من القردة العقلاء ليكونوا بمثابة أعوان له ينشرهم في الأصقاع ..

ها هم أولاء جميعاً القردة العقلاء قد امتثلوا أمام الدكتور كارو طائعين ساكتين على مائدة البحث في أول قمة لهم لينطق كارو ويخاطبهم قائلاً :

أيها القردة العقلاء يا أعواني الأوفياء في الأصقاع .

أنتم ميلاد جديد لم تشهده أو تعرفه البشرية من قبل ، هذه البشرية الأنانية المنحطة لن تدع قوماً مثلكم من أصل حيواني أن يحكموها ويتحكمون ويسلبون خيراتها لهذا أقول .. وأثني عليكم القول :

أيها القردة العقلاء يا أعواني الأوفياء ، أنتم ميلاد جديد سيقهر البشرية وسيحكمها بإرادتي النارية .. فلكم الأصقاع بما فيها ..

.. إفعلوا ..

.. إفعلوا فيها ما شئتم ، ولتكن مسرحاً لسياساتكم وانتصاراتكم ، ونجاحاتكم .. لكم الطفولة .. انتهكوا عذريتها وادحروها وكذلك النساء فتمتعوا معهن وان أردتم فجندوها . واقتلوا الرجل الإنسان .. عفواً إنني اقصد العاقل الإنسان ، ولا تقربوا الكلاب ومن ينتمي إليهم من الذئاب البشرية فجندوهم لخدمتكم.. ليكونوا أعواناً لكم وظلاً لكم في امبراطورياتكم .

فلكم يا أعواني كل الأصقاع وبما فيها من خيرات ..

المال .. لكم وكذلك الثروات ولكنني أوصيكم بأن تتفقوا في أساليبكم لدحر من هم في الأصقاع ولا تختلفوا أبداً على مظاهر حكمكم لتبقى لكم زمام الأمور .

وآمركم .. أقولها بإصرار والويل لمن لا ينفذ .. وأقسم إنني سأعيده قرداً حيواناً .. آمركم أيها القردة العقلاء بتغيير وجه البقاع فلا أريد في الأصقاع خضرة ولا اخضراراً .. لا أريد أن تبقى الأشياء الخضراء حيّة ففي الخضرة يكمن خوفي واحتراقي فهيا بدلوا وجه البقاع بلون ناري من ألوان أمنا النار .. أريد ألواناً تشبه في شكلها الغليان ، ووحده رغيف الخبز رقيبي عليكم فانتبهوا حتى لا يلتهمه بكثرة عدوكم العاقل الإنسان . فجوعوه .. وجوعوه .. سيكون في ذلك سلاحكم لكي تبقى الأصقاع لكم بما فيها ..

أيها القردة العقلاء :

أنتم ميلاد جديد فاقهروا بذكائكم من يقطن في البقاع .. فلكم الأصقاع .. لكم الأصقاع ..

وبعد ذلك سكت كارو وغادر مائدة القمة متوجها إلى كرسيه العظيم في عرشه ذلك العرش الناري الشيطاني .

ثم غادرت القردة العاقلة مائدة القمة قاصدة الأصقاع .. فانتشرت فيها كما ينتشر الضوء ، ثم تقاسمتها فقامت .. امبرا .. وامبرا .. وامبراطوريات ..

ورفعت الأعلام النارية وجاء بعد حين زمن التسميات .. فسمي القرد الأكبر بالامبراطور المعظم صاحب السمو ونائب ولي العرش .. وحوله الكلاب ومن ينتمي إليها من الذئاب البشرية سموا بالحاشية صاحبة النفوذ والقرار ..

وقامت السياسات .. لتقتل وتسلب كل شيء .. لتنهك وتدمر . وسياسة التجويع وحدها ظلت هي الرقيب .. هي الرقيب ..

وفي غضون بضعة من السنين تبدل في الأصقاع وجهها فماتت الحياة وكذلك الخضرة وأقيمت الحدود فاصلا بين الامبراطوريات .. ثم غدا ما قاله وما أمر به كارو صاحب العرش الناري نارياً .. وأصبحت الألوان الحياتية في البقاع مصدراً يبعث بألوان تشبه في حقيقتها الغليان وزادت الأطماع في نفوس القردة العقلاء فأخذوا يختلفون مع بعضهم البعض ويتقاتلون ويتصارعون على حقل الموز الواقف على الحياد بين امبراطورية القرد الأصغر وامبراطورية القرد الأكبر ليجيء بعد حين الصراع الدامي بين الأكبر والأصغر .. حيث تهجم القرد الأكبر بكل ما يملك من قوة وعتاد على امبراطورية القرد الأصغر .. واحتل حقل الموز ..

وعلى أثر هذا التعدي الكبير .. واحتلال حقل الموز ثار غضب كارو وسخطه فأخذ يدعو القردة العقلاء للاجتماع فوراً على مائدة البحث أقصد مائدة القمة ولما انعقدت القمة في القصر الناري الأعظم واجتمعت القردة ممثلة طائعة أمام السيد الأكبر كارو صاحب العرش لحل مشكلة الصراع الدامي على حقل الموز داهمهم فجأة بركان فوهته تشبه في لونها وجه رغيف الخبز وتقدم البركان بسيله ليبتلع هذه القمة ويبتلع ذلك العرش الناري فالتهم بادىء ذي بدء القردة العقلاء الواحد تلو الآخر .. ثم تقدم بسيله ليجرف مائدة القمة .. فجرفها وها هو يزحف .. ويزحف ليلتهم صاحب الكرسي المعظم .. رويداً .. رويداً .. ها هو يتقدم ذلك السيل العارم ليجرف ويبتلع كارو .. بل ليذوب لحمه وعظامه معاً كما تذوب جثة طفلة لو وقعت غصباً في وعاء مملوء بالأسيد في أعلى درجاته ..

ها هو السيل الملتهب يتقدم قادماً من فوهة بركان ثائر .. وكارو .. يفر منه هارباً خائفاً .. خائفاً لاهثا .. ولا مفر من هذا المصير ..

ما زال يتتبعه ، ليداهمه ويدحره .. وقبل أن يصل إليه بلحظة ويتمكن منه

توقف الحلم فجأة واستفاق الخبيث من نومه

فانتفض من على فراشه لاهثاً .. مرعوباً يبحث عن الماء ثم ليتمتم قائلاً بعد تنهيدة طويلة :

ما أبشع هذا .. ما أبشع هذا .. ما أبشع ذلك البركان

ثم خطا باتجاه النافذة عدة خطوات ثقيلة ليرى عبرها في الكون شيئاً نارياً .. لم يفلح بذلك .. لم ير غير ذلك الصبح الذي ما زال طفلاً فيه الحياة والأمل وفي حضنه المروج خضراء زاهية وكذلك الأحراش ولون عيدان الصنوبر ووريقات التين وذلك الماء الهادر القادم من قمم الجبال ، والهواء الذي تمازج مع عبق الأزهار .. كل هذا ظلّ وسيبقى ما دام الله عظيماً لا يغيب .

الفصـــل الســـابع

كمن تاهت فيه الطريق في أغوار صحراء شاسعة لا نهاية لها ولا بداية غارقة في بحر من الرمال فخارت كل قواه بعد أن أضناه التعب وجف حلقه من شدة العطش .. ولا مفر .. فمكث على الرمال اللاذعة وحوله الكثبان مخيفة مرعبة تحت أشعة الشمس الحارقة وأخذ ينتظر .. وينتظر يستهدي ليستجدي ضياءاً من أمل يجيء بالخلاص مسعفاً .. ولا مفر .

أو كحالة سياسي زج به في زنزانة صغيرة تبتلعها أعماق الأرض ، زنزانة أصعب من القبر لو كان القبر صعباً .. حقيرة رطبة عفنة لا تسمح أبداً بدخول الضوء إليها ولا حتى لأي شعاع كان من مصباح أو من قرص الشمس ذاته ، حتى سلخت هذه الحقيرة من عمر ضيفها حياته .. ولكنه ما زال ينتظر ومنذ سنين طويلة أن يرى ذات يوم عين الشمس والحياة مرة أخرى ينتظر أن تهب في العالم ثورة حَقّة فيسقط طغيان الظلم ويكون في ذلك أمل بالخلاص فيسقط من استضافه ربع قرن من الزمان في هذه الزنزانة الحقيرة عندها سيخرج إلى وجه الأرض ويلتقي بعد غياب بالحياة والحرية .

كذلك تماماً كانت حالة شيخ الزبالين وأكثر .. ما زال ينتظر عودة بيروت الشرقية لبيروت الغربية اللتين انفصلتا تماماً كحكم أبدي لا استئناف فيه أبداً وقامت بينهما الحدود والسدود والأسلاك والمتاريس كأمر شرعي .. ليجيء الحصار خانقاً فتاكاً فيضيع الحق وكذلك تضيع أخته الحرية ، ويبقى للموت وحده حرية العبور ما بين الشرق والغرب بلا جواز سفر أو تذكرة هوية ، كان هذا الحكم.. ومن الحاكم ..؟ .. وحدها الطائفية سيدة القرار .. ولا فرار .. وشيخ الزبالين كان كغيره الضحية فما عاد بإمكانه التنقل من بيته في الغربية إلى مقر عمله في الشرقية ، فالحدود واقفة وكذلك الموت وفوهة البندقية ، والأفواه الطفلة مفتوحة تود اللقمة المفقودة تلك التي غدت في هذا الزمان جوهرة زمردية .

وماذا يفعل بعد أن خارت كل قواه وأصبحت تعبة بالية .. ولا مفر ..

« لن انتظر .. سأبحث عن عمل لي في الغربية » كذلك قال في سريرته راجياً شاكياً

وها هو ذا يغادر بيته المتعثر قاصداً الغربية تلك الواقفة بين النور والظلمة وعلى اكتافها وفي حضنها اللهب ترافقه زهرة تلك الجورية البيضاء التي بدت كلوحة تمازجت فيها حمرة الخدود وشعر بلون الذهب وبشرة نضرة بيضاء يزيدها جمالاً عيناها الخضراوتان وتلك البراءة النقية التي لا تختفي فيهما أبداً .

« سنذهب إلى بيروت يا أبي » هكذا قالت مبتسمة فرحة تخاطب أباها . أجابها قائلاً بعد أن اصطنع ابتسامة :

« بإذن الله يا صغيرتي » .

ومع هذا الصبح مشيا قاصدين بيروت[1] .. عفواً أقصد نصف بيروت الغربية فقط ولا أقول بيروت الغربية .. وفي الطريق ومن حين إلى آخر كانت تستوقفهما رجالات الأحزاب الذين كثرت في هذه الآونة حواجزهم وكثرت مشاكلهم .. وكثرت مظالمهم .

فعلى الحاجز العشرين التابع إلى حاكم الجزء الثاني من النصف الأول لبيروت امتثل شيخ الزبالين وابنته أمام رجل الحاجز الذي استوقفهما .. لينطق الأخير

قائلاً : من تكون هذه الطفلة ؟

شيخ الزبالين – أنها ابنتي .

رجل الحاجز – وما أدراني أنا أنها ابنتك .

– قلت إنها ابنتي .

– هل عندك بطاقة شخصية .

– نعم .. نعم .. ها هي .. ها هي تفضل .

– وماذا تعمل ؟

– انني أعمل في دير الصليب .

– ماذا .. ماذا تقول دير الصليب إذن انت كتائبي .

– ماذا تقصد ؟

– أنتم خبيثون جداً .

– الله يسامحك .

– كتائبي وتعرف الله .

---

(1)بيروت : عاصمة لبنان ، وميناء هام على شرق البحر الأبيض المتوسط تقع على سفح سلسلة جبال لبنان ، سكانها 000 , 450 نسمة كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية . وازدهرت أبان حكم السلوقيين والرومان والبيزنطيين ، فتحها العرب في خلافة عمر 635وسقطت في يد الصليبين عام 1110وأصبحت جزءا من مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى 1291سادها الدروز أثناء الحكم العثماني واستولى عليها محمد علي في أثناء حروبه ضد السلطان العثماني 1832م وأرغمته الأساطيل الانجليزية والفرنسية على اخلائها عام 1840 م احتلها الفرنسيون عام 1918 ونالت استقلالها عام 1944 م بعد الحرب العالمية الثانية . زاد عمرانها وازدهارها وأصبحت مركزاً للأشعاع الحضارى والثقافي . من معالمها الجامعة اللبنانية ، والجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف وغيرها .

– انني مسلم ولست كتائبياً ولكني أعمل في منطقتهم .. أقصد كنت أعمل في منطقتهم كمنظف في دير الصليب .. « زبالاً .. زبالاً » أفهمتني .

– زبال وعندك طفلة بهذا الجمال .

– هذه من أرزاق الله تعالى .

– هيا .. هيا اعبر ..

وعبر شيخ الزبالين وابنته .. وما أن قطعا مشياً على الأقدام مسافة قصيرة حتى استوقفهما حاجز آخر .. وهذا بدوره تابع لحاكم الجزء الثالث في النصف الثاني لبيروت ..

ها هو رجل الحاجز يحمل باحدى يديه رشاشاً إيطالي الصنع ليشير باليد الأخرى إلى صاحبنا وابنته ويأمرهما بالانتظار .

وعلى مقربة من البراميل المعبأة بالرمال توقف الشيخ وابنته .. وانتظرا

وانتظرا .. طويلاً .. ليقول الشيخ مخاطباً رجل الحاجز الذي كان قد استوقف صبية في العشرين من عمرها .. ويماطل معها .. ويماطل ويضحك ولا يبالي بأحد ..

« ستدعنا ننتظرك حتى آخر النهار » ..

رجل الحاجز قال يخاطبه وبعصبية لا حدود لها :

– اخرس أيها الحقير .. والتزم الصمت .. وانتظر ..

شيخ الزبالين وبصوت خافت أردف يقول مخاطباً رجل الحاجز :

– أليس من العيب أن تخاطبني بهذا الأسلوب وأنا في سن والدك .

كرة أخرى وبعصبية أردف رجل الحاجز يقول :

– قلت لك أخرس يا حقير .

« أنت الحقير .. أنت الحقير » كذلك قالت زهرة بغضب شديد .. أثارت كلماتها غضب رجل الحاجز فأسرع نحوها وصفعها على وجهها .. وما استطاع الشيخ أبداً أن ينبس ببنت شفة لأنه يعلم تماما ما قد يجري لو نطق بحرف واحد .. الا أنه أغلق براحة كفه فاه الطفلة .

ثم أردف يقول :

ألن تدعنا نذهب بحق الله .. فأنا مريض ولا أقوى على الوقوف طويلاً .

ورجل الحاجز لن يبالي أبداً بما يقوله الشيخ وكأن لا أحد يخاطبه !!

والمقهور ما كان عليه الا ان ينتظر غصباً .. وينتظر وكذلك زهرة التي كانت تود أن تقول شيئاً لكنها ما استطاعت أن تتكلم أبداً بعد ما أمرها والدها بالسكوت .

ومرت نصف ساعة من الوقت .

والطفلة تنظر بعينيها وتراقب بدهش ما يفعله هؤلاء الكلاب على الحواجز .. تفتيش ، تنقيب ، تشليح ، تذليل ، تحقير ، وغير ذلك . وبعين جائرة كعين الذئب نظر رجل الحاجز أخيراً باتجاه البراميل حيث كان ما يزال شيخنا وابنته ينتظران الاذن بالعبور .. وها هو ذا قد أشار لهما أخيراً بإبهام يده كعلامة بالسماح لهما بالعبور . ثم قال :

— هيا أغرب عن وجهي يا هذا .. هيا ..

وذهب الرجل وابنته وأخذا يتابعان الطريق .. والطريق كانت مقرفة جداً فالحواجز كثيرة .. وكلها تتطلب الانتظار .. والاذن بالعبور .. وقبيل الظهر .. ها هو شيخنا قد وصل برفقة ابنته إلى « مقهى البحر » حيث يجتمع رفاقه المعذبون لينطق حكيم بفرح قائلاً :

— جاء الشيخ بعد الغياب .. أهلاً .. أهلاً أبا زهرة .

وأبو زهرة حزين .. حزين وكذلك صغيرته .. إلا أن الفرحة قد داهمته للقاء رفاقه الذي قضى معهم معظم حياته منذ مشرقها ذلك الذي غدا بعيداً .. بعيداً ..

والرفاق الطيبون .. ها هم يحتفلون به احتفالاً بالغاً . لينطق فرج القيرواني مستفسراً مبتسماً ويخاطب أبا زهرة قائلاً : « وما أخبار صاحبنا الصغير .. صعب الوسيم » ؟

شيخ الزبالين أجابه :

— — انه بخير تركته يلازم أمه في البيت لقد كبر وازداد جمالاً .. ولكن لا أخفي عليك يا فرج .. أشعر دوماً بأنني قلق عليه .

فرج : ولكن علام القلق ؟

شيخ الزبالين هناك ظاهرة غريبة لن أقدر على تفسيرها أبداً ..

فرج وباهتمام بالغ قال : أي ظاهرة تلك ؟

شيخ الزبالين : على مقربة من بيتنا تقف منذ سنين شجرة التين العجوز ، وكأن صعب قد ارتبط معها بمواعيد .. فتراه دوماً يتردد إليها ليلتقي بها مع الفجر فكثيراً .. ما لفت انتباهي وهو يتسلل من فراشه ليلاً يحاول أن يخرج من البيت ولما أصابني الخوف عليه .. وبت أسأل نفسي كثيراً « لماذا يحاول الخروج من البيت في مثل هذا الوقت » ؟

وذات يوم تركته يتسلل ليخرج بحرية من البيت ولما خرج .. تتبعته وراقبته فما كان منه إلا أن ذهب إلى حيث تقف شجرة التين وجلس على مقربة منها يحاكيها .. ولا تحاكيه .. حتى اعتدنا على ذلك .. ولكن الظروف اليوم وكما تراها سيئة جداً .. الحرب .. والقتل .. والتدمير أشياءٌ استوطنت في كل مكان .. وبات خروجه أمراً يثير الخوف والقلق .

وإلى يومنا هذا لا أجد أي تفسير لمثل هذه الظاهرة ، وتلك العلاقة التي لا توصف أبداً بين صعب وشجرة التين .. وبالرغم أنني أدرك شيئاً .. ثم سكت . فرج مستفسراً .

ماذا تدرك .. تكلم ..

شيخ الزبالين .. وبعد أن ارتعش قليلا قال : لا .. لا شيء أبداً .

فرج أردف قائلاً :

على كل الأحوال اطمئن .. سنتدبر معاً حلاً مناسباً يريحك تماماً ووحده الله ولي التدبير .

وجاءت موجة حزن شديد لتغمر مقهى البحر بما فيه .. بعد ما علم الجميع بأن أبا زهرة قد داهمه مرض خطير .. وفقد عمله نتيجة التقسيم ، وفهموا من كلامه أنه عاطل عن العمل وليس بإمكانه أن يقوم بأي عمل فجسمه غدا هزيلاً ضعيفاً لا يقوى على شيء ..

وأخيراً نطق ثخين الصوت أبو مسعود ذلك الثرثار الذي بدلته الحرب فغابت الضحكة من أعماقه .. ليقول مخاطباً أبا زهرة .

لا تهتم .. يا شيخنا فكلنا إخوة ، وستعاون على أن نجمع لك مبلغاً تدبر منه أحوالك فلعل الطريق إلى الدير تعود إلى مجراها الطبيعي وتتمكن من الذهاب إلى عملك .

شيخ الزبالين مبتسماً :

لقد سلبتك الحرب الضحك والثرثرة وما استطاعت أن تبدل فيك الرجل الشهم الكريم .. فشكراً لك يا صاحبي على كل أفضالك .

أبو مسعود قائلاً :

– استغفر الله ، لا فضل لأحد على الآخر ما دام صاحب الفضل موجود .

حكيم وبخشوع قال :

ونعم بالله .. ونعم بالله .

ذلك الحديث جعل الجميع يسهون عن الاحتفال بالأميرة زهرة التي ما زالت ساكتة تجلس على كرسي صغير تتابع .. وتسمع . وتترقب .. لكنها كانت تميز ..

فلقد ميزت في مداركها بين هؤلاء الرجال وحبهم الكبير لوالدها . وبين هؤلاء الكلاب الذين يقفون على الحواجز .. ولن تنسى ذلك القذر الذي صفعها على وجهها في هذا النهار .

ها هي تمد يدها وتتلمس خدها .. وتغضب .. وتغضب وما أعظمها الطفولة يوم تغضب ان ذلك مثل الصارخ من حضن برعمه .

ثم يلتفت إليها الجميع فيهتموا بها اهتماماً بالغاً ، ويفر هارباً أبو مسعود ليغيب قليلاً ثم يعود وبيديه قطعة من الحلوى جلبها للأميرة زهرة .

وأبت الغاضبة أن تأكل الحلوى ، إلا أن أبا زهرة قال لها راجياً : انها من يد كريمة وأنت ابنة كريمة هيا يا صغيرتي كلي الحلوى ..

أبو حازم : ما بالها حزينة يا أبا زهرة .

أبا زهرة : لقد ضربها أحد كلاب الحاجز العشرين .

انتفض القيرواني غاضباً ليقول :

الويل لذئاب لا تراهم .. الويل لهم .

أبو زهرة وبحزن قال :

علينا أن نتحمل لأجل هؤلاء الصغار .

« نعم .. نعم .. علينا أن نتحمل لأجل هؤلاء الصغار » كذلك قال حكيم وبحزن عميق ثم أردف قائلاً :

– لقد تطورت الحرب وكثر الموت والخراب ولا ندري فهل من نهاية .

« بالطبع ستكون هناك نهاية لهم » كذلك قال القيرواني .

ثم أردف يقول :

« سيشع بعد حين ذلك الفجر ويجيء أخضراً يطرد الموت ويبعث الحياة » .

أبو حازم : ولكن يبدو لي أنه إلى أن يشع ذلك الفجر لن يبقى في بيروت حيٌّ .
رد عليه القيرواني قائلاً بعد أن تنهد تنهيدة طويلة :
« يمهل .. ولا يهمل .. يمهل ولا يهمل » .
وكرة أخرى قال : « بُعدا للقوم الظالمين » .
الجميع وبصوت واحد :
ونعم بالله .. ونعم بالله ..
وزهرة ها هي قد التهمت الحلوى كما الزمن التهم الوقت ليسرع هارباً النهار . ويمضي .
وبعد أن قدم الجميع مساعدة مالية لأبي زهرة .. ثم ذهب فذهبوا .. وفي أثناء عودته إلى البيت مر .. بالحواجز ذاتها .. وبالألم ذاته .. وبالانتظار ذاته حتى وصل متأخرا إلى بيته .. ليدلف إليه بعد تعب ويجلس وحوله أفراد عائلته حول مائدة العشاء .
وعلى العشاء قال يخاطب صعب ضاحكاً :
– قل لي يا صعب ما قصة صحبتك بشجرة التين العجوز .
لن يجد الوسيم جواباً سوى أنه توقف عن الطعام ليداهمه الحرج والشرود معاً ..
وقبل أن يلح أبو زهرة ويكرر سؤاله ثانية .
قالت أم زهرة مسعفة الموقف : وما بالها التينة العجوز فالله بارك فيها في كتابه العزيز .
أبو زهرة أردف يقول :
أنا لا أقصد في سؤالي هذا أي شيء قد يزعج صعب ولكني أحببت أن أسمع منه عن صداقته الحميمة بتلك الشجرة ولا أكثر .
ابتسم صعب ثم تتالت الابتسامات من زهرة وأمها وكذلك أبي زهرة لينطق أخيراً الوسيم قائلاً :
ألن نذهب أنا وأختي إلى المدرسة .
تأثرت أم زهرة لهذا كثيراً وكذلك شيخ الزبالين الذي نطق مسرعاً ليقول :
بالطبع ..
بالطبع ستذهب أنت وأختك إلى المدرسة .. أليست المعرفة حق طبيعي لكل إنسان ..
صعب .. ولكن متى يا بابا .
أبو زهرة وبصوت خافت قال :
– حتى تتوقف الحرب قليلا وأتمكن من الذهاب إلى الدير .
زهرة مستفسرة :
– ومتى ستتوقف الحرب يا أبتي ؟
أبو زهرة راجياً قال : عندما الله يريد يا صغيرتي .
زهرة : يا رب .. يا رب تتوقف الحرب لكي نذهب أنا وصعب إلى المدرسة ..
وما توقف حديثهم على مائدة العشاء المتواضعة الفقيرة التي احتفت بالخبز والشقاء معاً .. بالغصة والهناء معاً بالتعب والفرح معاً .. ليظل الليل لهم .. وما ظلّ .
وبعد العشية قرع باب البيت بعدة نقرات خفيفة أذهلت أهل البيت جميعاً الذين ما زالوا يشكلون

نصف حلقة دائرية حول مائدة العشاء ..
زهرة : مستغربة تخاطب أباها قائلة : الباب يقرع يا أبي :
« اللهم اجعله خيراً » هذا ما قالته أم زهرة ذاهلة مندهشة ..
وبصوت عالٍ أخذ أبو زهرة يقول وهو يهرع ليفتح الباب ..
« من الطارق .. من الطارق » ؟
ولما فتحه طلّ رجل غريب لم يره من قبل يبـدو أنه في حالة خوف وارتباك ليستنجد بأهل البيت متمتماً خائفاً ليقول :
انهم يريدون قتلي .. نعم يودون قتلي .. أتوسل إليك خبئني عندك الليلة .
أبو زهرة : خفف من روعك يا رجل وتفضل إلى الداخل .. هيا تفضل فالبيت بيتك ..
ولما دلف داخلاً إلى البيت . وجد من فيه حول مائدة العشاء ليقول بخجل : — اعتذر فقد أكون أزعجتكم .. وأحرجتكم ولكني في موقف حرج جداً .
سيدة البيت وبعد أن ابتسمت قالت :
لا داعي لهذا الكلام فأهلاً بك في بيتك .
أبو زهرة : هيا تفضل .. هيا اجلس معنا على العشاء ..
الضيف : لست قادراً الآن على تناول الطعام ولكنني أود بعض الماء من فضلكم .. وعلى الفور تناول صعب ابريق الماء وناوله إياه قائلاً :
هاك الماء يا عم .. هاك الماء يا عم ..
الرجل وبعد أن تناول من صعب ابريق الماء وارتشف منه حتى ارتوى قال :
الحمد لله .. الحمد لله ..
وبعد أصرت القطة الصغيرة زهرة على أن يتناول الضيف الطعام ..
شاركهم على المائدة طعامهم وأخذ يتبادل معهم أطراف الحديث .
أبو زهرة خاطبه قائلاً : اطمئن الأن .؟
الضيف : أحسن حالاً .
— وهل من خوف .
— لا أتصور أنهم سيتمكنون مني لأنني استطعت أن أفلت منهم بأعجوبة وتوهتهم عني بقدرة قادر .. والمهم أن أغادر بيروت على وجه السرعة .
— من هم أولئك الذين يطاردونك ويودون قتلك ولماذا ؟
— يبدو أنك غريب عن لبنان .
— لا فأنا لبناني .
— ما دمت لبنانياً ألا تدري ماذا يجري في هذه الأصقاع ..
— أعرف أن هذه الأصقاع غدت بؤرة .. للمنظمات والأحزاب المختلفة الاتجاهات .
— الذين يودون قتلي هم الذين يودون تجويعكم وقتلكم .
— ومن تقصد .. أي حزب .

– كل الأحزاب .. فمن تحزب خان .

– كلام غريب لم أسمعه من قبل .

– ألا توافقني في ذلك ..

– قد أوافقك مبدئيا لأنني لا أفهم كثيراً في السياسة ومهنتي تختص بالتنظيف فقط .. ولكن يمكنني أن أقول إن ما نراه من الأحزاب يعني أن الأحزاب جميعها خائنة وتقوم لمصالح واعتبارات .

– ما هي مهنتك ؟

– مهنتي متواضعة ولكنها ليست حقيرة .. أعمل منظفاً .. أقصد كنت أعمل منظفاً في « دير الصليب » .. والآن عاطل عن العمل لأن دير الصليب في الشرقية وبيتي في الغربية وكما تعلم .. فالتقسيم وقف حائلاً بيني وبين العمل .. ولكن أحمد الله على كل شيء .

– الحمد لله .. الحمد لله .

أبو زهرة مخاطباً زوجته .

هل لنا من يديك بعض الشاي يا أم زهرة .

أم زهرة مبتسمة .. ولم لا ..

وها هي قد غادرت إلى مطبخ البيت المتواضع لتعد ابريق الشاي .. ومن جديد عاود الضيف وأبو زهرة حديثهم .. لينطق الأخير قائلاً :

– يبدو لي وللوهلة الأولى أنك من المغرب العربي .. أليس كذلك ؟

– صدقت فأنا عربي ليبي .

– أنت إذن من بلد القذافي .

– أنا جندي في ثورته .

– وماذا تفعل في لبنان ؟

– امارس حقي في الدفاع عن لبنان العربي .. أنا في مهمة .

– ولكن قل لي كيف حال ليبيا ؟

– مشرقة الوجه تود أن يكون لبنان مشرق الوجه أيضاً وكذلك كل البلاد العربية الواقعة تحت نير الظلم والاستبداد .

– وهل يشرق لبنان مرة أخرى .

– ولم لا .

– لقد انتهى لبنان وللأبد .

– كنا نقول ذلك في ليبيا أيام العهد البائد ، ولكن وجه ليبيا أشرق عندما قامت الثورة .. وحررت كل شيء ..

– في ليبيا قامت الثورة ولكن في لبنان أي ثورة ستقوم لقد سئمنا كل شيء هنا .

– ستقوم الثورة .. ستقوم .

– أنت تجزم .

– نعم ..
– ولكن متى ؟
– في الوقت المناسب .
– يبدو أنك متفائل جداً .
– ولَم لا .. ففي التفاؤل أمل .. وفي الأمل حياة .
– صدقت في الأمل حياة .. ثم تنهد أبو زهرة طويلاً إلى أن دخلت صاحبة البيت بالشاي .
أبو زهرة مخاطباً زوجته : سلمت يداك يا أم زهرة .
أم زهرة .. تفضلا الشاي .. فأخذ كل منهما كأسه .

في هذه الأثناء وبينما كان الشيخ وضيفه يرتشفان الشاي ويتبادلان أطراف الحديث لفت انتباه صعب الجالس ساكتاً هادئاً منذ أن حلّ الضيف إلى البيت تلك الأوراق التي وضعها على مقربة منه وذلك الكتاب الأخضر الذي يشبه لونه لون وريقات صديقته التينة .. وبلا شعور ، وبعد ما أصابه شرود قصير قال في سريرته : متى سأذهب إلى المدرسة .

تقدم باتجاه ما وقع على مقربة من الضيف وجلس هادئاً حائراً يود أن تتلمس يداه الأوراق وذلك الكتاب ولكنه لم يفعل ،.. فلفت نظر الجميع إليه وكذلك الضيف الذي أخذ يخاطبه قائلاً : ما بالي أراك حزيناً أيها الوسيم الصغير ؟

وقال أبو زهرة بحزن : هذه حاله دوماً ، كثير الشرود .. وساكت لا يتكلم لكنه يود الذهاب إلى المدرسة .

الضيف : ولم الشرود فهو ما زال صغيراً عليه .. ولم لا يذهب إلى المدرسة ؟

أبو زهرة : هكذا .. دائماً شارد الذهن ميال للسكوت ، وأما من جهة المدرسة فالأحوال حالياً لا تسمح لنا بإرساله إليها هذا ان وجدت المدرسة .

الضيف : أتقصد الأحوال المادية .

أبو زهرة : « المادية وغير المادية » ثم سكت طويلاً .

وغمرت الضيف موجة من الحزن على ما كان يشكو منه هذا البيت الكريم المضياف وعلى ما كان قد قرأه في عين الطفل من حزن وشكوى ، لقد أدرك ما في خلده من حب فائق للاطلاع والمعرفة وشغف لا حدود له للذهاب إلى المدرسة ، وكم تمنى أن يقدم لأهل هذا البيت أية مساعدة ولكن ما كان بيديه أن يفعل شيئاً لأنه في موقف حرج وسيغادر لبنان غداً .

ولما وصل الليل على عتبة نصفه الثاني هيأت أم زهرة فراشاً نظيفاً للضيف وذهبت إلى المطبخ لتنام فيه برفقة زهرة ثم نام أهل البيت وعين الحرب ما نامت .

ولما تنفس الصبح في اليوم التالي وجاء نديأً ، تزاحمت فيه قطرات الندى المسالمة لتحتل مواقعها في أحضان العشب وعلى راحة الوريقات والعيدان متثاقلة خفيفة تنتظر مصرعها .. وهي تدرك جيداً ذلك المصير .

وما أن طلت الشمس متأخرة في شروق خريفي حتى أخذت تتهادن وتتحالف مع الهواء والريح لتسقط عرش الندى في فجر ولادته فسقط .. وماتت القطرات ذابت وتلاشت محترقة على الوريقات

دون أن تصرخ أو تبكي لقد ماتت وهي تدرك جيداً أن بعد الموت تجيء الولادة .
في ذلك الحين كان الواقع والزمن يتفقان على شيء ما يخص ذلك البيت المتعثر الذي يقطنه شيخ الزبالين وأهله .
فبعد مصرع الندى كان الضيف قد أستيقظ من نومه وكذلك أهل البيت بمن فيهم صعب وجلسوا جميعاً لتناول الطعام على مائدة الافطار التي كانت قد أعدتها أم زهرة منذ وقت مبكر مع هذا الصباح .. وعلى المائدة ..
قال أبو زهرة مخاطباً ضيفه :
– ما زلت تصرّ على الذهاب ، ليتك تنتظر قليلاً على الأقل عندما تهدأ الحال .. ربما .
الضيف – يجب أن أغادر لبنان اليوم .. وليس في مصلحتي أن أبقى هنا فربما يداهمون المنطقة بحثاً عني .. كنت أتمنى أن أسعد بضيافتكم وأقدم لكم أية خدمة ..
ولكن .. الموقف حرج جداً .
أبو زهرة – كما تشاء .. ما دام في ذلك مصلحتك .. وبكل أسف أقولها
كان بودنا جميعاً أن نقوم بواجبنا تجاهك على أكمل وجه ولكن كما يقول المثل الشعبي :
« اليد قصيرة والعين بصيرة » .
الضيف : – لا داعي لهذا الكلام .. فأنا لن انسى لك هذا الموقف الشهم ..
ثم أردف يخاطب صعب قائلاً :
أما أنت يا صغيري فأتمنى لك أن تذهب إلى المدرسة وتأكد أن الزمن القادم سيكون لك .. بكل أبناء جيلك .. كما أنني لاحظت عليك أنك تود أن تطلع على هذه الأوراق وعلى هذا الكتاب .. ولكن ماذا أقول لك وأنت ما تعلمت القراءة والكتابة بعد .. لكنني سأمنحك هذا الكتاب لعله يكون مني إليك ذكرى .. وربما تستفيد منه ذات يوم .. هيا خذه .. خذه .
فأخذه الطفل بعد أن ابتسم ابتسامة عريضة على أن يبقى له .. كذكرى من ضيفهم وظلت بباله تلك الكلمات :
« لربما تستفيد منه ذات يوم » .
وبعد ..
وكما تلملم السفن أشرعتها لتسافر .. غادر الضيف ذلك البيت المتعثر وذلكم الذين يعيشون شتى أنواع الحرمان والقهر لكنهم ما زالوا يحتفظون بأسمى سمات الإنسانية من حب وكرم وطيبة وشهامة .
ها هو ذا الضيف قد غادر متوجهاً ليشق طريقه عبر الأحراش يملكه شعور غريب تمازج فيه الحزن والفرح معاً ، وكم تمنى للشيخ وعائلته الحياة الأفضل ليقول في سريرته :
لن أنسى لك هذا أيها الشيخ الكريم .
كان صعب في تلك الأثناء قد هرع ليقف على رأس تلة قريبة من البيت مطلة على الأحراش ليترقب رحيل الضيف وهو يشق طريقه عبر الأحراش .
ها هو ذا الرجل .. يخطو مسرعاً إلى قلب الأحراش .. لقد دخل إلى عمق الأحراش لقد .. اختفى في عمقها .

فجأة سمع صعب صوت الرصاص الذي أخذ يدوي ويعلو في قلب الأحراش لم يبال بهذا كثيراً .. وهرع مسرعاً عائداً إلى البيت .

ووحدها الأحراش كانت تبتلع الفرحة والحزن معاً . وما أدرانا .. من ستبلعها بعد حين . ؟

الفصل الثامن

جحافل الموت تزحف مسرعة لتعصف ، ناقمةً غاضبةً على منطقة البيوت المتعثرة التي انطوت على ليلة كان قد قضاها في قُضاها الطريد الهارب من حكمها وقضاها . ليكون الموت فيها عملاقاً عظيماً يحمل تحت ابطه منجل الفناء الماضي المعقوف ، وما كان يضعه أبداً لأنه ما فتر أبداً عن نقل خطواته بين أرجاء تلك البيوت المتعثرة المسكينة .. فأذل عمقها وحطمها .. بما فيها وحصد أرواحاً ما أذنبت ، أرواحاً عاشت الذل والقهر ولم تتمرد .. وما كانت قادرة على التمرد أبداً .

وها هي حملة التفتيش الذي يقودها الآمر الناهي في لجنة العلاقات العامة التابعة لحزب إنساني .. قد حلت بالمنطقة .

« امسحوا الأرض مسحاً ، وحولوا المنازل إلى أنقاض .. اطردو من فيها .. لا أريد أن أرى أي شيء هنا .. امسحوا الأرض مسحاً .. » كذلك كان يقول الآمر الناهي بعصبية لا حدود لها والشر يقدح من عينيه قدحاً ..

وما هي إلا لحظات انقضت هاربة مرتجفة .. حتى بدت المنطقة وكأنها خرابة تغصّ بالدمار .. فالجرافات العملاقة قد حولتها إلى أتربة متبعثرة غصت بجثث الذين أبوا الرحيل .. ورجال الآمر الناهي قد فعلوا ما أمرهم به وأكثر ..

وفرّ من لجا من هذا الطوفان ، وماتت أحلام المساكين بموت أعشاشهم وتم نزوحهم قسراً .. ومن جديد لا مأوي ولا طعام .. هذا القدر نشر الثكل واليتم والدمع والجزع ..

لينطق الآمر الناهي كرة أخرى بعد ما أشار لرجاله إلى ذلك البيت الواقع على مقربة من شجرة التين العجوز .. قائلاً :

« ألم أقل لكم امسحوا الأرضَ مسحاً ، ما بالي أرى ذلك البيت واقفاً » ..

لم يكن في البيت المقصود سوى أم زهرة وطفليها .. فشيخ الزبالين قد غادره للبحث عن العمل .. وها هم رجال الآمر الناهي قد داهموا البيت ..

— أم زهرة : « ماذا تريدون » هكذا قالت خائفة مرعوبة .

– أحدهم وبصوت شيطاني قال : « هيا اخرجي من البيت سنهدمه في الحال » .
– أم زهرة وبعد صراخ حاد قالت : « ماذا .. تهدمون البيت .. ولماذا » .
– أحدهم كرة أخرى قال : « لا وقت لدينا هيا اخرجي من البيت » .
– وبغضب قالت أم زهرة « لا .. لن أخرج من بيتي أبداً » .
– أحد الرجال قال غاضباً : « اخرجي وإلا سنهدم البيت فوق رأسك » .
– أم زهرة : لن أخرج من بيتي أبداً .. أبداً .

أحد الرجال قال مستهزئاً : « ولم لا .. لا تخرجي .. لا تخرجي » .. فما كان منه إلا أن انتزع من حولها طفليها ورماهما خارج البيت وأمر قائد الجرافة السادسة بتحطيم البيت بل بانتزاعه من الأرض انتزاعاً .

وأبت الفاضلة أم زهرة أن تخرج من بيتها ولو كان ثمن ذلك انتزاع الروح من الجسد .

وتحطم البيت أمام ناظري صعب وزهرة .. وظلت بين ثناياه الممزقة أمهم التي غادرتهم للأبد .. وهم لا يدرون أبداً لماذا تغادر .

لقد ضاعت الفاضلة في الأتربة .. لقد ماتت وامتزج دمها الساخن بالتراب وجثتها ما ظهرت أبداً .

وعين الطفولة تتساءل .. تارة وتارة تبكي .

وعين الطفولة تشكو وعلام تشكو .. لقد ضاع كل شيء ..

وها هما كلاب الآمر الناهي قد ذهبوا إلى حيث جاءوا .. وظلّ صعب وأخته زهرة ينظران إلى حيث كان يقف بيتهم .. ويجهشان بالبكاء ويصرخان .. صراخاً خجلت منه عين الشمس فغابت .. صراخاً فزعت منه عواصف الخريف فهربت ، صراخاً في شكوى .. وفيه ما فيه من لحن الموت وموسيقاه الصاخبة .

« أين أنت يا أماه » ..

« أين أنت يا حبيبة » « لقد .. تهدم البيت » « أين غبت يا أماه » وها هما صعب وزهرة يتراكضان إلى أنقاض البيت ليبحثا عن أمهما .

ها هم ينبشون في الأتربة المتراكمة .. كمن يبحث في التراب عن كنز مدفون وهو يدرك جيداً أنه .. هنا موجود .

وما كانت غير حفنات من التراب تتبعثر .. هنا وهناك .. لا جدوى لقد اختفت .

والطفولة ما زالت تصرخ وتبكي وتنادي .

أماه .. أين أنت يا حبيبة . ؟
أماه .. أين أنت . ؟
أماه أين غبت .. ولا من مجيب .

ثم ساد صمت كالذي يعقب انطلاقة الرصاص ، وبدت المنطقة خالية موحشة لم يبق فيها أي شيء حيّ سوى زهرة وصعب اللذين ما زالا ينبشان في التراب بحثاً عن أمهّما .. وتلك العنيدة

شجرة التين العجوز الواقفة منذ سنين ها هي تنظر بعينيها .. وتترقب ما يجري حولها .. البيوت تهدمت والناس نزحت والأمهات قتلت ، والأطفال في ساحة الموت يصرخون .. ولا جدوى من انقاذهم ..

ما يجرى حولها ..

وصعب ما زال يجهش بالبكاء وكذلك زهرة التي لم تدرك من كل هذا سوى أن أمها قد غابت .. إلى أين ولماذا .. لا تدري .

ها هما ينتظران على مقربة من التينة عودة أبيهما .. لتجدتهم .. وشيخ الزبالين قد تأخر ولكن لماذا يتأخر ما دامت الطفولة في أمس الحاجة إليه .. وهل من مصير بعد هذا المصير العملاق .

في ذلك الوقت وقبل أن يهجم الليل بظلامه على الكون كان شيخ الزبالين قد زج غصباً في غرفة عفنة مكتظة بالمساكين واقعة تحت الأرض التي قام عليها شامخاً برج المر ..

و « برج المر » ذلك الواقف شامخاً في بيروت بؤرة فيها يدحر الإنسان دحراً ويقتل ألف مرة . ومرة ولا يموت .

في هذا البرج سجن لم تعرفه الأنظمة الرجعية الارهابية أبداً فالتعذيب فيه يكون بدون سبب ويتخذ له أشكالاً متعددة .. لم يألفها الإنسان من قبل ..

وها هو أحد المساكين يتعذب على مرآة ناظر الجميع .. بمن فيهم شيخ الزبالين الذي فقد أعصابه تماماً .

ها هم رجال الحزب الإنساني وبين أيديهم إنسان يتكلم مثلما يتكلمون ولسانه عربي . مثلما هم يدعون أنهم عرب .. أنه من لبنان وكذلك هم من لبنان ..

وها هم يودون استجوابه .. والرجل بين أيديهم غدا كبهيمة لا تنطق أبداً لكنها تهز برأسها إلى الأسفل كعلامة نعم .. ودار حوار بين المحقق والسجين .

المحقق – أنت كتائبي .

السجين – (يهز برأسه إلى الأسفل) .

– تعترف أنك قمت بتفجير سيارة فخامة رئيس الحزب .

– (يهز برأسه إلى الأسفل) .

– إنك تود الموت اليس كذلك ؟

– (يهز برأسه إلى الأسفل) .

– لن ندعك تموت من مرة واحدة أيها المجرم .

– (يهز برأسه إلى الأسفل) .

ثم يرفسه أحدهم إلى اليمين ويطلب استجواب سجين آخر ..

ويحضر الآخر .. طائعاً ساكتاً لا يتكلم ..

فيسأله المحقق ..

– أنت كتائبي .

– أنا مسلم .

- يبدو أنك رجل حقير .
- أقسم إنني لم أفعل شيئاً فما أنا سوى بائع متجول أطوف النهار لأجل لقمة عيش أطعمها لصغاري .
- يبدو أنك رجل حقير فعلاً .
ثم يأمر أحدهم بإدخاله إلى غرفة الانعاش .. ليعود به ثانية للتحقيق .
وبعد ما خرج الرجل من غرفة الانعاش وكأنه ابتلع مخدراً اسكته تماما . المخدر .. هو تقليع الأضافر ، طلي الجسم بالأسيد ، قطع إبهام أو خنصر .. أو قطع لسان ، قلع عين .. أو لكمة تفرط الأسنان .
المخدر .. في غرفة الانعاش يجعل الإنسان بهيمة .. لا تتكلم أبداً عليها أن تهزّ رأسها إلى الأسفل كعلامة على القبول .. أو كإشارة تعني نعم .
الرجل المحقق يخاطب السجين الذي خرج من غرفة الانعاش قائلاً :
- أنت كتائبي .
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- تعترف أنك قمت بتفجير سيارة فخامة رئيس الحزب .
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- أنك تود الموت أليس كذلك ؟
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
- لن أدعك تموت بهذه السرعة .
- (يهز برأسه إلى الأسفل) .
ثم يرفسه المحقق رفسةً قوية توقفت أنفاسه على أثرها وللأبد .. ولما سقط .. أردف المحقق قائلاً يخاطب جثة السجين :
- لقد أفشلت التحقيق يا حقير .. فما كنت أودك أن تموت بهذه السرعة . ثم أمر أحد عناصره بنقله ثم رميه على أكتاف المقبرة ..
ثم جاء أخيراً دور شيخ الزبالين .. فامتثل طائعاً خائفاً بين يدي المحقق ليخاطبه قائلاً :
- تشرفنا فأنت ضيف جديد أليس كذلك .
- نعم .. نعم ..
- ومن جاء بك إلى هنا .
- رجال الحاجز العشرون .
- وماذا فعلت ؟
- لم أفعل شيئاً .
- هكذا دون أن تفعل شيئاً تم اعتقالك ؟
- اقسم لك يا سيدي أنني لم أفعل شيئاً .
- ما هي مهنتك .. ما هو عملك ؟

- أعمل « زبالاً » .
- أين موقع عملك ؟
- كنت أعمل في « دير الصليب » .
- ماذا .. دير الصّليب .. أتعني أنك تعمل في الشرقية ولكن كيف تتنقل والحدود قائمة ؟
- كنت أعمل في دير الصليب ولكني انقطعت عن العمل أثر التقسيم .
- أنت ضد التقسيم إذن ؟
- أنا لبناني .
- ألمح فيك الروح الوطنية .
- كلنا نحب لبنان .
- هل تنتمي إلى أي حزب .. ؟
- أنا غير متعلم .. ومهنتي لا تسمح لي بالانتساب إلى الأحزاب .
- ولكن لماذا اعتقلك الحاجز العشرون ؟
- لا أدري .. ولكن ..
- ولكن ماذا ؟
- فربما لأنني سئمت الانتظار على الحاجز ليلة الأمس لضعف جسمي ومرضي .
- وماذا حصل على الحاجز ؟
- بينما كنت قاصداً بيروت برفقة صغيرتي زهرة لأبحث هناك عن عمل أقتات منه أنا وعائلتي .. توقفنا عند الحاجز العشرين بعدما أمرنا رجل الحاجز .. ولما مضى على انتظارنا أكثر من ساعة .. قلت لرجل الحاجز أنني تعب وأود أن أعبر .. فصرخ بوجهي وضرب صغيرتي وعندما عبرت هذا اليوم .. تم اعتقالي .
- إذن أنت متمرد ..
- أنا إنسان ضعيف غير قادر على التمرد .
- لو كنت قادراً تمردت أليس كذلك ؟
- لا أقصد هذا .. ولكنني عبد فقير .
- أود الخلاصة .. هل أنت متمرد ..
- لا .. لا ..
- سنرى ذلك بعد غرفة الانعاش .

ولما دخل شيخ الزبالين غرفة الانعاش ثم خرج منها .. جلس مرة أخرى بين يدي المحقق . خاطبه الأخير قائلاً :

: - أنت متمرد .

شيخ الزبالين : - يهز برأسه إلى الأسفل .

المحقق : - تعترف أنك قمت بمحاولة تفجير الحاجز .

شيخ الزبالين : - (يهز برأسه) .

المحقق : - انك تود الموت أليس كذلك . ؟

شيخ الزبالين : - (يهز رأسه إلى الأسفل) .

المحقق : - سأدعك تموت بسرعة لأنك مريض وتشكوا من التعب . وفوراً .

أمر المحقق بإعدامه رمياً بالرصاص .

وتم ذلك بعد منتصف الليل ، ونقل شيخ الزبالين من مقر اقامته في برج المر .. إلى حضن المقبرة المختصة بالوافدين من ذلك البرج الشامخ .

الفصـــل التـــاسع

في العمق البارد الملتهب الذي باتت الحياة فيه عاهرة لا تعرف الرجاء والحياء ، أسيرة في أغوار بوتقة الوجود المظلمة كان سواد الليل بعد السحرّ عملاقاً يشهد حرباً بين القدر وحليفه الزمن .

ففيه قد تاهت قبل قليل رحلة الشقاء في غياهب ذلك الغياب المنتظر ، لقد رحل الشيخ بعذاباته وآلامه إلى ما بعد الروح وروحه مطمئنة شاكية ناجية ، قانطة بعد الهلاك والتعب بين يدي العدل في الديار العادلة ، لتحتل مكانها بالوراثة وتستوطن في هذا العمق القاهر المظلم جاهدة شاقة أدراجها عنيدة جائرة رحلة البدء والولادة ، تلك اليانعة التي أدركت عن كثب أن الأشياء في هذا الوجود تنصهر انصهاراً مروعاً وتلف العناق حول أعناق الذين ما زالوا في عمر الورد براعم ما تفتحت بعد ..

وهل تفلت تلك البراعم من الانهيار وتسقط في القاع المرعب حتى الثمالة وتضيع أم أنها بالتمرد والعصيان ستحيا غضباً ذات يوم وتدفع بعجلة الأمان لأن تدور مرة أخرى بعد أن توقفت وأصابها الانكماش والغثيان .

فالخوف قد بدأ يطارد ساعاته الأولى ، ويلاحقها لاهثا وها هو ذا يضطهد النفوس الطفلة ويذلها ويدفع بها اندفاعا إلى دائرة الجوع ذلك المارد الذي سيطردها من حين إلى آخر للصقيع وهي ملتهبة هياجة ، ولم تكن قادرة على تحمل الخوف والجوع والصقيع معاً ، وبعد أن تصطك الأسنان ويكاد أن يبتر رأس اللسان تستسلم النفوس طائعة بخنوع رهيب خنوع لا يدوم ، لا تتذكر ، لا يمكنها أن تتذكر ولكن عليها أن لا تنسى أبداً .

فها هي ذي التينة العجوز واقفة قد سلبها الخريف ما سلبها ، واهنة يقظى عارية لا تنام ، وحولها ما زال الوسيم وأخته ينتظران عودة الشيخ .. والشيخ ما عاد .

والحرب قائمة .. والجوع يداهم المعدة ، والبرد يجيء قارصا ليدخل من مسمات الجلد والخوف لا يرحم ولكنه يطرد النعاس ويجيء مقنعاً ، متنكراً تارة في وحشة وسكون وتارة

أخرى في موجات صوت نباح كلب جائع ، أو عواء ذئب هرم ، وذاتها الأحراش(1) اسيرة خائفة مرعوبة .

ووحدها الذاكرة .. تلتهب وتلتهب وتزداد حرارتها .. فيتنامى الشعور بالألم ويكبر .. ويكبر ليعلن الوقت ذاته حالة الولادة .. وتبدأ رحلة الشقاء منذ طفولتها تواكب في سيرها سيرة كل حيّ يصرع ويسحق بل يمسح مسحاً ولا يموت في هذا الزمن العاهر .. لتظل تواكب ذاتها بذاتها إلى أن تلتحم بالتكوين ذات يوم لا بد آت وتجيء فيه الولادة الحقة طفلة تحيا في جسد هرم . ومرت ..

ومرت تلك الليلة بما حفلت ولما ارتفع الضحى التالي وقبل أن ينتصف النهار عَزم الوسيم على الرحيل فراح يخطو برفقة أخته زهرة إلى حيث لا يدريان تاركين وراءهما أنقاض البيت الذي سقط وتحطم وخبأ في طياته جثة الفاضلة وذلك الماضي الطويل الصغير الذي غدا مطحوناً بما فيه .

والخطوة حائرة متعبة ها هي قد بدأت تلتهم من المسافة الواقعة بين الموطن المقتول وذلك القادم المجهول والدمعة خلاقة حرّى في خلقها حزينة تقذفها العيون من مدامعها بمرارة ممزوجة بالبريق والحرارة ، ذلك البريق الذي تختفي وراء لمعانه وفيه صور الأمس الجميل وحفاوة تلك الابتسامات المسلوخة من صلبها بمرارة ..

ها هي زهرة مكسورة الخاطر تفر جائعة تعبة من المواطن العارية الواهنة برفقة أخيها وهي لا تدري أي شيء .. وعيناها المتعبتان ما كفتا عن البكاء بعد .. والذهول يخطفها من لحظة إلى أخرى .. يخطفها تارة ويفر هارباً منها عندما كانت تشكو من التعب وتقسو آلام القدمين .

ها هي ذاهلة .. تسترسل أول خيوط الذكريات تلك المكتظة الحبيسة في ذاكرتها العذراء كما تكتظ النار في قلب التنور .. لتتذكر من تلك الأيام يوماً كانت فيه تفرح وتغني .. وتقلد الفاضلة في إعداد وجبة العجين لصناعة الخبز مقربة على وهج التنور .. وتضحك طويلاً ضحاكاً لم يشبه ضحك النار فى قلب التنور ثم تداهمها الغصة .. فيجف ريقها ومن جديد تجهش بالبكاء .

« لا تخافي .. لا تبكي .. لا تبكي يا زهرة » كذلك قال الوسيم والدمعة في عينيه حرّى مرة .. والنهار واقف لا الضحك فيه ضحك ولا البكاء فيه بكاء .. والخطوة تبتلع من المسافة بعض أشيائها .

وزهرة ما زالت ذاهلة تتذكر .

يوماً كانت فيه تنعم برفقة أهلها داخل جدران البيت المتكسر المضياف تفرح لمزاح الشيخ مع صعب على مائدة العشاء ..

ثم يوقظها الجوع من ذهولها هذا .. فتمد يدها تتلمس بطنها .. الذي فيه وكأن الأمعاء تتقاتل وتتصارع ولحظات الجوع قد طالت .. والمسافة

---

(1) الأحراش : غابات من الصنوبر وأشجار مختلفة

تطول .. وتطول .

وعلى حافة الطريق توقفا عن المسير ليستريحا قليلاً .. فجلسا حائرين متعبين ولا سبيل للقمة ، والراحة في هذا المكان الذي بدا خالياً من كل شيء بالرغم من أن أجواءه كانت عابقة برائحة غريبة .. تشبه رائحة السردين يبعثها البحر ذلك الغاضب الأخرس .

وهنيهة من الوقت مرت .. فعزّما من جديد على متابعة المسير ، والخطوة في سيرها تعبة ثقيلة لكنها كانت تصرُّ على أن تقطع المسافات للبحث عن الماء واللقمة . وللبحث عن الشيخ الذي ما عاد منذ ليلة أمس .

وها هي الخطوة .. تتقدم لتداهم الحاجز الأول الذي وقف على عرض الطريق غير عابئة به ولا هو عابئ بها .

ثم داهمت الثاني .. والثالث والرابع وما تلاهم إلى أن وصلت إلى مشارف الحاجز العشرين حيث أصابت زهرة موجة عارمة من الخوف والارتباك معاً ، لقد تذكرت جيداً أنها قد صفعت على وجهها هناك على مقربة من تلك البراميل الملونة الواقفة على يمين الحاجز .. يوم كانت برفقة والدها .

ولما وصلا إلى الحاجز استوقفهما على الفور الرجل المسلح قائلاً لها وبصوت أجش :

– إلى أين تذهبان ؟

أجابه الوسيم قائلاً وبحزن :

– إلى حيث لا ندري .

ولما بدا على زهرة أنها خائفة مرتبكة مرعوبة قال الرجل المسلح يخاطبها :

– ما بالك خائفة مرتبكة أيتها الصغيرة ؟

وبعد أن نظرت إليه قالت بخوف :

« لقد دمّر بيتنا وضاعت أمنا » وسكتت فأردفت راجية وهي تتلمس بيدها خدها الأيمن .

– ألن تصفعني على وجهي ؟

فسألها الرجل المسلح :

– ولماذا أصفعك على وجهك ؟

فسكتت ثم قالت : إذن دعنا نعبر بسلام ونتابع سيرنا .

الرجل المسلح يضحك ساخراً ثم يقول :

– ولم لا .. هيا اعبرا بسلام .. هيا اعبرا وتابعا سيركما إلى حيث تريدان .

وعبرا الحاجز العشرين وتابعا سيرهما إلى حيث كانت بيروت ما زالت واقفة تجهش بالبكاء وتصرخ .

في تلك الأثناء أخبرت الأخت أخاها عما كان قد جرى لها ولوالدها على ذلك الحاجز صاحب الرقم العشرين ذات يوم غاب في عمر الزمان .

ومرت برهة من الوقت .. وها هما قد وصلا إلى مشارف بوابة العملاقة بيروت الحزينة .. لتجيء مسرعة وتنعش الصدور رائحة الخبز الفواحة القادمة من ذلك المخبز المتواضع الواقع على يمين الطريق .. فهرعا إليه راجّين رغيف الخبز لمعدة جائعة وعندما دلفا إلى داخله ووجدا الرجل الخباز منهمكاً يعد وجبة العجين .. توقفا مكتوفي الأيدي يملكهما خجل قصير .. وجاست عيناهما في الخبز تارة وفي الخباز تارة أخرى .

لينطق الخباز قائلاً :

عذراً لا أستطيع اليوم بيع الخبز .. لأن الكمية كلّها محجوزة لرجال الآمر الناهى . وتمتم صعب قليلاً ثم قال بصوت خافت قوي غاضباً متوسلاً .

– أننا جائعان نود الخبز ولكننا لا نملك الدراهم .

وبدون أن ينبس الخباز بنبت شفة مد يده إلى « الطبلية التي وضعت فيها الأرغفة » وتناول رغيفاً طازجاً وأعطاه لصعب .. ثم مرة أخرى قدم رغيفاً لزهرة .. وكرّ راكضاً إلى حيث العجانة الفولاذية تدور وأخذ يتابع سير عمله والألم كامن في نفسه ، كان يدرك جيداً أن الجوع يداهم الأطفال في هذه المدينة التي غدت بؤرة للبؤس والشقاء ..

في هذه اللحظات ذات القيمة تفرغ الصغيران لا يشغلهما شاغل عن التهام الخبز واجتهدا في ذلك اجتهاداً بالغاً لم يعرفه قاموس الجوع .. ثم طلبا من الخباز .. أن يمدهما ببعض الماء .. فمدهما بإبريق الماء فشربا وشربا حتى ارتويا .. وما ارتوى الجسد لكن الظمأ قد ذهب ..

ثم أمرهما الخباز بالانصراف قائلاً :

– « هيا انصرفا إلى حيث جئتما.. هيا » فانصرفا .

ومن جديد بدأت الخطوة تطرد أختها وتبعث للأقدام تعبا .. إلى أن كفت عن المسير وأوى صعب وأخته إلى شاطىء رملي تمدد طولاً وعرضاً على كتف البحر الغشوم فتمددا عليه ثم ارتخيا .. ليداهمهما النوم فناما في الوقت الذي ما نام فيه دفء النهار .

وتعاقبت ساعات من النهار كانت الرمال في حينها فراشاً والسماء لحافاً ، وقبيل أن يحط المساء في المعمورة استيقظا من نومهما خائفين .. وهرعا من جديد يتابعان المسير إلى عمق العملاقة .. ذلك العمق البارد الملتهب . ففيها كانت الخطوات تجرف المسافات جرفاً وهي تعبة تائهة حيرانة ، والعيون تجوس في كل شيء وتترقب ولا تتأمل أبداً لكنها ما زالت تستقبل صوراً وتطرد صوراً .. باقية مزروعة على الأرصفة وفي الشوارع وبين الحارات .. وحتى في الممرات الضيقة وعلى مرآة الأضواء الخافتة الملونة التي كانت تطل خائفة من البيوت .. وفي الأصوات المتنوعة المفتتة المشتتة .. وكل شيء في العمق يدوي ويصرخ يبحث عن القوت والمأوى والمأمن .

الأطفال قد أمرهم الساسة باستيطان الأرصفة .. تلك الأرصفة التي تزينها الحرب وتجملها الحوادث تجميلاً .

على الأرصفة تموء القطط جائعة ، والكلاب تنبح ، وفضلات الأشياء قد تراكمت كباقات تزين الشوارع .. المحفورة لينام ويتمدد حولها الأشقياء .. فقد يتعرضون لقذيفة تمزقهم أرباً .. وقد تنتهك عذريتهم وقد يقتلهم فزع ووحشة الليل .. وقد .. وقد .. وقد .. وموسيقى الليل ذابحة تجيء لحناً

من ألحان الموت الصاخبة .. يبعثها كل ما يجري في الكون ، صوت الريح والرصاص معاً ، ومن هناك صراخ يأتي من حيث يأتي صوت الموج .. إلى هنا حيث تصدر الأمعاء قرقعة .. والأنفاس تغدو لهاثاً .. ثم يدوي صوت انفجار يتبعه صراخ وحطام .. وركام .. لتعلو بعد حين أصوات أليفة أشبه بصوت الجنازة فهل سمعته من قبل !!

والأشياء تتكاثف تكاثفاً وطيداً لتضع صوراً مأساوية غريبة في هذه العارية الجالسة في حضن الكون .. لتكبر فيها رحلة الانشقاق والتمزق وتكون الغلبة لمن غلب قسراً ويغدو الابتلاع هيمنة مقبولة ، كهيمنة السياسات الحاقدة على المغلوبين .

ومرت الليلة التالية كسابقتها بالفاقة والجوع ، عارية من كل شيء فما زالت السماء لحافاً للشقاء والرمال فراشاً ولا مهرب من المكتوب ..

وفي تلك العذابات والآلام التي كانت تتتالى وتتعاظم بقسوتها ومرارتها لتتوارى أحداث تلك الليلة مستهزئة بالشقاء ثم يأتي النهار التالي كسابقه مزاحماً الشقاء بشقائه ، وعلى أعتاب نصفه الآخر حيث كانت الشمس واهنة تطل وتغيب ولا تختفي ، كان صعب وأخته قد دلفا بعشوائية المتشرد داخلين إلى عمق وأغوار سوق الخضرة المزدحم بالناس والعربات والخضرة ذلك الذي يطفح بآمال وآلام المضطهدين .

وفي مغاصه .. وأغواره غاص الوسيم وأخته في زحمة الجموع الغفيرة ليشاء القدر حينذاك ويفرق شملهما فتتوه الأخت عن أخيها عندما هرع الناس يتفرقون خائفين مسرعين هاربين من ويلات قنبلة انفجرت في إحدى الحانات داخل السوق في ذلك الوقت علا صوت صعب يصرخ ويدوي مصروعاً مرعوباً ، منادياً أخته قائلاً :

يا .. يا .. زهرة .. يا زهرة أين أنت .. أختاه أين عني قد تهتِ .

وعيناه المتعبتان اجتهدتا في البحث يمينا وشمالاً .. وزهرة في الطريق المعاكس المؤدي لوجه البحر ما زالت تمشي باكية خائفة وهي تلتفت يمنة ويسرة باحثة عن أخيها ، ولا جدوى .. فلقد تاهت عنه في وسط الزحام كما يتوه كل شيء ويتفرق ويتمزق في زحمة هذه الحرب التي حطت بأثقالها وأوزارها على جسد العملاقة بيروت .. وحالة الاغتراب كانت تساير الساعات التي أخذت تتالى من عمر الوقت .. فازداد الخوف وكبر الألم وتفاقمت الحالة إلى أسوأ ، وزهرة دائبة تمشي في الطرقات المقتولة مذبوحة مسلوبة تبحث عن رفيق دربها وعيناها ما كفت عن البكاء .. والبحث هنا وهناك في الأشياء وحول البقايا وعند أول المفترقات ، ما زالت تجوس في بصرها وذهنها وعقلها .. في الركن وفي الزوايا ليظل الذهول رفيقاً أنيساً .

والدمعة .. مالحة مرة .. فأين تذهب وماذا تفعل وكيف يمكنها أن تلتقي برفيق دربها قبل أن تداهمها وحشة الليل .. فتداهم كورنيش البحر .

« خائفة أنا .. خائفة .. خائفة » كذلك قالت في سريرتها قبل أن يضحك لها القدر .. وتمر مصادفة مقهى البحر شاردة .. واستفاقت لقد عرفته جيداً أنه ذلك المقهى الصغير الذي التهمت فيه الحلوى ذات يوم .. وهرعت إليه كفراشة هائمة .. راجية أن ترى في داخله الشيخ الذي ما

عاد للبيت و لم تفلح في ذلك لقد وجدت حكيما .. الذي كان ينظف ويغسل استعداداً للرحيل .. وعلى الفور هرعت إليه باكية شاكية لينطق مذعوراً مدهوشاً ويقول مخاطبها : « من .. من .. زهرة .. ابنة الشيخ !! من جاء بك إلى هنا وأين شيخنا » . ؟

ولما اشتدت بها حالة البكاء .. أردف . يخاطبها برقة وحنان .

– يا بنتي .. هدئي من روعك قليلاً .. ودعيني أفهم منك علام تبكين .. ماذا حصل ؟ .. تعالي ادخلي واجلسي على هذا الكرسي الصغير .

ولما جلست .. قدم لها كوبا من الشاي ومكث على مقربة منها يسمع منها ما قد حل بها وبأمها وبأبيها وبأخيها وتألم كثيراً .. ثم مد يده ليمسح من على خدها الدموع التى تحدرت .

ثم ضمها إلى صدره ليرعاها من وحشة هذا الزمن منذ ذلك الحين وأخذها معه إلى بيته لتعيش في كنف عائلته في بيت متواضع فقير ..

وأخذ الزمان يمشي في طريقه المرسوم فتداركت الأيام وتتابعت .

الفصـــل العاشـــر

تحت أجنحة الليل وبين ثنايا أساريره الشاحبة ، في داخل مقبرة المدينة المنتهكة المسروقة وعلى مرآة نصف قمر خريفي باهت .. كانت العملاقة الصابرة تشهد في صلبها مشهداً عملاقاً تقوم في إحيائه ببراعة واتقان تلك الطفولة الموجوعة المتمردة التي غدت وهي متحالفة ومتكاتفة كياناً يخيف ويرعب وسيرعب بعد حين .

فها هو ذا فريق من صبية أشقياء .. هم ذلك الزبد الذي أفرزته وطرحته عفونة الحرب النتنة ، قد جاؤوا .. متفقين متحالفين مع هذا الليل الخريفي ليدخلوا المقبرة الكبيرة دون حائل غير خائفين ليشكلوا أغرب وأخطر حملة مداهمة عرفها ليل بيروت .

ها هم أولاء جميعاً قد دلفوا إلى قلب المقبرة الكبيرة بمن فيهم الوسيم الذي كان قد انخرط في صفوفهم منذ عدة أسابيع يأكل من أكلهم ويشرب من مشربهم وها هو اليوم يرافقهم في حملتهم الشنيعة ومسلكهم .

ها هم الصبية جميعاً قد داهموا المقبرة لينتهكوا حرمة القبور المتمددة الراقدة الساكتة ويدحروها دحراً دون أن تقشعر أبدانهم ودون خوف أو مبالاة ..

ها هم يكسرون القبور بما حملت أيديهم تكسيراً ، وينبشون في عمقها نبشاً ويبحثون عن الجماجم البشرية الباقية في أجساد الموتى ليجمعوها الواحدة تلو الأخرى .

وصعب المسكين يحدق بعينيه جافلاً مستغرباً مشمئزاً قد أصابته قشعريرة رافقتها رجفة شديدة في أطرافه ثم تمتم مذعوراً ليقول في سريرته وهو يتمعن برؤية ما يفعله الصبيان :

— « ما أبشع هذا .. ما أبشع ما يفعلون .. ما أبشع هذا .. وحوش .. و .. » ثم يصرخ صراخاً حقيقياً لن تسمعه تلك الهياكل الراقدة منذ دهور .. فيفر هارباً متعثراً بين القبور .. ويغادر المقبرة إلى الشوارع وحيداً في هذا الليل المسعور .. المسعور ..

وقبيل أن يهرع الليل هارباً يغادر الصبية قلب المقبرة غانمين بالجماجم العديدة فرحين بفعلتهم قاصدين بيت المعلم زاكي ذاك العجوز البشع الكرنيب ليعطوه ما حملت أياديهم ..

فيمدهم ببعض الليرات بعد أن يأخذ الجماجم مسروراً وبعد أن يتفحصها ويتمحصها ليهرع هؤلاء الأشقياء الذئاب إلى ممارسة لعبة « الفيلبر » التي لا تتوقف في ليل أو نهار بهذه المدينة الأعجوبة .

وظلّ الفجر سادياً ماوردياً بارداً ، ثم ظلّ النهار صورياً شتوياً ماطراً جاءت مياهه لتطهر ما قد تدنس وتلوث ، وجاءت لتعيد حفنات التراب إلى مواضعها في المقبرة المسروقة وتطمر عظاماً قد تبعثرت هنا وهناك ..

وأخذ المطر ينهمر بلا توقف لقد جاء بعد عام ليغسل جسد المعذبة الملطخ بالقذارات وها هو قد بلل رأس صعب لتنساب ذوائب شعره من على جبينه العريض ثم تتبلل ثيابه ويتسرب عبرها ماء المطر فيلامس مسمات الجلد وتلامسه قشعريرة أحياها البرد .

والبردّ قد عم المكان وحطت أشياؤه على الجسد الغض الصغير لترتجف أطرافه وتصطك الأسنان فيحمرّ خد ويصّفر الآخر .. وتارة يشعر الوسيم بأنه قد تجمد من شدة الصقيع أو أن أنفه قد سقط . وما انكتمت الأنفاس بعد .

ولما اشتدت حالة الصقيع وازداد انهمار المطر وبدا البريق في السماء مضطرباً خاطفاً والرعد غاضبا غير ساكت وصفير الريح يدوي لعواء العاصفة ويشكو .

ووحدها الشوارع قد أفلحت واستسلمت فخلت من المارة ليقوم الثلج بثورته البيضاء ويحتل ببياضه كل سفح وقاع في الأصقاع . لقد جاء محملاً على أكتاف الريح الباردة القادمة من عمق الشمال وانتصرت ثورة الثلج فغمرت وقتلت عفونة الحرب وغطت جسد العملاقة الصابرة حتى بدت الأخيرة وكأنها حورية بيضاء لكنها ما فرحت فرح الحوريات ما زال الهدوء فيها غائباً .. وصوت الريح عاصفاً والنفس تواقة للدفء والمأوى تنتابها حيرة تتخبط لذاتها بذاتها .

والوسيم حائر لا يدري ماذا يفعل ليجد ويستهدي طريقاً إلى الخلاص .. ليقول في سريرته مقهوراً بهمس وخنوع راجياً .. شاكياً وعيناه تدمعان وتشكوان مخاطباً الجلالة :

– أين مني يا رباه الدفء والمأوى .. والبرد يحتلني ويودّ أن يكتم أنفاسي ويخنقني .. أين أذهب والشوارع حافية .. لقد سئمتها وطال فيها عذابي وانتظاري ..

رباه .. أتوسل إليك خلصني .

رباه .. أناديك فأجبني .. وليتك من حياتي تعفيني ..

فرباه .. خلصني .. وخلصني .

وبعد ذلك أخذ يمشي ويتابع سيره في الشوارع الخالية ، كسلان قد أضناه التعب جاهداً .. ما زال يبحث عن مكان ينزوي فيه ليقيه من ويلات الرياح المثلجة ..

وها هو قد أوى أخيراً إلى مدخل مبنى ضخم وقف في منطقة المنارة يطل معانداً وجه البحر الغاضب .

وعندما دلف من البوابة الحديدية إلى داخل المبنى خار جسمه وسقط متمدداً بثيابه المبللة على بلاطات عريضة كانت أشد برودة .. ليجيء الخلاص مسعفاً ..

فتتوقف في هذه الأثناء وعلى مشارف بوابة المبنى سيارة صغيرة لتهرع منها مسرعة امرأة قد

لفت رأسها بشال زهري .. ولما دخلت من البوابة جعلت تنظر إلى ذلك الصغير المتمدد كالقتيل على البلاطات في بهو المدخل فأسرعت إليه لتنقذه وبعد أن ارتبكت قليلاً تمكنت من نقله فحملته وصعدت به إلى بيتها وفي البيت ..

ودون أن تتمعن بتفاصيل وجهه الذي بدا شاحباً مصفراً ، أخذت تخلع من على جسمه ثيابه القذرة المبللة .. لتلفه بحرام صوفي وتسرع لتوقد نار الموقد .

وما هي إلا لحظات حتى فاحت في أجواء البيت رائحة الحطب وأخذت تنتشر سريعاً كالبخور انتشاراً ليختلط الدفء بالأنفاس وتجيء الحرارة تلك التي ما انتشى فيها ذلك الملفوف بالحرام الصوفي وما زال غائباً تسرقه غيبوبة ما .

ووحدها الحيرة قد ملكت الحورانية بعد أن احتلها اضطراب وقلق على حالة الصغير إلى أن اهتدت لاسعافه وادركت انه بحاجة ماسة إلى النوم .. فحملته إلى غرفة نومها جاهدة فرحة لتضعه على سريرها العريض .. بعد أن لحفته جيداً كمن يحكم أوتاد خيمة تصارعها الريح في الخلاء الموحش . وبعد العناء الطويل غاص الوسيم ببحر النوم طويلاً .. وخرجت السيدة تذرع الغرفة المحتفية بنار الموقد جيئة وذهوباً .

وكرة أخرى هرعت لتدخل إلى غرفة نومها ، وأمام السرير وقفت تواقة تتأمل بشدة ذلك الراقد المتمدد على سريرها فأصابتها نشوة غريبة واحساس جميل دافىء فابتسمت ابتسامة عاقرة مثلها ابتسامة المحرومة من انجاب الأطفال .

ومن جديد وإلى حيث وقف الموقد هرعت وفرحتها ما هرعت من أعماقها ، وعلى مقربة منه جلست شاردة ذاهلة ، لقد أسكرها منظر النار وهي تتأجج وطوعها ذلك لتطوف في ذلك الماضي البعيد .. الغائب دون أن تختار منه ما يناسبها ويسعدها .. فتذكرت زوجها رفيق دربها .. وأختها ، وكم تذكرت من أعباء ذلك الزمان الذي قد ولّى وما غاب .

وتنهدت طويلاً .. وتذكرت ذلك اليوم الذي عرفت فيه أنها لا تنجب الأطفال .. يوماً ماتت فيه أحلامها وظلت لها الأشجان .

وأبحرت في غمار بحر الذاكرة .. ووحدها النفس ترغمها على الغوص كثيراً في كهوف الذكريات وشيئاً فشيئاً كانت النار في الموقد تتنفس من بريق عينيها والعين شاردة ذاهلة بذلك اليوم الذي انقطعت فيه إثر التقسيم والحصار عن الذهاب إلى « دير الصليب » .. فتنهدت .. مراراً وعاد الذهول ليخطفها .. فتذكرت يوما اشتغلت فيه بمشفى الجامعة .

ونار الموقد على غرار أعماقنا ما زالت تلتهب وتغرغر .. فتغرغر لها العواطف تلك التي ما أخمدها ولن يخمدها الرماد .

وكرة أخرى .. انتفضت من جلستها تاركة قعدتها لتذرع الغرفة جيئة وذهوباً ثم وقفت وراء النافذة بعد أن ازاحت عن وجهها الستارة فطلّ وجه البحر غشوماً .. ورذاذات الثلج جاءت متصارعة متضاربة خلابة لتلامس زجاج النافذة وكأنها تود أن تدخل لتنتحر في الدفء على مرآة نار الموقد .

وهنيهة من الوقت مرت فعادت . بعدها متسللة تاركة وجه البحر ووجه النافذة لتدخل

إلى غرفة نومها وتتأمل وجه الوسيم النائم ودونما استئذان داهمها النعاس فخنعت إليه طائعة حيث أسرعت لتفترش لها على يمين السرير فراشا .. ولما فعلت . عليه تمددت متراخية متعبة معلنة استسلامها للنوم فنامت حتى انتشى صدر الكون بظلمة الليل .

ولما فرش الأخير فراشه في الرحاب استيقظت حورائية العينين من نومها ، تملكها نشوة غريبة رائعة منعتها الليلة من الذهاب إلى المشفى وحبذت أن تبقى في البيت لأجل ضيفها الصغير .. ثم هرعت إلى الحمام واغتسلت ثم خرجت ومن جديد دخلت مطبخ البيت لتعد مائدة العشاء .

وبرهة من الوقت تجري لتسرق أختها .. وكأن اللحظات تنتظر أن تقام مائدة العشاء .

وها هي أوديت الرائعة قد جلست وادعة برفقة الوسيم بعد أن ايقظته من نومه حول المائدة المغمورة بما لذ وطاب ليتناولا وجبة طعام العشاء .

والوسيم جافل مدهوش كفراشة هائمة .. شيء غريب .. الدفء حوله والطعام اللذيذ وسيدة رائعة وحنونة ..

ها هي ذي قد قطعت الخبز .. ومدته ببعضه قائلة له :

– هيا يا صغيري تفضل وتناول طعامك ، فأنت بحاجة إلى الغذاء .. هيا .. لا تخجل فالبيت بيتك .

وبصمت وبدون أن ينبس صعب ببنت شفه مد يده وبدأ يلتهم الطعام يملكه الخجل الشديد حيث قالت أوديت مخاطبة إياه :

– سأقدم لك فيما بعد كساءً جميلا .

وبدأ الحديث يسترسل بأول خيوطه بينهما بين استفسار وجواب . السيدة متسائلة تخاطب الوسيم قائلة :

– من أنت ؟ وأين أهلك ؟ ما اسمك ومن أين تراك قد جئت ؟

أجابها صعب بصوت خافت يملكه حزن عميق قائلاً :

– أنا طفل مبعثر الملامح .. بعثرته الحرب الظالمة وفي اشلائه توغلت وما تاهت .

في هذه الأثناء توقفت السيدة عن تناول لقمة طعام بيدها كان سيفوز بها فمها .. مستغربة متأثرة .. مندهشة على ما قاله لتردف قائلة :

– تابع .. يا صغيري .. تكلم .

وأردف الوسيم قائلاً :

– أما عن أهلي فأي هؤلاء الأهل .. لا أهل لي .. لقد ذهبوا و ولت السنين معهم .

وران الصمت فجاءت تنهيدة قصيرة .. لن تطول .. ثم أردف القول من جديد :

– وأما عن اسمي فقد جاء يوماً من بيتي المدمَّر الواقف على أكتاف مدينتي ركاماً في حضن الأحراش .. من هناك .. جاء .. من حيث ذات مرة كنت قد ظلمت وسحقت وقتلت .

فأنا الصغير ذلك الذي ينتمي إليه الزمان الصعب .. فاسمي صعب يا سيدتي .

« .. ماذا .. صعب .. صعب » كذلك ، قالت أوديت بتعجب .

صعب : اسم غريب .. وليس جميلاً ولكني أحبه كثيراً .

أوديت : لا .. لا تقل هذا فاسمك جميل جدا ولكني تذكرت فيه الشيخ الطيب .
صعب : ومن يكون ذلك الشيخ ؟
أدويت : انه عامل التنظيفات في الدير الذي كنت أعمل به منذ سنين .. إنه شيخ الزبالين .

وكالبركان انتفض الوسيم مذعوراً .. قائلاً بشغف شديد :
– أتعرفين أين هو الآن ؟
أوديت مستغربة قالت :
– وما بالك تبدو كالمذعور .
صعب وبلهفة قال راجياً :
– أتعرفين أين هو الآن ؟
أوديت : وهل يخصك الشيخ .
صعب : بفرح وحزن معاً قال :
– أنه أبي .. أبي الذي ما عاد منذ ذلك اليوم .

أوديت وبعد أن ملكها الذهول قليلاً قالت تخاطبه وهو ما زال يحدق بعينيها وينتظر أن تنطق :
– إذن أنت الصغير الذي شرب في مكتبى عصيره الليمون .. ياه .. لقد خانتني الذاكرة . وعلى الفور ضمته إلى صدرها فأجهش الصغير بالبكاء .

ومن جديد قال مستفسراً برجاء خائف :
– هل تعرفين أين هو الآن .. هل تدليني عليه .

أدويت : « سأبحث لك عنه .. اهدأ قليلا ودعني أفهم منك .. ولكن عليك أن تأكل الآن ثم تدعني أفهم منك ما قد حدث لك على وجه التحديد .. وكف عن البكاء أرجوك » .

وما كف صعب عن البكاء .. لكنه بات الليلة يسرد للسيدة ما قد حدث له وأصابه .. كثير الكلام والشجون معاً .

ومرت تلك الليلة .. ثم تتالت الليالي وتواردت الأسابيع .. وأدويت خلالها جاهدة تبحث هنا .. وهناك عن الشيخ الذي ما عاد .. ولا محال ..

ثم عزمت بعد حين على أن يتعلم الصغير .. ثم ألحقته بالمدرسة الابتدائية الكائنة في المنطقة .. ليدرك ما فاته من تعليم وبيان ، لما أدركت جيداً أن صعب يميل إلى ذلك بشدة ..

وما مرّ يوم إلا وكان اهتمامها البالغ بصعب يكبر ويزداد .. فتهتم بأكله وكسائه وبمتابعة دروسه .. وحتى بأبسط ما يتعلق بأمور تربيته .. وكم مرت عليها ساعات طويلة وهي تمكث إلى جانبه وتلقنه من العلوم ما استطاعت حتى غدا يافعاً .. يافعاً قوياً في مسلكه متفوقاً في مدرسته سعيداً في كنف الرائعة أوديت التي ما عادت بدورها تحيا في وحشة واكتئاب منذ أن احتفت بتربية صعب لكنها كانت تتألم وتخاف كثيراً من أن تداهمها ويلات الحرب فتبتلع سعادتها ويضيع كل شيء .. وويلات الحرب قد ظلت موحشة فتاكة وقاتلة في العمق البارد الملتهب .. وتدرجت الحوادث بعد ذلك في كفن النسيان .

الفصل الحادى عشر

نفس مشتاقة ولهانة ووحده الحنين يظل ذابحها ومسكرها .. تضطرب ببطء ولا تحكي وتتألم كثيراً فتصبر على الوجع ولا تشكو .. وتكاد تنفجر فتحقد على الظّلام ولا تبكي ، لكنها تخضع في لحظة ضعف منسية فتأمر الذاكرة .. تطالبها وتجبرها على العودة إلى أدراجها الأولى ، وبعد أن تخضعها بالقوة قسراً تخضع هي إلى ما تسترسله الذاكرة من صور .والصور تجيء ممسوخة فاترة المنظر ، مسلوخة كعلامة ليفاعة قد طلت حيّة ذات مرة . ثم تتأجج العواطف وتسقط مدارك العقل فجأة فيضطرب الدماغ ، اضطراباً شديداً عندها يزوغ البصر فتجيء الدمعة وكأنها قادمة من بركان .. ملؤها شوق وحنين ومن دون بكاء ..

ويتحرك الجسم متعباً مضن وكأن شيئاً ما يجذبه أو يود اللقاء به .. فتتفق الحواس جميعها على أن يقوم اللقاء بعد عدة لحظات خلالها سيدلف صاحب هذه النفس المعذبة إلى منطقة البيوت المحطمة الواقفة بتمرد المطلة على الأحراش ..

سيدلف بعد لحظات إلى أدراجه الأولى حيث سلبت منه طفولته وضاعت أمه بكل ما كانت قد ملكت لها وله .

ولما دلف فرحاً حزيناً إلى حيث عاشت زهرة ذات مرة وترعرعت طفولته ..

كان ولهاناً مشتاقاً إلى أطلالها .. وها هو قد وجدها ما زالت واقفة ثمارها تالفة وكأنها الحياة .. وبعد أن لف بيديه نصف جذعها وعانقها عناقاً طويلاً خاطبها قائلاً بهمس وخنوع :

يا أنت يا رفيقة .

ها أنا قد عدت إليك بعد كل هذه السنين الحافية .

رفيقتي .. يا أيتها العجوز الشاهدة على مصرع طفولتي الطيبة .

كيف حالكِ .. وكيف حال فاضلتي في ثراها الغالية .

يا رجائي .. يا أيتها الحميمة المنسية ..

هل مازلت تذكرين فيّ بيتنا الممسوح من حياتنا منذ فجر الأذية .

.. فما بالي أراك صامتة شجية .
يا مدركة .. بدئي وميلاد أحزاني الفتية .
أسألك .. هل عاد للديار شيخي .. في زمن خفية .
ما عاد .. ما عاد شيخي .
ومثله ضاعت زهرتي .. لقد تاهت على أعتاب مدينتي .
فآه إليك يا باسقتي ألفظها .. والآه باتت حيرانة تلفظني .
وأنت يا رفيقتي .
بت كئيبة بكماء .. فمن بعدك أحاكيه ليسامرني .
من بعدكِ يطفىء ما في صدري .. من .. من يخمد ناري .
آه شكواي .. ادركت أنكِ تالفةٌ .. تالفةٌ مثلي ..

وشجرة التين العنيدة ما نطقت أبداً . فغادرها الشاب الوسيم متألما كئيباً تجره الخطوات إلى ذلك المكان القريب الذي قام عليه يوماً بيت أبي زهرة .. ولما وصله ما وجد حتى حطامه وركامه .. فجثا على ركبتيه بخشوع الواهنين لثوانٍ معدودات خطفت ذاتها من ذاتها لتفر هاربة من عمر الوقت .. وبعدها جلس القرفصاء طويلاً لتمتد احدى يديه ، وتبعثر من حوله حفنات من التراب .. وجعل كثيراً يحدق في المكان ويتأمله بشدة ليخاطب مثوى أمه الضائع هنا .. قائلاً راجياً بلهجة الرؤوف الناقم :

أماه ..
أماه من قال أني إليك غير مشتاق قد ذبت والله من حنيني وأشواقي
أسألك بعد أن فزت بعهد الصبا .. فهيا اعلميني وعن لغز الزمان كلميني .
أماه ..
من بدل فرحي بكاء .. من ذا الذي اعتقل حياتي وأمات فيّ أشجاني .
من أسكت صوتي وللهلاك الفظيع قد رماني .
من جعلني أصدق أن في حنجرتي صوتاً يكمن فيه نباحي .
أماه ..
من دمّر مملكة وجداني وإحساسي .
من ذا الذي أسقط عرش أحلامي .

أماه ..
أسألك .. بعد أن فزت بعهد شبابي .. فزاد غضبي وتفاقم اضطرابي .
من بعثر .. طفولتي وقطع رأس لساني ..
من بالسكات الموحش مدّني فأسكتني .

من بدل وجه مدينتي .
من هو ذابحي .. وجلادي .

أماه .. من ضيع قصة زهرتي وشيخي ووداي .
أماه .. عذراً لن تضيع بعد اليوم أفراحي وحياتي .
قد انسى بعد حين وأبدل ميلاد الود بميلاد طغياني .
وأصير أنا الولد الطاغي جلاداً سأقوى على جلادي ..
عندها لن أرضى أبداً أن يضيع منك الزمان ويحيا .. مصرعي وكذلك تحيا مأساتي .
قد انسى بعد حين وأبدل ودادي .. وأبدل ودادي .
وبعد ..

سكت سكوتاً طويلاً ثم بدأ يفتش في ذاكرته المزحومة عن حقيقة يودها أن تظهر وتلمع بعد أن طمرتها السنين .. كالذي ينقب في منطقة أثرية مغمورة عن معالم مطمورة تدله على الأمس البعيد .. والذاكرة نشطة للغاية طائعة ومجبرة على العودة إلى أيامها الأولى حيث بدأت .. منذ اللحظة تفرز الصور المختصة في مخزونها بعضها عن بعض لتفوز وتفلح بما أمرت به فأرسلت لصاحبها صوراً التقطتها في ذلك الماضي البعيد القريب فجاءت الصور تباعاً .. مُرةً مَرَةً ومَرَةً مُرَة .

الصورة الأولى .. هي وليدة قد جاءت من ذلك المساء البعيد ..

« بالضبط بعد العشية يوم قرع باب البيت بعدة نقرات خفيفة أذهلت أهله جميعاً هؤلاء الذين كانوا يشكلون نصف حلقة دائرية حول مائدة العشاء .. يومها استغربت زهرة وأمها واندهشت .. فطلّ الضيف ودلف إلى البيت خائفاً مستنجداً .. ولما جلس حول مائدة العشاء طلب الماء .. فناوله إياه صعب قائلاً له : هاك الماء يا عم هاك الماء يا عم » .

أما الصورة الثانية فهي من صباح اليوم التالي ، (يوم جلس أهل البيت بمن فيهم الضيف على مائدة الافطار فقال الضيف يخاطب صعب قائلاً : قبل أن يغادر ويرحل « أما أنت يا صغيري فأتمنى لك أن تذهب إلى المدرسة .. وتأكد أن الزمن القادم سيكون لك .. ولكل أبناء جيلك ، كما أنني لاحظت عليك أنك تود أن تطلع على هذه الأوراق وعلى هذا الكتاب الأخضر .. ولكن ماذا أقول لك وأنت ما تعلمت القراءة والكتابة بعد .. لكنني سأمنحك هذا الكتاب لعله يكون مني إليك ذكرى ولربما تستفيد منه ذات يوم .. هيا .. خذه .. خذه » فأخذه فرحاً) .

والشاب يتذكر .. ويتذكر .

وهذه هي الصورة الثالثة قد جاءت من نفس اليوم « عندما هرع صعب ليقف على رأس التلة القريبة من البيت المطلة على الأحراش ليترقب رحيل الضيف وهو يشق طريقه عبر الأحراش .. ولما اختفى في عمق الأحراش سمع صعب صوت الرصاص الذي أخذ يدوي » .

... وجاءت الصورة الرابعة بدون جهد أو عناء .. لأنها محفورة بقوة في ذاكرة صعب وتقول الصورة ..

" أخرجي وإلا سنهدم البيت فوق رأسك .

أم زهرة : لن أخرج من بيتي أبداً .
أحد الرجال قال مستهزئاً : « ولم لا .. لا تخرجي .. لا تخرجي » ..
في تلك الأثناء انتزع الرجل صعب وأخته من حول أمهما ورماهما خارج البيت وأمر قائد الجرافة بتحطيم البيت ، فسقط البيت وضاعت في أحضانه أمه على مرآة عين الطفولة وهي تبكي وتشكو" .
هذه الصورة .. أوقفت الذاكرة عن الإرسال حيث بدأ الشاب يشكو من آلام في رأسه فقال هامساً يخاطب مثوى أمه ..

.. لنفترق الآن يا حبيبة .. لقد أدركت ما أردت ..
لقد أدركت ما أردت ..
فعهداً إليك أرميه وأقول ..
لن يضيع حقي .. لن يضيع أبداً .

ثم فر عائداً إلى البيت .. وهو يتمتم في سريرته قائلاً :
الضيف .. الكتاب الأخضر ..
الضيف .. الكتاب الأخضر ..
الضيف .. الكتاب الأخضر .. لقد أدركت ما أريد .. لقد أدركت ما أريد .

وفي البيت . ولما جلس برفقة أمه أوديت على مائدة العشاء بدا عليه القلق الشديد .. ذلك القلق أثار الخوف في أعماق مربيته فاضطربت لهذا كثيراً فخاطبته برقة ولين قائلة :
– ما بالك قلق يا ولدي .
أجابها بحماس لم تره فيه من قبل .
– أود أن أعرف هوية ذابحي وجلادي .
أردفت أوديت قائلة باستغراب شديد .
– ماذا .. ماذا .
صعب : – أنا مصر على ذلك فلا تقلقي يا أمي .
أوديت: — أين كنت اليوم طوال النهار .
– لقد زرت رفيقتي .. وزرت مثوى فاضلتي ..
– هدئ من روعك قليلاً وانس ما تفكر به لأن ذابحك هو ذابحي وجلادك هو جلادي .. انها .. الطائفية يا ولدي .
صعب : لا .. لا .. لا .. السر يكمن بالكتاب الأخضر وبهوية ذلك الضيف .
أوديت مندهشة قالت : ماذا الكتاب الأخضر .. ماذا تقصد .. أي كتاب هذا ؟
صعب: ذلك الذي من أجله فقدت أنا كل شيء .
أوديت : أتقصد كتاب القذافي .
صعب: ومن هو القذافي ..

أوديت : أنه مفجر عصر الجماهير.. قائد ثورة الفاتح في ليبيا .

صعب: ماذا عصر الجماهير .. هل تصدقين هذا .

أوديت : انها التجربة .. حقيقة أثبتها القذافي .. فالعصر انبثق فجره فعلاً والزحف قائم ومستمر .

صعب: هل يمكنك أن تصفي لي الكتاب .

أوديت : كتابٌ أخضر انفرد بعلامة مذهبة هي نصف الشمس تقريباً في هذه

ـباب صعبا ذهول ما .. جاءه خاطفاً .. ليتذكر اليوم الذي حصل فيه على الكتاب .. ولما ـذاكرة بوصفه .. تأكد من صحة ما تقوله أوديت فالكتاب قد انفرد باللون الأخضر وبعلامة ـي نصف الشمس تقريباً حيث أخذ يقول بلهفة المستغيث .

ـمي .. ايمكنني أن أعثر على ذلك الكتاب .

ـسامة عريضة قالت أوديت : أظن أنه من السهل عليّ أن أجلبه لك غداً .. بالرغم من ـه ممنوع .. ولكن قل لي ما قصة هذا الكتاب ولماذا كتاب القذافي فجأة .

أجابها صعب قائلاً : لأنه سيعرفني بهوية ذابحي وجلادي .

قائلة : « يا خوفي .. يا خوفي » ثم سكتت .

صعب: وممَ الخوف يا أمي ؟

أوديت : من حماسك هذا .. ومن الغد المخيف .

صعب: اطمئني فالغد لنا .. الغد لنا .. نعم لقد أكد لي الضيف ذلك وأنا أتذكر ما قاله لي قبل رحيله .

أتدرين ما قاله قال : تأكد أن الزمن القادم سيكون لك ولكل أبناء جيلك .

نعم .. نعم يا أمي سيكون الزمن لنا .. لنا جميعاً .

أوديت : بحق الله .. اسرد لي قصة تتعبك بطلها الضيف وسرها يكمن في الأخضر .. هيا .

فبدأ يسرد لها ما حدث له ذات يوم قائلاً :

« ... بالضبط بعد العشية يوم قرع باب بيتنا بعدة نقرات خفيفة أذهلت أهل البيت جميعا .. كنا نشكل نصف حلقة دائرية حول مائدة العشاء .. يومها استغربت زهرة وأمي اندهشت طلّ الضيف ودلف إلى البيت خائفاً مستنجداً .. ولما جلس على مائدة العشاء طلب الماء أنا إبريق الماء .... » .

.. وأوديت قد اندمجت تماماً بما يسرده .. وكم تألمت عليه .. ثم تواردت ساعات تلك . وجاء اليوم التالي وفيه كان صعب ينتظر بفارغ الصبر عودة مربيته التي ستفي بكل تأكيد ـت .. ولما عادت .. بابتسامتها المعروفة مدت يدها وتناولت من حقيبتها الكتاب الأخضر الحجم .. فهب الوسيم فرحاً وأخذ الكتاب لتنتابه على الفور موجة من الصمت الطويل .. تلمسه جيداً وتأكد من تلك العلامة الواقفة كنصف دائرة مذهبة تزين وجهه الأخضر .. ، وقال يخاطبها : أنه هو نفس الكتاب الذي أخذته ذات مرة من الضيف

أنه هو نفس الكتاب .. فشكراً لك يا أمي .. شكراً لك يا أمي .

فابتسمت المربية وانصرفت إلى غرفتها لتبدل ثيابها .. وانصرف الوسيم بكل ما ملك لقراءة ذلك الكتاب .

واستغرق في طياته .. طويلاً لمر الوقت خفية فيبتلع النهار ويغرق في كنف الليل فتغرق برفقته بيروت المذبوحة وكذلك أوديت .. ولا يغرق العنيد الذي ما زال مستغرقاً في طيات الكتاب الأخضر يبحث فيه عن هوية الطغيان ليسقطه بعد حين .

فها هو الشاب يستغرب ويتعجب ويتألم فيتمتع .. وعلام هذا الخليط .. علام هذا الخليط !!

فهل هناك في الأعماق الإنسانية علاقة وطيدة بين المتعة والاستغراب.. هل المسافة قريبة بين الألم والتعجب .. عدة تساؤلات حضرته وهو يتابع القراءة ويغوص فيما وراء السطور ليجيء النعاس مداهماً ومسعفاً للبصر والدماغ فيستسلم الجسم للنوم بعد أن تكون قد احترقت الأعصاب ..

وثورة الوقت تتقدم لتبتلع عمر الأشياء فتبدل الألوان بألوان كما يروق لها .. وكما هي ترغب ما دامت هي سيدة الانتصار وصاحبة القرار .. وفجأة يشع الفجر في صدر الوجود يود أن يناحرها ويتعبها بعد أن أسقطت سلطان السحر .. ورويداً .. رويداً تتقدم فتحرق كل ألوانه وتدحره دحراً ثم يطل الضحى خائفاً مستسلماً فتعصف فيه وتقف مبهورة حائرة وخائفة أمام يقظة الصبح التي تحالفت وتكاتفت مع يقظة الشمس ويقظة النهار والناس وبيروت نائمة في سبات عميق ..

وها هو ذا قد استيقظ الوسيم باكراً وكذلك أوديت والحديث على مائدة الافطار الذي بدا يقظاناً متفتحاً ذا آفاق بعيدة وواسعة الرحاب .

« أعتقد أنك قد تمتعت بالفكر الأخضر .. أو على الأقل غرفت منه ما كفاك لليلة أمس » .. كذلك قالت أوديت للوسيم بعد أن لاحظت انتفاخاً بسيطاً حول عينيه .

فأجابها قائلاً :

– لقد استمتعت فعلاً بما جاء في الكتاب .. ولكن ما الذي تقصدينه بأنني قد غرفت منه ما كفاني لليلة أمس .

أوديت قالت : نقطة من بحر .. المسافة بينك وبين الفكر الأخضر فالطريق أمامك طويلة جداً .

صعب : لم أفهم ما تقصدينه .

أوديت قالت :

– يلزمك أن تثابر في القراءة حتى يمكنك أن تفهم كلامي .

صعب : لغز آخر.

أوديت : لا .. لا فالفكر الأخضر لا يعرف الألغاز وكل ما أريده هو أن تدرك جيداً أنك تتعامل مع فكر إنساني جديد ويلزمك أن تبحر في أغواره جيداً لتكون ماهراً وتستطيع أن تصل إلى ما تصبو إليه .

– للوهلة الأولى أعجبني الكتاب كثيراً .

– الاعجاب وحده لا يكفي .. بل عليك أن تدعم هذا الاعجاب بالاجتهاد والتأمل وأن تبحث

في الأصول .

– لا أفهمك يا أمي .

– ألم تقرأ في «الكتاب الأخضر» حل مشكلة الديمقراطية .

– نعم لقد قرأت ذلك فالكتاب قد خصص لهذا فصلاً كاملاً .

– ألم تقرأ في الكتاب حل المشكل الاقتصادي .

– نعم لقد قرأت ذلك .

– وهل قرأت ما يخص الركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثانية .

– لا .. ما قرأت هذا فلقد توقفت عن القراءة عندما انتهيت من قراءة الفصل الثاني .

– إذاً دعنا نتناقش فيما قرأت .

– لنتناقش .

– الا توافقني ان قلت أن ما جاء به الكتاب هو البلسم الشافي لجرح الإنسانية .

– لا يمكنني أن أجزم بهذا الآن .

– ولماذا ؟

– لكي أجيب عن هذا الموضع يلزمني أن أتمعن بالتفاصيل أكثر .. وأنا ما أتممت قراءة الكتاب بعد .

– كما تشاء .. ولكن .. ولكن يحضر ببالي سؤال .

– تفضلي واسالي .

– ما دمت قد قرأت الفصل الأول والفصل الثاني من الكتاب فماذا فهمت من هذين الفصلين .
وأوضح أكثر فأقول لقد مرت عليك في الفصل الأول قواعد أساسية.لحل مشكلة الديمقراطية ..
وسأتلو عليك تلك القواعد على سبيل التذكير لا الحصر .

أ – لا نيابة عن الشعب والتمثيل تدجيل .

ب –المجلس النيابي حكم غيابي .

جـ –المجالس النيابية تزييف للديمقراطية .

د –الحزبية اجهاض للديمقراطية .

هـ –من تحزب خان .

و –لا ديمقراطية بدون مؤتمرات شعبية وغيرها ..

وأعود لصلب السؤال وأقول .. ماذا فهمت من كل هذا؟

وبدون ارتباك قال صعب :

– لقد فهمت كل شيء أو على الأقل فهمت ما قرأت .

أوديت : جواب لا يكفي وضح أكثر .

صعب : عندما قلتُ لكِ للوهلة الأولى أنني قد أعجبت بالكتاب كان موضع اعجابي بهذا الخصوص أن الكتاب الأخضر سلس للغاية وليس فيه علامات استفهام .. فالطرح واضح العرض مقنع وان وجد سؤال فالجواب عليه موجود وما دام هو أصلاً قد جاء لفك الألغاز وحل

المشاكل فمن الطبيعي أن لكل قاعدة فيه جوابا وهذه براعة انفرد بها صاحبه المؤلف .. ولم ألحظها في مؤلفات كثيرة كنت قد قرأتها فيما سبق .

فابتسمت أوديت .. ابتسامة عريضة .

ثم أردف صعب قائلاً :

ما تلوتِ عليّ من برهة قواعد بارزة في الفصل الأول الخاص بحل مشكلة الديمقراطية .. وعلى التوالى أقول :

فيما يخص تلك القواعد (أ) لا نيابة عن الشعب والتمثيل تدجيل .. قاعدة ولها تفسيرها وتفسيرها يكمن في أن الديمقراطية تعني سلطة الشعب لا سلطة نائبة عنه ومجرد وجود مجلس نيابي معناه غياب الشعب وهذا جواب الكتاب الأخضر .

وفيما يخص (ب) .. القائلة بأن المجلس النيابي حكم غيابي .. هذه قاعدة بارزة في الفصل وتفسيرها يقول :

« أصبحت المجالس النيابية حاجزاً شرعياً بين الشعوب وممارسة السلطة حيث عزلت الجماهير عن ممارسة السياسة واحتكرت السيادة لنفسها نيابة عنها ولم يبق للشعوب إلا ذلك المظهر الزائف للديمقراطية المتمثل في الوقوف في صفوف طويلة لوضع أوراق التصويت في صناديق الانتخابات » .

أما فيما يخص (جـ) .. القائلة أن المجالس النيابية تزييف للديمقراطية .. وفي هذا الموضع يقول الكتاب الأخضر .. « ولكي نعري المجلس النيابي لتظهر حقيقته علينا أن نبحث من أين يأتي هذا المجلس فهو إما منتخب من خلال دوائر انتخابية أو من خلال حزب أو ائتلاف أحزاب وإما بالتعيين وكل هذه الطرق ليست بطرق ديمقراطية ، إذ أن تقسيم السكان إلى دوائر انتخابية يعني أن العضو النيابي الواحد ينوب عن آلاف أو مئات الآلاف أو الملايين من الشعب حسب عدد السكان ويعني أن النائب لا تربطه أي صلة تنظيمية شعبية بالناخبين إذ يعتبر نائباً عن كل الشعب كبقية النواب . هذا ما تقتضيه الديمقراطية التقليدية السائدة ومن هنا تنفصل الجماهير نهائياً عن النائب وينفصل النائب نهائياً عن الجماهير وبمجرد حصوله على أصواتها يصبح المحتكر لسيادتها والنائب عنها في تصريف أمورها .. وهكذا نرى أن الديمقراطية التقليدية السائدة في العالم الآن تخلع القداسة والحصانة على عضو المجلس النيابي بينما لا تقر ذلك بالنسبة لأفراد الشعب ومعنى هذا أن المجالس النيابية أصبحت أداة لسلب السلطة الشعبية واحتكارها لنفسها ، وأصبح من حق الشعوب اليوم أن تكافح من خلال الثورة الشعبية . »

ثم قاطعته أوديت قائلة بصوت عالٍ :

ذاكرة .. حافظة لكنها مذهلة .. مذهلة ..

تابع يا صعب .. فتابع صعب قائلاً :

وفيما يخص النقطة (د) . القائلة : « الحزبية أجهاض للديمقراطية » .. يقول الكتاب الأخضر : « .. فالحزب ليس أداة ديمقراطية على الإطلاق لأنه يتكون إما من ذوي المصالح الواحدة أو الثقافة الواحدة .. أو المكان الواحد .. أو العقيدة الواحدة .. هؤلاء يكونون الحزب لتحقيق مصالحهم أو فرض رؤيتهم أو بسط سلطان عقيدتهم على المجتمع ككل ، وهدفهم السلطة باسم تنفيذ

برنامجهم .. ولا يجوز ديمقراطياً أن يحكم أي من هؤلاء كل الشعب الذي يتكون من العديد من المصالح والآراء والأمزجة والأماكن والعقائد .. فالحزب أداة حكم دكتاتورية تمكن أصحاب الرؤية الواحدة أو المصلحة الواحدة من حكم الشعب بأكمله .. أي شعب والحزب هو الأقلية بالنسبة للشعب .. إن الغرض من تكوين الحزب هو خلق أداة لحكم الشعب أي حكم الذين خارج الحزب بواسطة الحزب .. » .

وفيما يخص (و) .. أقول .. فقال : وقال .. وقال ثم توقف جريان الحديث عندما قرع باب البيت .. وهرعت أوديت لتفتحه .

ولما فتحت الباب طلّ رجل تألفه أوديت كثيراً .. هو مندوب جمع الضريبة حيث خاطبته قائلة :

الضريبة .. الضريبة مرة أخرى .. ثم ابتسمت طويلاً وأردفت تقول :

– هيا تفضل .. تفضل ..

فدلف الرجل إلى البيت ولما جلس على اريكة عريضة تصدرت غرفة الضيوف تناول من حقيبته المملوءة بالأضابير والأوراق الخاصة بالحزب الحاكم في المنطقة بضعة أوراق ثم قال :

ستدفعين .. خمسة آلاف ليرة .

أوديت مدهوشة قالت : ماذا خمسة آلاف ليرة .. ولكن لماذا كل هذا المبلغ .

الرجل ضاحكاً قال يخاطبها :

سأتلو عليك .. وأبين لكِ لماذا هذا المبلغ .

أولاً .. ألف وخمسمائة ليرة ضريبة هاتف .. ويجب أن تدفع فوراً .

أوديت : مهلاً .. مهلاً .. ألا تدري أن الخطوط مقطوعة منذ عام وأكثر .

الرجل : أدري ولكن عليك أن تدفعيها .

أوديت : وماذا أيضاً .

أردف الرجل يقول : ألف ليرة ضريبة التلفاز .. وألفا أخرى للعقار الذي وخمسمائة ليرة مخالفة .

أوديت : مخالفة على ماذا .

الرجل : أهل المبنى .. وأهل الحي يستعملون الماء في النهار .

ضحكت أوديت طويلاً ثم قالت .. ومتى يرى حزبكم الوقت المناسب لاستعمال الماء ؟

الرجل : ستدفعين المبلغ .

أوديت : بكل تأكيد .. بكل تأكيد وهل يمكنني أن أتأخر على سعادتكم .. لحظة سأتيك بالمبلغ .

وهرعت إلى غرفة نومها .. وتناولت من خزانتها المبلغ المطلوب .. ولما عادت للرجل أعطته المبلغ فانصرف .. ضاحكاً مستهزئاً ولكن علام ؟ لا أدري !!

في تلك الأثناء كان صعب يسمع حديث أمه مع الرجل .. وبعد انصراف الرجل جلس

على مقربة من أمه ليسألها مستفسراً .

لماذا دفعتِ المبلغ ؟

أجابته قائلة : ليكفونا شرهم .. ولكن ما علاقتكَ أنت بهذا ألم أقل لك من قبل أنني أودك أن تشغل بالك بشيء يفيدك وأن لا تهتم بمثل هذه التفاهات ..

صعب : لا .. هذه ليست بتفاهات .. انهم يمتصون دمنا .

أوديت راجية : لا تهتم بهذا يا ولدي .. دعك من هذا أرجوك .

صعب : كما تشائين يا أمي .

أوديت : أيمكننا متابعة النقاش .

صعب : ألاحظ أنك ، تهتمين كثيراً بالكتاب الأخضر .

أوديت : وهل أنت لا ترغب في ذلك .

صعب : لا أقصد هذا .. ولكن .. ثم سكت .

- .. « ولكن ماذا » كذلك قالت أوديت .

أجابها صعب : سنتابع النقاش .

أوديت : - تفضل .. هيا ابدأ .

- صفوة القول في أن لكل قاعدة أساس والأساس هو ذلك الحل الأسلم .
- ولماذا تجزم بأنه هو الحل الأسلم .
- لو لم يكن هنا في بيروت أية مواقع ومواضع للأحزاب .. فكيف ستكون حالنا .
- بخير .
- إذاً صدقت القاعدة القائلة : « من تحزب خان » .. وهذه بدورها قاعدة ونتيجة وحل .
- ولكن بلادنا قد عرفت أحزاباً شريفة ومناضلة كحزب البعث العربى الاشتراكى فى سوريا .
- تتكلم وكأنك سياسي .
- أتمنى أن لا أكون يوماً سياسيا .
- ولماذا ؟
- لانني سأكون شريفاً .
- وما المانع ..
- الشريف يقتل .
- إذاً لا ديمقراطية في بلادنا .
- من المؤكد أنه لا ديمقراطية في بلادنا .
- هل وجدت الحل في الكتاب الأخضر ؟
- مبدئياً يمكنني القول .. أن الحل يكمن في الكتاب الأخضر ولكن متى تضيق المسافة بينه

وبين واقعنا .. الا تلاحظين أن المسافة طويلة جداً .
– لا .. لا .. فالفجر قادم .
– أي فجر ذلك الذي تقصدين ؟
– فجر الجماهير .
– ألا ألاحظ أنك تتعاطفين كثيراً مع الفكر الأخضر .
– أنا اتعاطف مع كل ما هو إنساني .. أليسَت العاطفة ثروة كامنة في أعماقنا أو في العمق الإنساني ذاته .
– وهل ظلت للعواطف مكانة !!
– نعم .. العواطف ستظل موجودة ما دامت الإنسانية موجودة ولن تغيب .
– الإنسانية .. أخذت مني كل شيء أمي .. وأبي .. وأختي وحتى طفولتي .
– لا .. الذي أخذ منك كل هذا هو الطغيان .
– إذن ذابحي هو الطغيان .
– نعم .. انه الطغيان .
– وأين أجده.. أين يمكنني أن أعثر عليه .
– هو الذي يرفض أن نكون شركاء لا أجراء .. ويرفض القاعدة القائلة: في الحاجة تكمن الحرية ويرفض أن يكون البيت لساكنه .. الطغيان هو الذي انتزع منكَ كل شيء وطردك من بيتك .. فهدم أحلام طفولتك .. الطغيان هو الذي يذبحنا كل يوم ألف مرة .. وألف مرة ويرغمنا على دفع الضرائب .
– أفهم من ذلك أنه يقف في وجه انتشار الفكر الأخضر .
– بالطبع .. بكل تأكيد ..
– لقد أدركت ذابحي .. لقد أدركت ذابحي ..
– ما دمت قد أدركت ذابحك .. ألا تود أن تنتقم لأمك وأختك وأبيك .
– بكل تأكيد .
– ولكن كيف ؟
– سأنتظر ..
– وماذا ستنتظر ؟
– انتظر الساعة أن تضيق بيننا المسافة .
– الانتظار مر .
– لن أبالي بالمرارة أبداً فلقد ذقت كل أصنافها .
– ولوحدك .
– لوحدي .
– لن تنتصر .. ستطحن طحناً .
– لن أستسلم .

- يمكنك أن تنتصر .
- بت لا أفهم كلامك .. لن أنتصر .. سأطحن طحناً .. يمكنك أن تنتصر .. بت لا أفهم كلامكِ .
- بالانتماء .. والدعم والقوة ستنتصر .
- وضحي أكثر .
- أنت تعيش في أمة والأمة مظلومة وكذلك شعوبها مازالت تشكو وتتألم فكن قومياً .. ثم كن أممياً عندها ستفوز بالانتصار .
- كان شيخي يحب عبد الناصر وكذلك فاضلتي .
- كلنا نحب عبد الناصر ونعشق فكره .. وبعده لنا في الأصقاع العربية خليفة .
- من هو ؟
- مفجر عصر الجماهير .
- وكيف يمكنني أن أعرف عنه شيئاً .
- كتابه بين يديك .. فتابعه جيداً وتمعن بتفاصيله سيدلك على ما تفعله فيما بعد .
- لقد أتعبتك معي يا أمي .
- كم أتمنى أن أراك منتصراً .
- سأنتصر .
- سأدعك الآن لتفوز بقراءة الفصل الثالث من كتابك .
- ولماذا كتابي .. لماذا لا تقولين الكتاب الأخضر .
- لأنني أثق تماما أنه كتابك .

ثم هرعت مسرعة لتبدل ثيابها وتغادر البيتُ قاصدة مقر عملها ..

وانهمك صعب من جديد في متابعة قراءة الكتاب الأخضر .. ولما وصل في القراءة على مشارف الصفحة ذات الرقم مائة وخمسة وثلاثين توقف عندها قليلاً لأنها احتفت بالحديث عن الأمة .. فخطفه الذهول وتذكر ما قالته له أمه :

- أنت تعيش في أمة والأمة مظلومة وكذلك شعوبها ما زالت تشكو وتتألم فكن قومياً ثم كن أممياً عندها ستفوز بالانتصار .

وكلمة الانتصار بذاتها تبعث في نفسه نشوة غريبة لا أدركها أنا .. وفي هذا الموضع من الكتاب لجأ الوسيم لأسلوب في القراءة لا يعتمده إلا في الأوقات الحرجة عندما يحاول أن يركز بشدة وعندما يشعر أن شروداً ما قد يطارده فيخطفه الذهول أثناء القراءة فيتخلص من هذا الشرود .. ومن ذاك الذهول بمجرد أن يقرأ بصوت عالٍ جداً . ذلك الصوت لن يزعج النائمة بيروت لأنها اعتادت على الضجة والشغب في سباتها العميق هذا من جهة ومن جهة أخرى فبيروت العارفة عارفة بما سيقوله الوسيم لكنها سعيدة بأنها ستسمعه من حنجرته وهي خائفة لاهثة .

وعلى مسامع بيروت النائمة أخذ صعب يقرأ بصوت عالٍ في صفحات الكتاب الأخضر ولنسمع معاً ما يقرأ :

قالَ :   الأمة .
الأمة ..

الأمة هي مظلة سياسية قومية للفرد أبعد من المظلة الاجتماعية التي توفرها القبيلة لأفرادها .. والقبيلة هي إفساد القومية فالولاء القبلي يضعف الولاء القومي ويكون على حسابه . مثلما الولاء العائلي يكون على حساب الولاء القبلي فيضعفه كذلك .

والتعصب القومي بقدر ما هو ضروري للأمة هو مهدد للإنسانية .

إن الأمة في المجتمع الدولي هي مثل الأسرة في القبيلة ، فكلما تناحرت عائلات القبيلة الواحدة وتعصبت لنفسها تهددت القبيلة بطبيعة الحال .

مثل أفراد الأسرة الواحدة إذا تناحروا وتعصب كل فرد لذاته تهددت الأسرة . وإذا تناحرت قبائل الأمة وتعصبت كل قبيلة لنفسها تهددت تلك الأمة ، والتعصب القومي واستخدام القوة القومية ضد الأمم غير القوية أو التقدم القومي نتيجة استحواذ ما لأمة أخرى هو شر وضار للإنسانية . ومع هذا فالفرد القوي والمحترم لذاته والمدرك لمسئولياته الفردية مهم ونافع للأسرة .

والأسرة المحترمة والقوية المدركة لأهميتها مفيدة اجتماعياً ومادياً للقبيلة . والأمة المتقدمة والمنتجة والمتحضرة مفيدة للعالم كله والبناء السياسي والقومي إذا نزل إلى المستوى الاجتماعي ، أي المستوى العائلي والقبلي وتفاعل معه وأخذ اعتباراته.

بما أن الأمة عبارة عن أسرة كبيرة بعد أن مرت بمرحلة القبيلة وتعدد القبائل المتفرعة من أصل واحد .. وكذلك المنتمية إلى ذلك الأصل انتماء مصيرياً .. والأسرة لا تصير أمة إلا بعد مرورها بمراحل القبيلة وتفرعها ومرحلة الانتماء نتيجة الاختلاط المختلف وذلك يتحقق حتماً إجتماعياً بعد زمن لا يمكن ألا أن يكون طويلاً . ومع هذا فإن طول الزمن كما ينشئ أمماً جديدة يساعد على تفتيت أمم قديمة ، ولكن الأصل الواحد والانتماء المصيري هما الأساسان التاريخيان لأي أمة .. ويبقى الأصل في المرتبة الأولى والانتماء في المرتبة الثانية فالأمة ليست أصلاً فقط ، حتى وإن كان الأصل هو أساسها ومنشأها ، ولكن الأمة علاوة على ذلك هي تراكمات تاريخية بشرية تجعل مجموعة من الناس تعيش على رقعة واحدة في الأرض .. وتضع تاريخاً واحداً .. ويتكون لها تراث واحد .

وتصبح تواجه مصيراً واحداً .. وهكذا فالأمة بغض النظر عن وحدة الدم هي في النهاية انتماء ومصير .

ولكن لماذا شهدت خريطة الأرض دولاً عظمى ثم اختفت وظهرت على خريطتها دول أخرى والعكس ، هل السبب سياسي وعلاقة له بالركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثالثة ، أم السبب اجتماعي ويخص هذا الفصل في الكتاب الأخضر ؟

لنرى :

لا خلاف على أن الأسرة تكوين اجتماعي وليس سياسياً .. والقبيلة كذلك ؟ لأنها أسرة توالدت وتكاثرت فأصبحت أسراً عديدة .. والأمة هي القبيلة بعد أن كبرت وتعددت أفخاذها وبطونها وتحولت إلى عشائر ثم قبائل فالأمة أيضاً تكوين اجتماعي علاقته (القومية) .. والقبيلة تكوين اجتماعي

علاقته (القبيلة) .. والأسرة تكوين اجتماعي علاقته (الأسرية) . وأم العالم تكوين اجتماعي علاقته (الإنسانية) .

هذه بديهيات .. ثم هناك تكوين سياسي يكون الدولة هو الذي يشكل خريطة العالم السياسية .. ولكن لماذا تتغير خريطة العالم من عصر إلى آخر ؟ السبب هو أن التكوين السياسي هذا قد يكون منطبقاً على التكوين الاجتماعي وقد لا يكون كذلك . فعند انطباقه على الأمة الواحدة يدوم ولا يتغير وإذا تغير نتيجة استعمار خارجي أو تدني يعود للظهور مرة أخرى تحت شعار الكفاح القومي أو النهوض القومي أو الوحدة القومية أما إذا كان التكوين السياسي يجمع أكثر من أمة فإن خريطته تتمزق من جراء استقلال كل أمة تحت شعار قوميتها وهكذا تمزقت خريطة الامبراطوريات التي شهدها العالم لأنها تجمع عدة أمم ما تلبث حتى تتعصب كل أمة لقوميتها وتطلب الاستقلال فتتمزق الامبراطورية السياسية لتعود مكوناتها إلى أصولها الاجتماعية ، والدليل واضح تمام الوضوح فى تاريخ العالم إذا راجعناه في كل عصر من عصوره .. ولكن لماذا تتكون تلك الأمبراطوريات من أمم مختلفة ؟ .. الجواب هو أن تكوين الدولة ليس تكويناً اجتماعياً فقط كالأسرة والقبيلة والأمة .. فالدولة كيان سياسي تخلقه عدة عوامل أبسطها وأولها القومية . فالدولة القومية هي الشكل السياسي الوحيد المنسجم مع التكوين الاجتماعى الطبيعى ، وهي التي يدوم بقاؤها ما لم تتعرض لطغيان قومية أخرى أقوى منها ، أو أن يتأثر تكوينها السياسي كدولة بتكوينها الاجتماعي كقبائل وعشائر وأسر . فلو خضع التكوين السياسي للتكوين الاجتماعي العائلي والقبلي أو الطائفي وأخذ اعتباراته لفسد . أما العوامل الأخرى لتكوين الدولة غير الدولة البسيطة الدولة القومية ، هي عوامل دينية واقتصادية وعسكرية .

فالدين الواحد قد يكون دولة من عدة قوميات .. والضرورة الاقتصادية كذلك والفتوحات العسكرية أيضاً .. وهكذا يشهد العالم في عصر ما تلك الدولة أو الامبراطورية ، ثم يراها قد اختفت في عصر آخر .. فعندما تظهر الروح القومية أقوى من الروح الدينية ، ويشتد الصراع بين القوميات المختلفة التي يجمعها دين واحد مثلاً فتستقل كل أمة راجعة لتكوينها الاجتماعي فتختفي تلك الامبراطورية .. ثم يأتي الدور الديني مرة أخرى عندما تظهر الروح الدينية أقوى من الروح القومية فتتحد القوميات المختلفة تحت علم الدين الواحد .. حتى يأتي الدور القومي مرة أخرى وهكذا .

فكل الدول المكونة من قوميات مختلفة بسبب ديني أو اقتصادي أو عسكري أو عقائدي وضعي سوف يمزقها الصراع القومي حتى تستقل كل قومية .. أي ينتصر حتماً العامل الاجتماعي على العامل السياسي .

وهكذا بالرغم من الضرورات السياسية التي تحتم قيام الدولة ، إلا أن أساس حياة الأفراد هو الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة إلى الإنسانية فالعامل الأساسي هو العامل الاجتماعي وهو الثابت .. أي القومية فيجب التركيز على الحقيقة الاجتماعية والعناية بالأسرة ليظهر الإنسان السوي المربي ، ثم القبيلة كمظلة اجتماعية ومدرسة اجتماعية طبيعية تربي الإنسان اجتماعيا فيما فوق الأسرة ثم الأمة ، إذ أن الفرد لا يعرف قيمة القيم الاجتماعية إلا من الأسرة والقبيلة ، وهما التكوين الاجتماعي الطبيعي الذي لا دخل لأحد في صنعه العناية بالأسرة من أجل الفرد والأمة . أي القومية فالعامل الاجتماعي هو

المحرك الحقيقي والدائم للتاريخ (أي العامل القومي) .

ان تجاهل الرابطة القومية للجماعات البشرية ، وبناء نظام سياسي متعارض مع الوضع الاجتماعي هو بناء مؤقت سيتهدم بحركة العامل الاجتماعي لتلك الجماعات . أي الحركة القومية لكل أمة . تلك كلها حقائق معطية أصلاً في حياة الإنسان ، وليست تصورات اجتهادية ، وعلى كل فرد في العالم أن يعيها ويعمل وهو مدرك لها حتى يكون عمله صالحا أي من الضروري معرفة هذه الحقائق الثابتة حتى لا يقع انحراف وخلل وإفساد لحياة الجماعات البشرية نتيجة عدم فهم واحترام هذه الأصول للحياة الإنسانية » .

ثم توقف عن القراءة فخمد الصوت وضاع عن مسامع النائمة .. حيث أخذ صعب يقول في سريرته بدهش شديد :

– لقد صدقت يا أمي .

– لقد صدقت يا أمي عندما قلت لي أن الاعجاب وحده لا يكفي وعليّ أن أدعمه بالاجتهاد والتأمل وأن أبحث في الأصول .. وبعدها أغلق الكتاب على أن يعود إليه فيما بعد .

وبينما كانت الآمال تتوارد في نفسه المشتاقة للنصر البعيد كأطياف المنى ، خطا باتجاه احدى نوافذ البيت المطلة مباشرة على شارع مغلق يسكنه سعادة رئيس الحزب وجماعاته المسلحة .. حيث أخذ يتابع بعينيه الواهنتين ما يجري في هذا الشارع المسلوخ تماما عن الشوارع والحارات المجاورة له ، فلقد أغلق قسراً منذ زمن ومنعت الناس من المرور فيه .. وحتى الكلاب والقطط والفئران ، إلا أن بعض الفئران البشرية التابعة للحزب ذاته تسرح فيه وتمرح ولا تبالي بالقاطنين أبداً .. بل أنها تتمرد عليهم فتنتهك أعرافهم وتقاليدهم وتسرق أغلى ما عندهم كما أنها تجهضهم بالضرائب ووحدها الإتاوات تتخذ لها في أعرافهم آلاف الأشكال والعين واهنة تتابع ما يجري .

ها هم رجال الحزب يتراكضون من اليمين إلى الشمال .. فيتبين لناظرهم للوهلة الأولى ، أنهم خائفون مذعورون ولكن مم الخوف ؟

ها هم قد انتشروا في الشارع انتشارا مهيباً يحملون بأيديهم بنادق مختلفة وكل ما فيهم يرتبك .. لقد أكدت تحركاتهم .. وتنقلاتهم من اليمين إلى الشمال .. ومن الامام إلى الوراء .. وهناك في العرض .. وعلى طول الشارع أنهم مرتبكون ارتباكاً شديداً .. ثم فجأة حضرت إلى الشارع ثلاث سيارات من نوع رانج روفر تقل رجالات مسلحين .. امتدت بنادقهم من النوافذ في كل الاتجاهات .. إلى الأمام وكذلك إلى الخلف .. إلى الشرق والغرب .. إلى الجنوب والشمال .. لتتوقف فجأة أمام ذاك المبنى الضخم الذي تتصدر مشارفه الحواجز الرملية والمتاريس .. والبراميل المعبأة بالرمال . ثم تلفظ السيارات من فيها بارتباك شديد ، ليقفوا جميعهم كالمسامير على الجدران كل منهم على حده في مكانه المخصص له .. وعين الوسيم ما زالت تترقب بشدة ما يجري في الشارع .

وها هي قد حضرت السيارة الفخمة الضخمة تلك التي لا يمكن للرصاص أن يخترقها .. ولا يمكن أن تؤثر فيها ضربة (آربي جي) لو قصدتها طائشة أو مرسومة .. لتتوقف الفخمة الضخمة أمام مشارف ذلك المبنى الضخم .. وما أن مرت لحظات .. حتى حضرت ثلاث سيارات أخرى

(ولكنها مصفحة) دون أن تقذف بمن تقله وتوقفت الواحدة تلو الأخرى وراء الفخمة الضخمة .

وظهر فجأة رجل يحمل بيديه جهازاً صغيراً وبدأ يضعه على بعد أمتار في اتجاهات مختلفة من السيارة الفخمة الضخمة ليرفع يديه عالياً .. ثم يخفضها .. وهذه علامة تؤكد على أن السيارة سالمة .. من أية شائبة .. وقد تسألني عن الشوائب فأقول في لبنان العجائب حرب الاغتيالات السياسية قائمة وتفخيخ السيارات ذات الصفات المتميزة بات أمراً تهابه الأحزاب ورجالاتها إلى أن وصل الحذر في مثل هذه المسائل إلى أرقى مستوياته على الاطلاق .

.. وأخيراً ظهر سيد الغليون تغمره هالة من الفزع الرهيب وكأن الأرض تود أن تبتلعه وليتها تفعل .. لتقله الضخمة الفخمة وتفر به بسرعة مذهلة تود أن تسابق سرعة الضوء .. وتتبعها السيارات الثلاث بعد أن سبقتها الأخريات .

ويخلو الشارع من الحركة .. فيغادر الوسيم النافذة مندهشاً مذهولاً .. وهو يقول في سريرته :

كل ذلك من أجل سيد الغليون .. شيء مذهل .

ثم .. دخل إلى مطبخ البيت ليعد لنفسه كأساً من الشاي .. ليجلس بعد ذلك ويتابع الغوص في بحر الفكر الأخضر ويستغرق في طيات الكتاب الأخضر بدون أن تسمعه النائمة لأن ما قد رآه قبل قليل عبر النافذة دفع في نفسه الحذر والخوف معاً .

ومرت ساعات النهار .. ثم تواردت بعض ساعات من الليل والوسيم منتظر عودة أمه .. وها هي قد عادت متأخرة ليخاطبها قائلاً بلهجة عصبية .

– لماذا تأخرت ؟

أجابته الأم قائلة : دعني استريح قليلا .. سأخبرك فيما بعد .

أردف الوسيم يقول : لقد شعرت بالخوف عليك .. فليل بيروت مليء بالأذى والمتاعب .

أوديت : كم أحبك .. كم أحبك .. ثم ابتسمت فابتسم الوسيم أيضاً وبعدها فرت إلى غرفة نومها لتبدل ثيابها .. ثم عزمت على أن تعد وجبة طعام العشاء .. ففعلت .

وعلى مائدة العشاء جلست برفقة الوسيم تغمرها سعادة لا حدود لها . حيث بدأ الحديث عتاباً .. ثم ملامة واللوم ما ظلّ ابداً .. لقد بعثرته المحبة مثلما كانت الأيادي تبعثر أطباق الطعام ، ثم دخل الحديث أخيراً مكمن الجد وخاض في بحر الفكر .

فقالت أوديت مبتسمة :

– أين وصلت في القراءة ؟

أجابها صعب :

– لقد انتهيت من قراءة الكتاب .

أوديت أردفت تقول :

– ما رأيك بالفصل الثالث .

صعب : – أثار اعجابي حديثه عن الأمة .

– ولماذا الأمة بالذات ؟

– كان العرض مقنعاً للغاية ومدعماً بسلاسة غايتها الإنسان ذاته .

- ما رأيك في حديثه عن المرأة .
- لقد توقفت في هذا الموضع طويلاً .. طويلاً .. ثم تنهد طويلاً .
- ولماذا هذه التنهيدة الطويلة .
- وهل هناك في حياتنا تنهيدات قصيرة .
- ما الذي يتعبك يا عزيزي ؟
- اشعر بأن الكتاب قد أفلح وحرك أشياء كثيرة كامنة في نفسي منذ زمن .
- للخير أليس كذلك .
- لا أدري ولكنني أقول أن الكتاب الأخضر يستطيع بمهارة أن يحرض قارئه .
- ولم لا .. مادام في ذلك التحريض خير الإنسان .. ولكن كيف وصلت إلى هذا الشعور .
- كل ما في أعماقي يدفعني لأن أحرك شيئاً ما .
- في الوقت المناسب ستتحرك بكل تأكيد .
- ولكن متى يحين ذلك الوقت ؟
- كل شيء في هذا الوجود .. يتقدم .. الزمن ذاته يتقدم وكذلك الزحف الأخضر يتقدم وسيصل إلى ما يصبو إليه ذات يوم .. ولكن قل لي لماذا وأين توقفت في حديثه عن المرأة .

عندئذٍ قال :

عندما قال « .. ان الأمومة وظيفة الانثى وليست وظيفة الذكر ، ولهذا فمن الطبيعي ألا يفصل الأبناء عن الأم .. وأي اجراء لفصل الأبناء عن الأم هو عسف وقهر ودكتاتورية » .

هذا الكلام ذكرني بوحشية من انتزعني من أمي وقتل طفولتي .. ولهذا كنت قد تنهدت طويلاً .

أما فيما يتعلق بصلب السؤال القائل ما هو رأيي في حديثه عن المرأة ففي هذا الصدد أقول :

تبقى قضية مساواة المرأة بالرجل .. قضية مؤجلة لن تنال الحل الا في ظل ذلك العصر البعيد القريب .. أما الآن فهي ما زالت تشكو من تشعب وتعقيدات ولاجدوى من هذا الحديث طالما المسافة بعيدة جدا بين الفكر الأخضر ذاته والواقع الذي تعيشه وتحياه المرأة اليوم في ظل الجمهوريات والممالك البعيدة بمسلكها وآمالها وأهدافها عن الفكر الإسلامي الحق .

ويمكنني القول .. أن الإسلام وقبل الفكر الاخضر قد أوجد الحل لهذه المشكلة القائمة على نزاعات ونزعات ونزوات مختلفة . وغير متقاربة أو متباينة ، ولكن للأسف ما ظلت حضارة الإسلام .. ولو قلنا غير ذلك فنحن نبالي ونغالي لأننا فعلاً قد افتقدنا كل ما يتعلق بتلك الحضارة السامية ولكن عندما نتأمل .. ونقول في ظل عصر الجماهيريات أو عصر الجماهير يمكن أن تجد هذه المشكلة حلاً لها فتتصدر المرأة مكانتها المرموقة في ذلك العصر القادم ، فإذا حصل .. وإذا هنا فجائية بالرغم من أنني أكدت أن العصر قادم .. إذا حصل ذلك ستكون المرأة قد عاودت مجداً قد عرفته في سالف الأزمان عندما حاول الرجل جاهداً أن يتساوى بها في عصر سلطة الأم

في ظل الحضارة الرومانية .. ولكن ذلك المجد لن يتكرر بكل ما كان يعنيه وهو أن تتصدر المرأة ذاتها العصر ويضيع حق الرجل ..

وهنا أقول سنصل في عصر الجماهير إلى الأمور بتكافؤ وتوازن من دون نواقص .. لأن ذلك العصر سيكون فعلاً قد استفاد جدياً من أخطاء العصور بما فيها عصر سلطة الأم .. وعصر الإسلام المقتول .. وسيكون الأقدر على البقاء وعلى أن يعيش طويلاً .. طويلاً .. فإلى أن يحين مجيء ذلك العصر ستبقى مشكلة المرأة متشعبة لا جدوى في حلها وأن أوجد الكتاب الأخضر ذلك الحل البعيد ومر .. في هذا المبحث مرور الكرام » ألا توافقيني بذلك .. ثم سكت .

أدويت : من أين لك كل هذا ؟

صعب : من مكتبتك الفخمة .

أدويت : وماذا أيضاً .

صعب : هذا ما عندي بخصوص ما قرأت .

أدويت : أعتقد بأنك قد تعبت .

صعب : سأنصرف إلى النوم .

أدويت : كما تشاء .

وانصرف صعب للنوم . فنام طويلاً .. ومثلما فعل فعلت ثم أخذ الزمان يمشي في طريقه المرسوم .. والساعة فيه تلتهم أختها ومثلها الدقائق والثواني وما مرت لحظة من عمر بيروت إلا وسُرقت منها جثة أو كفن أو سرقت ذاتها صوتاً من حنجرة ، وبصراً من عين .

وبيروت وحدها المتهمة في قفص الاتهام .

بيروت وحدها الجاني والجريمة .. وما نزحت .. المتهمة .

الفصل الثاني عشر

بالضبط بعد بضعة هنيات من الوقت سيتم اعتقال الألم اعتقالاً لا يدوم .. فالشموع ستشتعل غصباً وكذلك الفرحة ستجيء سيصنعها الألم ذاته ثم ترحل قهراً والأضواء ستكون مبهرة فتنبهر لها القلوب الحزينة وتحيا ليلةً كالطرفة إلى ما بعد السحر .

بعض الناس سيفرحون وهم حزانى .. والبعض الآخر يود أن يبتسم .. ويبتسم ليس من أجل الابتسام فحسب بل لينسى .. وينسى وما يود أن ينساه كثير .

وفريق المتسلطين من الذئاب البشرية أمثال كارو وجوزيف والمعلم زاكي سيكون حريصاً جداً على أن يصطاد ما يريد أن يصطاده بالوقت الذي ستكون للخطة متعتها ونشوتها ، عندما يستسلم للنشوة والمتعة ويشرب الخمر حتى الثمالة ولا يستسلم إليه وبالتالي سيفوز بالطبع بكل ما يريد في مختلف الاتجاهات براً على الأرض وحتى في العمق الإنساني ذاته .. وبحراً في الأغوار الرحبة حيث يوجد الماس ويحيا المرجان .. وجواً في الفراغ حيث المسلك والعبور لتنفيذ العملية ذات الرقم ٦٥٠٠ .. وأكثر من هذا .

وعندما تبدأ رحلة احتراق الشمع .. ورحلة كل شيء مبهر ستعتلي الابتسامة عرشاً لا يدوم .

لتسقط أحلامها في اليوم التالي على الفور .

إذن سيفرح المعذَّبون وكذلك المعذِّبون .

سيفرح الشمع وهو يموت .. وهو يذوب كالذين ما زالوا منذ فجر الأذية هياكلاً أصلهم من أصل البشر يقطنون في الزنزانات الباردة الرطبة غصباً لكنهم ما زالوا يتأملون وينتظرون يوم الخلاص والحرية .. وذلك اليوم الذي ستسقط فيه الأنظمة الفولاذية الورقية الوهمية .

وما أعظم الإنسان في مثل هذه المواضع .. عندما يبقى عنيداً وينتظر ذلك الأمل الآتِ من سراب .. ما أعظم الألم ذاته لو جاء من بعده زمن اللدواء .. وما أدرانا !!

وها هي ذي قد حضرت أخيراً إلى حيز الوجود .. لقد وصلت إلى بيروت في جولة تفقدية ستدوم عدة ساعات .. أنها ليلة الميلاد العظيمة ..

أنها ليلة الميلاد ..

فتعالي لنرافقها رحلتها الطويلة .. الطويلة .. ونفترق عند مطلع الفجر تماماً كي لا تتعبنا لحظة وداع مُرة .

في الساعة الأولى من رحلتها وبعد أن غاص قرص الشمس البرتقالي في عمق البحر .. مرتْ العظيمة بالأحراش فوجدتها حزينة تشكو وتبكي فقالت تخاطبها مستفسرة :

– أيتها الأحراش .. يا رفيقتي منذ الأزل علامّ تنهبين وتشكين ؟

فأجابتها الأحراش قائلة بحزن عميق :

– وكيف لا أشكو وأبكي يا عظيمة .. فالكل في يومك هذا سيفرح ويغني ويمرح إلا أنا وحدي أبكي .. وأبكي على صنوبرات صغيرة قد انتزعها من صلبي سيد الأرض احتفالاً بك .

ثم أردفت ليلة الميلاد تقول :

– أفهم من كلامك هذا أن قصة الانتزاع غصباً ما زالت حيّة وقائمة في أعماق سيد الأرض .

أجابتها الأحراش قائلة :

– نعم .. نعم .. وأكثر من الانتزاع .

ليلة الميلاد : ماذا تقصدين بقولك هذا .

الأحراش : الغدر والنفاق ، البطش والقتل ، السحق والمسح ، كل هذا بات أعمدة ثابتة تقوم عليها حياة سيد الأرض .

ليلة الميلاد وبدهش أبكم قالت :

– يفزعني هذا يا رفيقة الأزل .. ولكن علامّ يبتسم .. ولحضوري يستسلم أيخاف من حضوري ومني .

الأحراش مستهزئة قالت :

– هنا يا عظيمة .. تبدأ قصة الغدر .. هنا تبدأ يا عظيمة قصة الغدر ..

ليلة الميلاد :

– وأين في حضنك الباسقة أما زلت حّية ترزق .

الأحراش :

– باقية حّية ميتة كل ثمارها تالفة .. هي في مكانها واقفة في القلب وأكثر يمكنكِ أن تتفقديها ستفرح بكِ كثيراً .

وما هي إلا لحظات حيث وصلت العظيمة الباسقة تتفقدها .. وعلى الفور قالت تخاطبها :

– كيف حالك أيتها العجوز .

أجابتها الباسقة قائلة :

– أهلاً بكِ يا ليلة الميلاد ها أنت قد جئتِ إليّ بعد غِياب ... وعين الطفولة ما عادت .. ما طلت .

ليلة الميلاد :
– ما بالي أراك حزينة تالفة متعبة .
– كل شيء يغيب ويحترق .. ولكن لماذا الغياب والاحتراق .
– من الذي أتعبك يا عجوز .. أهو الزمان .
– لا .. لا .. انه الغدر الكامن في أعماق البشر ذاتهم وقصة الانتزاع غصباً تلك التي قرأتها في عيون الصغار ذات يوم قبل الغياب .
– الغدر .. الغدر ولكن لماذا .
العجوز : لكي أصير تالفة مثل هذا الزمان التالف .

وبعد ..
غادرت العظيمة .. الشجرة الباسقة ثم غادرت الأحراش المعذبة قاصدةً ذلك الموطن الرهيب الذي صنعته يد الإنسان .
ها هي ليلة الميلاد في طريقها إلى برج المر .
ولما تسللت ودخلت في عمقه إلى أحقر زنزانة وَجَدتْ في حضنها سيد الأرض تالفاً كئيباً ما زال ينتظر ؟!
وعندما وصل إلى مسامعها ما كان يقوله لنفسه وللجدران وللعتمة باستهزاء أدركت تماما أنه لن يراها ولم يرها وما رآها حيث كان يردد ويقول ويكرر فيقول :
« أنت كتائبي » .. ثم يسكت لحظة كاملة وبعدها يهز رأسه إلى الأسفل ويردف فيقول .. « تعترف أنك قمت بتفجير سيارة فخامة رئيس الحزب » . ثم كرة أخرى يسكت لحظة كاملة وبعدها يهز رأسه إلى الأسفل .
ويتابع فيقول : « انكَ تود الموت أليس كذلك .. لن ندعكَ تموت مرة واحدة أيها المجرم »
ثم يسكت لحظات معدودة وبعدها يهز رأسه إلى الأسفل .. وهكذا طوال الوقت ومن جديد ينطق فيقول :
« أنت كتائبي » .. ودون أن يبالي بحضور العظيمة .. عندها أدركت ليلة الميلاد أن تلك الزنزانة الحقيرة قد سلخت قاطنها عن كل شيء .. من كل شيء .. فغادرته على الفور وفرتْ هاربة إلى « دير الصليب » .
وعندما وصلته ودلفت إلى اعماقه وجدته ما زال غاصًّا باللواتي لا يفرقن بين الضحك والبكاء .. ولا يهمهن الألم وكذلك الابتسامة .. فلن تجد العظيمة في الدير أي حضور لها .. ففرتْ هاربة من جديد ..
ولما مرت بكورنيش البحر لتتفقده ما وجدت على أكتافه مقهى « البحر » بعد أن فتشت عليه على امتداد الكورنيش عرضاً وطولاً فقالت تخاطب بيروت تسألها عن حكيم ورفاقه :
– بيروت يا مظلومة .. أين مني رفاق الرغيف وأحاديثهم الطيبة المسكينة ؟ أجابتها بيروت قائلة :

– لقد ذهبوا .. تبعثروا ومنهم من غادرني بعد أن تمزق إرباً .. إرباً . لقد تاهوا عن عيني وحتى عن مسامعي فماتت فيهم ومعهم الأحاديث المسكينة .

وبعد ..

غادرت العظيمة كورنيش البحر وأخذت تشق طريقها إلى بيت حكيم المتعثر ولما وصلته دلفت إليه خلسة فوجدت في عمقه زهرة التي غدت يافعة براقة وجميلة .. لقد كبرت بحكم الطبيعة البشرية .. وها هي تجلس على البساط الصوفي وحولها أهل البيت بمن فيهم العجوز حكيم خاشعة بين يدي الله عزّ وجل .. تقرأ وترتل آيات بينات من سورة مريم من كتاب الله العزيز .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾(1) .

في هذه الأثناء وقفت ليلة الميلاد خاشعة لتتمتع بما تتلوه زهرة اليانعة من كلمات لسامعيها .. ولتتمعن بجمالها ورونقها الاخاذ وهي تلف على جسمها ثوباً أبيض ناصعاً كوجهها الطاهر المنير .. ثم أبت أن لا تعكر صفو هذه الجلسة الطاهرة في بيت حكيم فرحلت خلسةً كما جاءت بدون استئذان ببطء مثل اللحظات . وأسرعت لتتفقد ما تودّ أن تتفقده في ليلتها هذه فهرعت إلى حيث يقف مطار بيروت الدولي وعندما وصلته دخلت مباشرة إلى قاعة الترانزيت حيث كان السيد جوزيف يستعد للقيام بتنفيذ عمليته ذات الرقم ستة آلاف وخمسمائة فراقبته بشدة .. وتتبعته كما تتبعها اللحظة .

وها هو جوزيف النائب في مجلس ؟؟ يبدو أنيقاً نظيفاً وعليه القيمة .. قد صعد أخيراً برفقة طفلة صغيرة على سلم الطائرة .. ولما صعد ودخل وجلس فجلست الطفلة أيضاً في الأمكنة المخصصة .. انهالت عليه التحيات من كل ركن في قلب الطائرة وتزاحمت المضيفات الجميلات على

(1) « سورة مريم : الآيات من 15 إلى 33 » في كتاب الله العزيز .

خدمته وراحته وخدمة من ترافقه .. ثم مرت عدة دقائق خلالها أغلق باب الطائرة وربطت الأحزمة .. لتقلع الطائرة وعلى متنها ضحية العملية ذات الرقم 6500 وما أدرانا .. ما المطلوب هذه المرة .. عين بريئة ستنقل أم قلبٌ لا يعرف الحقد سينتزع غصباً .. ما أدرانا ؟!

ومر الوقت سريعا فغادرت الطائرة سماء بيروت قاصدة لندن مدينة الأضواء ومن جديد فرت ليلة الميلاد من مطار بيروت وهرولت إلى حيث يقف بيت المعلم زاكي ذلك اليهودي القذر المتمرد على جماجم الموتى .. تلك التي تصله عن طريق أولاد الشقاء الذين صنعتهم ويلات الحرب الظالمة .

ها هي ذي ليلة الميلاد قد وصلت إلى حجرته الطافحة برائحة الخمر في بيته المهلهل المقرف المملوء بالمطاحن وحولها تراكمت جماجم الموتى لتطحن طحناً .

ها هو المعلم الخبيث زاكي العجوز قد جلس مخموراً متوتر الأعصاب قلقاً لشيء ما .. ها هو يتمتم .. خائفاً ويقول في همس شديد لا تسمعه الجماجم .

– لقد تأخر أولاد الزنى .. لقد تأخروا الليلة يجب أن أطحن الكمية المطلوبة علّي أن أطحن الكمية المطلوبة .

لم تفهم العظيمة ما كان يدور في خلد اليهودي القذر .. وكم سألت نفسها علام يجمع مثل هذا الكرنيب جماجم الموتى ولماذا يطحنها في مثل هذه المطاحن الغريبة العجيبة .. لماذا .. لا جواب .. أدرك هذا لا جواب .

ثم كرت ففرت هاربة من مكر ودهاء المعلم زاكي المخمور قاصدةً القصر الناري .

وعندما حاولت أن تدخله خلسة بعد أن وصلت إليه ما استطاعت أبداً لأن كارو ورفاقه ورفيقاتهم كانوا جميعا بانتظارها .

ولما وصلتْ تمسكوا بها بإحكام شديد بعد أن أغلقوا النوافذ والأبواب لتظل العظيمة أسيرة بين أيديهم .. أسيرة لهم فقط في هذا القصر المطفوح بكل شيء .. ووحدها الشياطين والكلاب البشرية وقفت لتحرس هذا الضخم .. أقصد لتحمي من فيه .

ومن فيه .. كثير لا يعد ولا يحصى !!

العاهرات الجميلات السمر والبيض والصفر والسود .. وطاولات الروليت والبوكر والكونكان .

الأعضاء في مجلس ؟؟ والأعضاء في مجلس ؟؟ ورجال الأعمال والخمر بآلاف الأصناف واللذة المفقودة من أرض البشر .

الموز جاءهم من الصومال والتمور من العراق والأناناس من الغابات العذراء وقطاف وفير يهر من كل أصناف الفاكهة .. أقصد فاكهة كل الفصول تلك التي تصارعت وتصارعت لترتمي على مائدة كارو الفخمة في وقت واحد .. واصطفت على التوالي مزينة بالبالونات الملونة وبألعاب علي بابا وألعاب الأربعين حرامي وشجرة صنوبر صغيرة انتزعت الليلة من بين رفيقاتها وأهلها في الأحراش .. وقالب كانوا صنعه أمهر معمل حلويات في الشانزلزيه وجاء محملاً من باريس والشموع الطويلة العريضة قد جاءت من الشام .. وعلبة الهدايا المملوءة بالماس والذهب والياقوت .. وغير ذلك .

وها هم أولاء جميعا يمارسون اللذة بأشكالها والمصيبة أن أظافرهم وسخة قذرة .. ها هم اجتمعوا حول جهاز تسجيل فخم .. بعد أن دعاهم كارو لسماع موسيقى من نوع آخر .

ها هم سيستمعون ويستمتعون جميعا لموسيقى لا نعرفها نحن .. هي منا ولكننا لم نعتد أن نُطرب إليها أبداً .. والموسيقى هي خلاصة مزيج من صوت عذراء تصرخ وتغتصب وصوت النار الذي يغرغر في الفرن .. الفرن صانع رغيف الخبز ولكن ماذا وراء هذا .. ألهذه الدرجة يبقى رغيف الخبز ببالهم وهم يملكون أكثر ما تملكه الطبيعة ذاتها ؟

الهذه الدرجة يطاردون الطفولة ويتمتعون بصراخها في مشهد اغتصاب يدوم حتى في مثل هذه اللحظات ؟

.. والجميع يستمتعون .. وأي متعة هذه !!

وموسيقى الغرابة صاخبة للغاية .. لحناً غريباً عجيباً لن تقبله مسامع العظيمة ليلة الميلاد .. أبداً .. أبداً .

وها هي قد أبت الرحيل لكنها ما استطاعت أن ترحل فالشياطين قد تمكنوا منها بشدة وتتالت الساعات .. غير خائفات وكارو بصحبة رفاقه ورفيقاتهم العاهرات الغانيات يتمتعون بشراهة مطلقة بجسد ليلة الميلاد الذي لطخته الخطيئة وأظافرهم القذرة بعد أن عرّوها ثيابها وأسكروها حتى الثمالة فسقطت خانعة مطيعة بين أياديهم فهبّ السحر غاضباً ليخلصها وما خلصها وأسرع الفجر يشع ليسعفها وما أسعفها حتى صرعت ذاتها بذاتها ودفنت جثتها بيديها في حضن الوجود فاختفت عندما كان النعاس عظيماً بعد الفجر وبعد أن ذاب الشمع وصار بقايا لرحلة احتراق انتهت وبيروت باقية تحترق وعلى صدرها الألم وساماً لا يتزعزع وكل ما فيها نائم إلا صعب وأمثاله من أبناء جيله الذي سيرعب بعد حين .

ما زالوا يتسكعون بالشوارع الحافية عارين من كل شيء وحتى من المأوى واللقمة والمشرب .. أما الوسيم صعب ذاته فما زال ينتظر الفرصة . وينتظر الساعة أن يلتحم بقصة النور .

ها هو يقظاً متفتحاً عنيداً يفتش ويتمحص وينقب في أمهات الكتب عن تاريخ يقرؤه ليدله على ملامح ذلك الفجر الذى قد أطل للجماهير الضحية ..

ها هو يبحث في اجتهاد بالغ لا يضاهيه اجتهاد عن أي شيء يصور له أو يعلمه عن الولادة التي تمت بأعجوبة كالمعجزة تماما .. وأي ولادة تلك !!

ومر ذلك اليوم ..

وتواردت من بعده عدة أيام خلالها اجتهد صعب في أن يجد شيئاً يدله على ما يريد. وقد أفلح أخيراً بالصدفة فوجد ما أراد في مكتبة صغيرة متطرفة وقفت مجروحة في حارة منسية من حارات بيروت بالرغم من أنها فقدت نصفها منذ أيام أثر ضربة « آربي جي » استهدفتها .

لقد عثر الوسيم بعد العناء والتعب على كتاب عنوانه « الماضى يبدأ غداً » ففرح لهذا كثيراً وفرّ بما وجد إلى أوديت يعلمها بأنه قد أفلح وعثر على ما سيدله على ملامح ذلك الفجر .

ولما وصل أعلمها بفرحته ثم أسرع فدخل غرفته مشتاقاً كشوقه لزيارة أمه ، ولما أوصد

الباب من خلفه انكب على السرير جالساً عليه نصف جلسة وبدأ يتمعن بغلاف الكتاب ثم قرأ ما كتب على الغلاف .. مرات ..

ثم بدأ بالقراءة فغاص بكل ما ملك بين السطور .. ولن ندعه هذه المرة يبحر لوحده فنحن أيضاً تواقون للابحار والبحث عن كل ما هو مفيد .. نحن أيضاً نود أن نتعرف على ملامح ذلك الفجر .. فلعل في ذلك فائدة ثم انتهاء .. ثم انتصار وانتصارات ولا أستبعد هذا طالما سيكون ذلك الانتهاء .. من أجل الانتصار .. هو أصلاً لخير الإنسان والإنسانية ..

سنقرأ .. ونسمع وندرك .. ونتمعن ما لم نقرأه ونسمعه وندركه من قبل بسبب التعمية الاعلامية التي تفرضها علينا السياسات الظالمة ويفرضها الحصار .

فتعالوا معي .. وأعدكم بأننا لن نفترق أبداً ..

تعالوا لنغوص ونبحر برفقة صعب في رحلة عاشت .. وعاشت .. ولم تنته .. لن تنتهي .. ورحلتنا في طيات ذلك الماضي الذي سيبدأ غداً .

الفصل الثالث عشر

سنوات ما قبل الولادة :

لم يكن الشيخ الفاخري[1] الذي طالما طاف كثيراً في أغوار الصحراء اللاذعة يتنبأ بانبثاق الفجر منها .. لأنه كان يدرك جيداً أن مثل هذه الصحراء العطشى لكل شيء المسلوبة من كل شيء المنسية الواقفة على هامش الزمن والتاريخ غير قادرة على العطاء أبداً .

وكذلك ليبيا المنهوكة المطحونة الغائبة في ضمير ذاكرة الزمن التي طالما لاقت من العذابات والويلات والآلام والاضطهاد يوم كانت مسرحاً لا يغلق الستار . ولا يتوقف عن عرض مأساوي يثير الاشمئزاز والقرف لسياسات استعمارية مختلفة ومتضاربة ، جاءت إلينا تتناحر وتتصارع لتذبح وتقتل وتنتهك لتلبي مطامعها وتحقق طموحاتها التي لا تنتمي لطموحات البشر .

ليبيا البدوية السمراء .. عريقة النسب .. ليبيا العطشى ما كانت تدري أبداً أن الفجر سيبزغ من صلبها . منها . وكذلك أمة العرب بأجمعها تلك الخانعة المطيعة لأذناب الساسة المتسلطين على خيرات الشعوب وأنفاسها الذين ما زالوا يتربعون في الديار .. ويدركون عنا ما ندركه وما لا ندركه عن أنفسنا .

أمة العرب الخانعة الخائفة لم تكن تتوقع أبداً أن ينبثق من صلبها الفجر ويشع إلى ما لا نهاية .

ووحده الاستعمار صاحب المخالب الفولاذية كان يتوقع وللوهلة الأولى أن متاعباً قد تهبُّ في وجهه وتدفعه إلى الهلاك وتحطم كل طموحاته الشيطانية .. سرها يكمن في تلك الصحراء العطشى الملتهبة وجهاد العربي الليبي في مثل هذا الموضع شاهد على ذلك فنحن لا ننسى أبداً شيخ المجاهدين البطل العربي عمر المختار .. ولا ننسى أمثاله من الذين استشهدوا جنوداً مجهولين أمثال سعدون[2]

(1) هو محمد الفاخري .. فقيه عربي ليبي كان يفد إلى الصحراء ومن عادته التجول في رحابها ليعلم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وبعض الآيات القرآنية .. وهو من عائلة الطيور القاطنة في مدينة « سبها » وما زال حيًّا يرزق .. « المؤلف » .

(2) محمد سعدون الشتيوي السويحلي .. أصغر أبناء الشتيوي من مدينة مصراته شرق طرابلس على بعد 213 كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط .. تولى قيادة المجاهدين في منطقة مصراته بعد وفاة أخيه رمضان سنة 1920 م وأثناء عملية إعادة الاحتلال الايطالي من قبل القوات الايطالية لمدينة مصراته تصدى بقواته للغزاة الطليان وعندما تمكنوا من احتلال المدينة انسحب بقواته إلى منطقة سدادة الواقعة في شرق شمال بني وليد وظلّ من موقعه يهاجم تلك القوات حتى استشهد سنة 1933 م في معركة =

وعبد السلام[1] أبو منيار والجالط[2] وغيرهم .

أما كرة الأرض فلم تنبهر لبزوغ ذلك الفجر وكذلك العالم .. العالم الذي لا يعني لي بالتالي .. الانظمة والحكومات .. أقصد بهذا العالم الضحية ذاتها .. الشعوب المغلوبة .. المضطهدة منذ العصور السحيقة ..

ولقد أدركت كرة الأرض والعالم كذلك أن زمن الضحية قد جاء لينتصر بعد غياب طويل قد طال .. جاء ليغمر الأرض ويحييها مرة أخرى ولن يفرح في هذه المرة إلا من كانوا هم الضحية على امتداد الأزمان أؤلئكم الذين خضعوا منذ فجر البشرية فكانوا أول الأمر اتباعا ثم تطورت بهم الحال فصاروا عبيداً ثم تطوروا فأصبحوا رقيقاً .. وبعد الرقيق أذناب وبعد الأذناب .. أذيال ثم خيال . ثم كادوا أن يمسحوا مسحاً وكادت رؤوسهم أن تطحن طحناً .. لولا أن زمن الضحية قد جاء مسعفاً ليصبحوا في ظله هم الأسياد .. هم الأسياد .

ومن البديهي لو قلت .. عاشت الأنظمة الرجعية والرأسمالية نصف عمر البشرية وعاشت الأنظمة الشيوعية الربع الثالث وسادت في آخره من عمر البشرية .. وإلى هذا الحد أصابها الاشباع غصباً فجاء زمن الضحية ليعيش الربع الأخير في حياة البشرية . وهذا أبسط حقوقه على الاطلاق ألا توافقني بذلك .

ما دامت هذه هي أصلاً مشيئة الله عز وجل ولكن يحضرنا سؤال صعب يقول :

على من وقع الاختيار في الزمن الصعب الأكثر عهراً ورذيلة ليفجر عصراً أراده الله للبشرية بعد زمن المعجزات .. وبالتالي لماذا كانت الصحراء الليبية هي موطن الولادة الأولى ولماذا « جارف »[3] بالذات .. تلك الضائعة منذ فجر التاريخ من خارطة الزمن .. ولماذا من خيمة الفاضلة زوجة أبو منيار ؟

= « المشرك » . وهو موقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة مصراته ونستطيع أن نحدد موقعه على أنه بين مدينة مصراته ومنطقة السدادة السابق تحديدها .

راجع في هذا الصدد كتاب « معدون السويحلي » للكاتب العربي علي مصطفى المصراتي .

(1) هو محمد عبد السلام أبو منيار .. مجاهد عربي ليبي من قبيلة القذاذفة القاطنة في مدينة سرت في الصحراء الليبية .. شارك في عدة معارك الجهاد الليبي ضد الغزو الايطالي من بينها معركة القرظابية ومعركة يوم السبت ويوم المويلح وغيرها .
راجع في هذا الصدد كتاب « القرظابية أسماء وأرقام » الصادر عن مركز الجهاد الليبي – طرابلس الغرب .

(2) هو الشيخ الجالط البوعيشي .. أحد المجاهدين الليبيين الذين كانوا يتمركزون في منطقة الوسط في ليبيا وفي سنة 1928 م حاولت القوات الايطالية أن تطوق تجمعات المجاهدين في هذه المنطقة في عملية عسكرية عرفت في المصادر الايطالية بعمليات شمال خط 29 وعندما شعر المجاهدون بهذا التطويق عقب معركة تاقرفت بدأو يندفعون جنوباً للخروج من هذا الحصار الذي حاولت القوات الايطالية فرضه .. فجمع الجالط أبله وأخذ بناته الثلاثة واتجه بهن جنوباً أسوة ببقية المجاهدين وبينما كان يغذو السير جنوباً اصطدم بالقوات الايطالية التي كانت منسحبة من تاقرفت .. فطلبوا منه الاستسلام إلا أنه رفض وبادرهم بإطلاق النار بعد أن تحصن في موقعه برفقة بناته الثلاثة .. واستمر الاشتباك بينه وبين القوات الايطالية على مدى خمس ساعات تقريبا وحيث أن الجالط من الرماه الجيدين فقد استطاع أن يقتل ما يقارب من ستة عشر رجلاً قبل أن يستشهد . ويعتبر هذا الموقف في حركة الجهاد العربي الليبي ضد الغزو الايطالي ليس موقفاً فريداً حيث أنه تكرر في مواقع كثيرة إلا أن ندرته في هذا المجال أن من وقف هذا الموقف كان شيخاً كبيراً وهذا ما يميزه كحدث يجعلنا نتحدث عنه بفخر واعتزاز ..
« مركز الجهاد الليبي – طرابلس الغرب » .

(3) جارف .. واد بأرض سرت وبه آبار كثيرة .

وعلى هذا السؤال نجيب :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴾(1) « صدق الله العظيم » .

من كلام البارىء العظيم يتبين لنا أن الخالق عزّ وجل قد خلقنا .. خلقاً آخر بعد أن مرت الولادة بعدة مراحل .. أولاً من طين ثم نطفة في قرار مكين ثم علقة من مضغة ثم عظاماً فلحماً وما بالك بمشيئة الحكيم لو أراد للبشر عصراً .. فهلم بنا لنتتبع المراحل بإذن الله منذ الولادة وحتى مطلع الفجر الأول ثم مطلع الفجر الثاني ثم مطلع الفجر ذاته .

المرحلة الأولى :

— الرحلة من رحم الفاضلة إلى حضن العملاقة .

— الزمان : قبيل غروب شمس آخر يوم من أيام تموز صيف عام 1941 م العام الذي وصل فيه المارشال رومل إلى طرابلس والذي استطاع بدوره احتلال مدن درنة(2) وبنغازي واجدابيا فتحولت ليبيا العربية إلى ساحة قتال كواحدة من أبرز ساحات القتال خلال الحرب العالمية الثانية .

— المكان .. الخيمة الثامنة الواقفة في حضن النجع القريب من « بئر الكراعية » الواقف منذ سنين في وادي جارف التائه غرب سرت في رحاب الصحراء الليبية .

---

(1) سورة المؤمنون الآيات : 12 إلى 14 في كتاب الله العزيز .

(2) درنة : من المدن القديمة اقيمت على جزء من مدينة (درنيس) المدينة اليونانية القديمة التي كانت عاصمة ليبيا الشرقية (مر ما ريكا) واغلب ابنيتها على الطراز العربي القديم .

ويبدو أن أول من أسس مدينة درنة الحالية هم الأندلسيون الذين نزحوا إليها عام 1040 هـ(1) ، أما الدليل السياحي فيقول (يرجع عهد تأسيس المدينة الحالية إلى سنة 1493 م عندما استقرت بها بعض العائلات الاندلسية التي هاجرت إليها بعد سقوط غرناطة) .

ويمر بوسطها نهر ينحدر من الجبل الأخضر من عين بومنصور وقسمت مياه النهر على البيوت والبساتين وتكثر فيها انواع الفاكهة وخصوصاً الموز وقد اشتهرت بجودته .. ولأهلها نشاط واضح في التجارة وهي بنين على لسان ممتد من البحر من الجنوب إلى الشمال وبها مرسى بحري صغير في جهتها الشرقية كانت ترسو فيه السفن على بعد قليل من البر وتقع مدينة درنة شرقي مدينة بنغازي بنحو 280 كم وفي درنة الكثير من قبور الصحابة استشهدوا جميعاً في معركة مع الروم سنة 71 هـ واشهر القبور قبر زهير بن قيس البلوي الصحابي كان من سبعين رجلاً من أصحابه .

وفي سنة 1805 م أيام يوسف باشا القرمنلي حاول الأمريكيون احتلالها وشهدت شواطئها معارك ضارية وانتهت بأسر أضخم بواخرهم (فيلادلفيا) ومن ثم عقدت اتفاقية بين يوسف باشا وامريكا لذلك الغرض .

احتلها الايطاليون سنة 1911 م واخرجهم منها الانجليز في أواخر سنة 1942 م وسكانها خليط من القبائل العربية .. ودرنة اليوم من المدن الضخمة تكثر بها الحدائق الغناء والكباري وشوارعها واسعة ومنظمة وبها أسواق حافلة بالتجارة وعدد من الفنادق الممتازة وبها كثير من المدارس والمعاهد العليا . « معجم البلدان الليبية » .

(1) العياشي .

- 1 -

الرتم والشعال والسدر والشيح ، وكذلك البطوم والتين الشوكي .. شجيرات وأعشاب تفاخرت بها الصحراء على مدى الدهور .. وها هي قد سقطت وأعلنت مصرعها قبل قليل فصرعت بعد الهلاك وبعد ما أصفرت أوراقها وعيدانها وتفتت فانتهت على مرآة الرمال وعين الشمس الراحلة .. والحرب العامة الثانية بويلاتها ما رحلت بعد .. ووحدها شجيرات الطلح وقفت عنيدة عطشى ما انخرطت في مهرجانات الموت الجماعي

وها هي باقية لا تود الموت ولن ترضخ أبداً للانتحار الجماعي .

ها هي ذي تنتشر انتشارا من جارف الحزينة إلى أبو هادى[1] الوادعة المسكينة وإلى « سرت »[2] وعبر الصحراء الظمآنة .. تنتظر أن يمن عليها الرب فيجيؤها ماء المطر مسعفاً فتجيؤها الحياة .

وكذلك جارف العنيدة الصابرة تلك المرمية المنسية الممسوحة تماماً من خارطة الزمن لن تأبى الموت ولن تخضع للانتحار الجماعي بل وقفت بعناد أمام أشباح الطوفان وأي طوفان ذاك !!

الباعوض .. يحميه الجراد وتحميه أمراض الحمّى والجدري والتيفوئيد .. جاءها مارداً فتاكاً استهدف كل ما يتنفس في حضنها فالتهم كل ما كان يسقط بين يديه من الأطفال الرضع وغيرهم وحتى القطط المستبرة والعصافير ووريقات الطلح المتمزقة .

و الجوع .. جاءها عملاقاً كالأسطورة وبات فيها مستوطناً كالسلطان يتربع بأنانية مطلقة في الديار المتبعثرة ولا يتزعزع .. لقد استطاع أن يغمس المرارة في الأفواه العطشى والأعماق الظمآنة الطفلة والشابة والهرمة .. فطارد الحيوان وطارد النبات وحتى الهواء ذاته كاد يمتص منه الأوكسجين فسقط أمامه وعلى يديه مئات الضحايا .

والجفاف .. جاءها غولاً لا يرحم .. حليفاً وفياً للجوع الذي طال عمره في هذه المخيمات المغلوبة .. لقد جاءها غولاً يطارد البدو فيمتص رحيق أرضهم حتى اضمحلت الأرض وما اضمحلوا وهلكت وما هلكوا .

أما سيد الطوفان فهو العطش رفيق الجوع سالب الروح من الجسد ذلك المرعب الذي امتد نفوذه من جارف وإلى أبو هادي ثم إلى الصحراء بأكملها .

لقد انتصر الطوفان بالباعوض والعطش وبمرارة الجوع والجفاف .. انتصر على جارف الصغيرة وعلى جاراتها في عرض الصحراء وطولها وسلخ من جسمها جلدها .. فعراها وأفسد ما أفسده فيها

---

(1) أبو هادي – قصر قديم في سرت يقع في الجنوب الغربي من مدينة سرت بحوالى 19 كيلومتر به آثار قديمة وبئر ماء .

(2) سرت (سرت الجديدة) انشئت سنة 1203 في عهد أحمد راسم باشا حاكم طرابلس وتقع على البحر في نهاية خليج سدرة الجنوبي الغربي ولها مرسى صغير . وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو 475 كيلومتر .

وقامت سرت القديمة من الشرق ومن الجنوب من مصراته بنحو 260 كيلومتر احتلها الطليان في أوائل سنة 1913 م وخرجوا منها بعد معركة القرظابية سنة 1915 م ورجعوا إليها سنة 1924 م وخرجوا من طرابلس كلها في أوائل سنة 1943 م وهي الآن مدينة كثر عمرانها واستوطنها من أهل بادية سرت وهي مركز تجاري مهم بين شرقي ليبيا وغربها وجنوبها لأنها تقع في مثلث بين طرابلس وبرقة ، فزان ، وتمتاز الأراضي المحيطة بها بالخصوبة وتكثر فيها الحيوانات لما فيها من جودة المرعى وكثرته .

حتى باتت بمجملها وكأنها جسد طفل ينازع من شدة الألم .. لا الدواء موجود وما من مسعف أو مغيث .

ووحده الاضمحلال سيد الموقف ظلّ راقداً راقداً عميقاً في صلب كل شيء باقٍ وكل شيء باق بات ينتظر الموت لأنه فيه تكمن الراحة ويكمن الخلاص من كل هذه الويلات الجسام .

لكن جارف التي فقدت الكثير .. وكذلك الناس الطيبون الذين تأملوا مثلما تأملت بعناء وبصبر يضاهي أمل النازحين من فلسطين بالعودة .. وصبر أيوب ذاته على أن تتبدل الحال بعد حين وما تبدلتْ تبديلاً عادياً !!.. ومن هؤلاء الذين أرهقتهم الحياة حتى الثمالة وظلّ الأمل براقاً يسكن في أعماقهم ..

البدوية عائشة تلك التي فقدت بعض أولادها أثر الطوفان .. طوفان الحمّى والباعوض والجفاف وعاشت من بعدهم الحسرة والألم وما أدراك بذلك الألم ما أصعبه .. ما أعظمه ..

وعائشة البدوية امرأة رائعة وروعتها في صبرها وإيمانها .. شقراء بيضاء بياضاً ناصعاً أخاذاً قلما أن تجده في الصحراء السمراء الحارقة ، وعيناها السوداوان ما زالتا تشتكيان من شدة الألم والعذاب وتترقبان كل ما يجري في عراء هذا الوادي من عواء .. ونواح ونباح .. وجسمها المكتنز اليافع القوي البنية كقوة إيمانها بالله ساعدها مراراً على القيام بالأعمال المجهدة وعلى مساعدة زوجها المجاهد الذي كاد يسقط مع من سقطوا من المجاهدين ذات يوم في معركة القرظابية .

وهي قاطنة تلك الخيمة الواقفة على كتف المخيم في حضن النجع القريب من « بئر الكراعية » ذلك المتمرد وعلى مر السنين .

وتلك الخيمة الثامنة قد وقفت حائرة خائفة من السقوط والانهيار حيث قامت على عدة أعمدة تهزها الريح متى تشاء وبدون استئذان ولا تبالي بأوتادها .. فتقذف بها عشرات الأمتار لو أرادت .. ويبللها ا لمطر في الشتاء القارس ولو أراد يغمسها في الرمال غمساً وتلذعها أشعة الشمس في الصيف الحارق ولو أرادت تحولها إلى حريق بدون لهب وكذلك يصرعها الخريف بكل ما يجيء به من عجاج ورياح .. وأتربة تكاد تغمرها تماماً .. وفي الربيع قد تنبت في حضنها وردة أو نبتة شوكية وقد تدخلها النسمات الرقيقة كما تسرح في أجوائها الداخلية كل نسمات الفصول .. ولا يستبعد الضباب أبداً أن يدخلها وكذلك الرمال .. ويمكن لأفاعي الصحراء أو عقاربها السامة أن تتسلل إليها بسهولة وتدخلها بدون عناء .

تلك الخيمة يمكن لكل ما في الطبيعة أن يقرب منها وأن يتدخل في حياتها ووحدها الطيبة طيبة البدو الرحل تبقى ملازمتها تماما كقاطنتها الجميلة عائشة وصغيراتها سالمة وعتيقة والزادمة أما عن زوجها المجاهد ما عاد بعد من رحلته إلى فزان[1] تلك الرحلة التي يعتادها من حين إلى آخر .. يذهب إليها بالإبل ليعود منها بالتمر .. وسيعود بعد أيام فها قد مضى على رحلته الأخيرة شهران وأكثر .

(1) ولاية فزان .. هذا كان زمن النظام الفدرالي الذى الغي عام 1963 وأصبحت ليبيا وحدة واحدة وهي عدة واحات واقعة جنوبي مدينة طرابلس بنحو 970 كيلومتر وأصلها من مواطن البربر القديمة ولها ذكر في التاريخ القديم ، أرضها خصبة ومياهها الجوفية وفيرة وبها نخل كثير يعد بمئات الألوف .

وها هي ذي البدوية عائشة تجلس القرفصاء على مقربة من خيمتها مع مغيب الشمس تترقب رحيلها .. وتترقب الطريق المؤدية للوادي فلعل زوجها يطلّ بغد الغياب .. وما طل ثم ترقبت كل ما كان يجري من حولها .. الناس والقطيع .. والدجاج والعطش ذلك المتربع في كل ركن وزاوية وزحام الجميع حول البئر .. والوادي على حاله بعد أن اجتاحه الطوفان بكل ما ملك .

وكرة أخرى عادت لتمعن بعين الشمس الذاهبة .. وما أن ذهبت الشمس في طريقها حتى جعلت عائشة تحدق بعيون السماء الرحبة طويلاً .. طويلاً .. لتقول شاكية راجية تناجي ربّ الوجود بعد أن رفعت يديها عالياً باتجاه السماء .

ربي ..

ربي .. ما خلقتني لتعذبني وبسياط البؤس والحرمان لتجلد أهلي وتجلد جسمي .

يا أيها البارئ يا منقذ العباد انقذني وخفف عن صدري لهيباً يكاد يذبحني .

يا عال .. يا مسعف اسعفني فالحمّى التهمت صغاري ومثلها الباعوض قد فعل فالتهم حسي ودفئي .

ربي .. يا أيها الصمد يا واحد أحد من رزقك ارزقني وهون على ناسي وسماري وأهلي .

ربي ما أخطأت بحقك مرةً لتأخذ مني ما تحبه نفسي وتجفف حلق جارف وحلقي .

ربي يا قيوم ما نسيتك قط لتنساني وتجفوني وتغرّب حسي ووجداني .

فهيا .. يا ربي أرني وجهك ولو مرةً تخمد في رؤياك لهيبي وناري ..

أرني وجهك طالما أنت الحق .. الوهاب الباني ..

وما أن سكتت حتى سُحت من عينيها دموع حرّى فأجهشت بالبكاء طويلاً .. بكاء فيه ما فيه من المرارة والألم .

وقبل أن يخيم الليل على الوادي والنجع دلفت إلى خيمتها حزينة كئيبة ثم أصابتها على الفور رجفةً شديدة أقلقت صغيراتها .. واحتارت أكبرهن ماذا تفعل لاسعاف امها .. وبعدما ارتبكت قليلاً هرعت إلى حيث يقف الوعاء المملوء في الماء بزاوية الخيمة .. فتناولت من على الأرض الإناء الخشبي الصغير وغرفت فيه بعض الماء من الوعاء وأسرعت إلى حيث تمددت عائشة فرمت بالماء على وجهها .. والأم ما استفاقت .. ما زالت تملكها غيبوبة .. ولا جدوى مما فعلت سالمة .. وقبل أن يداهمها الخوف والاضطراب على صحة أمها راحت لبيت عمها تستعجلهم راجية ملهوفة لاسعاف أمها .

في تلك الأثناء صرخت الصغيرة الزادمة الدلوعة التي ما تجاوزت نصف عقدها الأول .. صرخة حادة ومفتزعة أفزعت أختها عتيقة تلك التي تكبرها بثلاث سنوات وأفزعت من يقطن حولهم في الخيام .. وما كان من عتيقة إلا أن شاركتها الصراخ والبكاء وعلى صوتهما حضر أهل النجع بمن فيهم الصغار والصغيرات رفيقات الزادمة وعتيقة إلى خيمة المجاهد .

فأسرعت النسوة لاسعاف عائشة بالطرق الأولية السائدة المألوفة .. وضجت الخيمة بكل هؤلاء الطيبين .. وانهمكت الصبية سالمة باشعال الحطب للإنارة بعدما هلكت في البحث عن فتيل الزيت الذي اختفى في الرمال .

وعلى ضوء نار الحطب .. شكل الجميع نصف حلقة دائرية حول عائشة تلك التي استفاقت أخيراً من غيبوبتها بعدما جُرّعت ماء العشب المغلي .. ففرحت الصغيرات وكذلك أطفال النجع .. وبدأ الحديث يدور .. في فلك الأمس البعيد .. ويداهم هذا الوقت المر الذي يحياه الجميع .. بدأ الحديث الذي لا تقيده قيود .. ولا يخضع أبداً للمجاملات والتهذيب .. ذلك الحديث الأكثر نقاء وصفاء محوره الألم والشكوى والنجوى وهدفه التمر من فزان .. ورحيل الإبل من جارف .. كان حديثاً جماعياً لن تتذوق طعمه الحضارات المدنية .. حديثاً للنساء والرجال والأطفال والشيوخ .. ديمقراطياً خالصاً .. الكل يتحدث ، الكل يعاني ويتألم وبالتالي الكل سيشرب الشاي المصنوع على نار الحطب من يد الصبية الناعمة سالمة .. تلك البدوية كأمها شقراء بيضاء امتازت بما حفلت امها بميزات وسمات فهي عائشة الصغرى ذاتها .

ونار الحطب مضيئة وهاجة ككل هذه الوجوه .. والنفوس ذاتها بدوية أصيلة لا تعرف الخداع ولا الكذب .. بدوية صافية مثل الرحاب في الفجر ومثل العطش في هذا الوقت تتمنى .. وتتمنى ولا تترجّى غير الله .

ولما مر الوقت الذى لا يهم هؤلاء لأن الساعات عندهم تدخل دوماً في حدود الانتظار .. انتظار ما ستبعثه السماء اليوم أو غداً .. ما زال الكل ينتظر المطر .. ينتظر أن يحيا الوجود بالخضرة والخير .. وما أمر من مرارة ذلك الانتظار !!

وعندما خمدت نار الحطب .. وصار الضوء منها وفيها باهتاً ضعيفاً .. وصار في ألوانه مزيجا شفافا مثل لون غروب الشمس في يوم غائم .. هرعت عندئذٍ النفوس الشفافة ودلفت إلى خيامها .. لتنام وتحلم بالماء والخضرة وبكل ما يرضي الظمآن في صحراء قد نسيها الزمان .

وها هي ذي قد نامت الزادمة الصغيرة وكذلك عتيقة وما نامت عائشة من شدة الألم وكذلك سالمة التي أصابها القلق والخوف على صحة أمها . بعد أن أسدلت على وجه الخيمة ستاراً لن يسدل فيما بعد أبداً .

ومضت تلك الليلة بما حفلت .. وغابت من عمر النجع وعمر القاطنين فيه وعمر الزمان بعينه .

وجاء صباح اليوم التالي فأشرقت شمس الصحراء ومع شروقها وصلت طلائع قافلة التمر القادمة من فزان .. فوصل معهم المجاهد غانماً بالتمر وببعض أكياس الشعير وبلفافة الحبال التي حملها خصيصاً ليصنع منها أوتاداً تمكن خيمته في الأرض التي وقفت عليها .

.. وها هي قد دوت الزغاريد .. زغاريد الفرحة تلك التى تطلقها أفواه النساء وهن يستقبلن رجالهن .. لقد جاءت الفرحة وأي فرحة تلك !!

لقد فرح الصغار والكبار نساء وشيوخاً وأطفالاً .. للتمر والحبال .. للمعدة الجائعة وللخيمة التي كادت أن تسقط من الريح وتنهار .

.. وها هي الزادمة تهرع حافية القدمين باتجاه القادمين إلى النجع تبحث عن المجاهد ذاته وما أن رآها حتى سارع وضمها وحملها بين ذراعيه ثم مد احدى يديه إلى حمله وناولها بعض حبات

التمر .. وكم فرحت الزادمة بحبات التمر .

وبعد أن وصل المجاهد لخيمته ولما دلف إلى داخلها وجد عائشة قد انتابتها وعكة صحية فأسرع نحوها بلهفة ليطمئن عليها فاطمأن ثم قبل الصبية وضم إليه عتيقة .. وفرّ بعد ذلك ليفرغ حمله في زاوية الخيمة .

في هذه الأثناء نهضت البدوية عائشة من رقدتها وعزّمت على أن تعد لزوجها وصغارها وجبة طعام الافطار .. فكابرت على الوجع وآلام المغص الذي داهمها منذ ليلة الأمس .. وأحضرت « الجاروشة » ثم تناولت حفنات من حبات الشعير وبدأت تطحنه وبعد الطحن عجنته بالماء ثم خرجت من الخيمة بالعجين قاصدة التنور الواقف على كتف الخيمة .. وبعدما كسرت الحطب واشعلته انتظرت .. وانتظرت حتى التهب التهاباً فشوت على ظهره خبز الشعير .. ثم عادت بما صنعت يداها لزوجها وجلست على مقربة منه برفقة صغيراتها ليتناول الجميع وجبة الافطار بعدما جاءت سالمة بالحليب والبيض .

وعلى مائدة الافطار .. تلك المائدة المتواضعة جلس المجاهد وعائلته لتناول الطعام والشراب ثم دار الحديث .. بين استفسار وجواب بين المجاهد وزوجته

حيث قال يخاطبها :

– أما زلت تتألمين يا أم سالمة .

أجابته عائشة بعد أن أشرقت على وجهها الابتسامة قائلة :

– لقد زال الوجع .. وكل ما في الأمر مغص في المعدة لا أكثر .

وعلى الفور قاطعتها الصبية سالمة قائلة تخاطب أباها :

– لقد أصابتها غيبوبة طويلة ليلة أمس .. وطوال الليل لم تنم .. لكنها تكابر أمامك يا أبتِ .

المجاهد وبعد أن تنهد تنهيدة قصيرة قال :

– ولكن ما الذي يمكننا أن نفعله في هذه الديار يا ابنتي .. فالدواء غير موجود وكذلك الطبيب وكل ما بودنا فعله هو أن نجرعها ماء العشب المغلي .. وننتظر رحمة الله .

فأردفت سالمة قائلة :

لقد جرعت ماء العشب المغلي منذ ليلة البارحة .

المجاهد وبعد أن نظر طويلاً إلى عيني عائشة قال :

– هل أنت بخير يا عائشة .

أجابته عائشة قائلة بعد أن اصطنعت على ثغرها ابتسامة ما كانت عريضة :

– بخير والحمد لله .. الحمد لله لقد زال الألم برؤياك يا محمد .

فابتسم المجاهد ابتسامة ملئها الطيبة .. وتابع تناول الطعام .

وما هي إلا بضعة دقائق قد مرت حتى حضر إلى الخيمة الشيخ مسعود شقيق المجاهد وعلى الفور نهض المجاهد وكذلك أم سالمة وسالمة من على مائدة الافطار تحية للشيخ .

وعندئذٍ نطق الشيخ قائلاً بتواضع : اجلسوا .. اجلسوا .: فجلسوا على مائدة الطعام مرة أخرى .. وعتيقة ومثلها الزادمة ما زالتا منهمكتين بالتهام الطعام دون أن يباليا بحضور الشيخ الذي

أخذ يخاطب عائشة قائلاً :

– وكيف حالك اليوم يا أم سالمة .

عائشة : بخير والحمد لله .. لقد زال الألم .

ثم كرة أخرى أردف الشيخ مسعود قائلاً يخاطب المجاهد :

– وأنت يا أخي كيف حالك .. هل توفقتم في فزان .. وكيف حالها وحال أهلها ؟

أجابه المجاهد قائلاً بعد أن ناوله كأس الشاي :

– الحمد لله على كل شيء .. أما عن حال فزان وأهلها فهي تشكو مثلما نحن نشكو وتتألم مثلما نتألم فالحرب يبدو أنها لن تدع شبراً من أرض ليبيا إلا ورمت بويلاتها عليه .. فلقد تحولت البلاد إلى ساحات قتال .. الألمان والانجليز .. وغيرهم من المتسلطين وحربهم الثرثارة التي لا تسكت .. أما عن المقايضة فلقد تمت بسرعة مذهلة .. ففزان بحاجة إلى اللحوم وعلى الأقل فهي تمر في موجة جوع مؤلمة .. أما نحن فلقد فزنا بالتمر .. والشعير والحبال .. بعدما الجفاف أخذ منا كل شيء .. والمهم طمئني على أحوال جارف وعن أحوالك يا أخي ؟

« آه .. لقد أتعبها الزمان » كذلك قال الشيخ مسعود بعد أن تنهد تنهيدة طويلة لفظتها أعماقه ..

ثم عزّم عليه المجاهد أن يشاركهم طعامهم .. فتناول الشيخ بعض حبات التمر ثم استأذن وانصرف إلى خيمة أخرى ليطمئن على العائدين من فزان .

ومرّ ذلك اليوم .. ومرت من بعده أيام الصيف .. فجاء الخريف غاضباً عاصفاً .. كما كانت الحرب العاصفة تعصف بالصحراء وبليبيا .. ووحده الوادي ما زال يصرخ مثلما تصرخ فيه الرياح وتصفر فاصفرت الحياة بكل ما فيها ودبّ سلطان الخوف مرعباً فتربع في النجع وفي داخل أجواء الخيام ، وفي نفوس قاطنيها حيث أن التمر أوشك على الانتهاء والحبال قطعتها الريح العاصفة وكم من خيمة أسعفت وهي تطاوع الريح لتسافر في حضنه .. وكم لسعت الرياح الباردة أجساد هؤلاء الواقفين في عراء الكون لا يحتضنهم الوجود بمدنيته .. تحتضنهم الصحراء وحدها .. لكنها تخيفهم ولا تخيفهم ثعالبها .. وما استطاع الزمان ذاته أن يدحرهم أو يمسحهم مسحا فما زالوا ضعفاء أقوياء يملكون القوة من ضعفهم ومن خوفهم ومن أجوائهم .. تلك التى لا نعرفها .. ولن يعرفها سواهم ..

وذات ليلة من ليالي ذلك الخريف الغاضب ... وبينما كان المجاهد وزوجه وحولهما الصغيرات قالت عائشة بفرح يضاهي فرح ليبيا بالاستقلال تخاطب زوجها بابتسام :

– إني حامل .. إني حامل .

فدهش المجاهد مما قالته ثم أصابته الفرحة .. ففرح .. وفرح دون أن يتكلم أو ينبس ببنت شفة ، فقفزت سالمة من مكانها .. ومن فرحتها على ما قد سمعته من أمها قبل قليل حيث أخذت تقول لها : ان شاء الله صبي .. فنحن بحاجة إلى أخ جميل مثلك يا أمي .

في هذه الأثناء قالت عائشة بسريرتها راجية :

« يا رب ولد .. يا رب ولد لتفرح به الصغيرات.ويفرح المجاهد فأفرح أنا وتعمر حياتنا وليتها به تعمر بعد كل هذا العناء والتعب » .

وكذلك في نفس اللحظات جاء الذهول ليخطف المجاهد فأخذه بدوره يتخيل .. ويتخيل ويتلذذ بما يتخيله .. فلقد تخيل أن زوجته قد وضعت ولداً جميلاً .. ففرح فرحة عظيمة ثم استيقظ فجأة من ذهوله حيث قال في سريرته بعد أن لفظ من أعماقه آهات حزينة : « يا رب .. يا رب » . إلا أن الزادمة وعتيقة قد استسلمتا للنوم فنامتا نوماً هانئاً مثل تلك الليلة الهانئة .

وبعد منتصف الليل من ذلك اليوم نامت سالمة وكذلك أمها وأبوها .. وما نامت الفرحة حتى في أحلامهم ..

وأخذ الخريف يسرح بما ملك ويمرح بهؤلاء الطيبين وكم صرعهم بويلاته ورياحه وأعاصيره حتى جاء من بعد الشتاء معطاء مسعفاً .. جاء غريباً على غير عادته فهطلت الأمطار بغزارة وشربت الأرض العطشى روحاً جديدة فتنشطت مرافق الحياة بمجملها .

وفرح النجع وأهله بالمطر .. وبهذا الشتاء الخيّر بالرغم من أن ماء المطر ذاته قد غمرهم غمراً وأفسد كل وسائل تدفئتهم .. لكن النفوس ذاتها كانت تتلذذ بعذابات هذا الشتاء وتتلذذ بالبردّ والصقيع وبألوان البرق والرعد لأنها كانت بحاجة إلى الحياة والمطر .. بحاجة لأن يدوم هذا الخير ولو كلفهم ذلك أن يهلكوا من شدة قساوة البرد والصقيع .. ومهما هلكت خيامهم أو غمرت أو حتى انغمست في الرمال غمساً .. المهم أن الأرض ذاتها تشرب وكذلك النبات والحيوان وبئر الكراعية قد طفح بالماء حتى الثمالة .. والكل يدرك جيداً أن ما بعد هذه العذابات سخاءً كبيراً ستمنحهم إياه أمهم الأرض وما طالت أيام الشتاء بالرغم من أنها كانت قادرة تماما على أن تروي كل شيء حتى الثمالة .. فالقاع ارتوى وكذلك الروح والجسد وحتى الحلم ذاته .

وبعد أن راح ذلك الماطر الكريم المعطاء .. جاء الربيع متباهياً .. وغير متكبراً .. زاهياً براقاً أزهى بقدومه الليالي والأمسيات السامرات الحالمات الزاهيات .

وبالضبط في آخر يوم من أيام الربيع ..

كانت عائشة تتخبط ذاتها بذاتها .. وتستعد قبيل الفجر لاستقبال مولودها .. وكل ما في الخيمة مضطرب اضطراباً شديداً .. شديداً .

الزادمة تتألم على صيحات أمها .. وكذلك عتيقة تبكي عليها .. أما سالمة فكانت تدعو ربها راجية بأن يرزقها أخاً جميلاً مثل أمها .. أما عائشة ذاتها فما زالت تصرخ وتتألم .. وها هي تلف بقبضة يدها اليمنى جدولتها الغليظة .. وتدهس طرف الحصيرة في يدها الأخرى .. وتساعدها على الولادة جارتها مبروكة بنت أحمد .. والكل ينتظر .. الكل يبدو قلقاً .. قلقاً بالغاً .

وها هو ذا المجاهد قد خرج من الخيمة تاركاً فيها صراخ وآلام عائشة .. وأخذ يخطو خطوات ثقيلة باتجاه بئر الكراعية .. وهذه عادته يوم تستعد زوجته لاستقبال مولودها .. فكان المجاهد يتفاءل كثيراً برؤية ماء البئر الساكت في مثل هذه اللحظات الملتهبة .

ولما وصله تمعن في عمقه وشعر بارتياح شديد لرؤية الماء الراكن في عمق البئر . ثم جلس من بعد على مقربة منه .. يتأمل كل ما حوله .. النجع وبما فيه من الخيام .. فالناس ما زالت نائمة حالمة .. وكذلك القطيع في حظائره ، ثم رفع عينيه باتجاه السماء .. كانت أكثر صفاءً ونقاءً اشرقت في رحابها خيوط الضياء الأولى تلك الفاصلة بين الليل والنهار .. حيث بدا الشفق شفق الفجر

بنفسجياً زاهياً براقاً فيه شوق الولادة .. وفيه احتراق كصراخها تماما .

ومرت اللحظات غالية والمجاهد بانتظار ذلك القادم من رحم الفاضلة في تلك الأثناء كانت مبروكة قد قطعت الحبل الواصل بين عائشة ووليدها الذي حضر للوجود منذ قليل .. فأسرعت سالمة إلى حيث يقف المجاهد وينتظر وما إن رآها حتى ابتسم ابتسامة عريضة حيث قال : يخاطبها بلهفة : هل وضعت وليدها ... وما أن سكت حتى انهالت عليه كلمات سالمة وهي تقول :

– لقد جاء أخي .. لقد جاء أخي .. فأسرع وضمها إلى صدره ثم فّر هارباً إلى حيث زوجه .. ومثله فّر الفجر من الوجود فطلت الشمس دافئة في يوم ربيعي وكذلك فرت الصغيرات بفرحهن وذاع خبر الولادة وانتصر النجع بزغاريد النسوة التي أخذت تدوي لفرحتهن بما أنجبت زوجة المجاهد .. وفجأة سكتت الزغرودة فخمدت الفرحة عندما فوجيء الجميع بأن المولود ضعيف جداً .. ولاحظوا أنه لا يصرخ كأي مولود في لحظة الولادة .. وانقلب الفرح لبكاء إلا ان المجاهد وبعد أن غصّ طويلاً قال :

– هاتِ الزيت يا سالمة .

فجاءت سالمة بالزيت .. وبدأ المجاهد يمسح جسد المولود بالزيت وشفتاه تتمتم بآيات بينات من القرآن الكريم ..

وبعد ذلك لف المولود بلفة من القماش .. ثم وضعه على مقربة من صدر أمه .. وانتظر أهل النجع أن تنتابهم الفرحة مرة أخرى فيصرخ المولود .. وتتحسن حاله .

وتم ذلك فعلاً بعد عدة أيام قضاها المجاهد .. ينتظر .. وينتظر رحمة البارىء العظيم .. ووحده البارىء ما بخّل عليه بهذا .. فتحسنت حالة المولود .. وبعدة عدة أشهر ابتسم .. فابتسمت الحياة ذاتها للمجاهد وأهله وحتى للصغيرة الزادمة التي فرحت بقدوم أخيها الذي سموه معمر .

وهكذا .. استقبلت العملاقة ليبيا .. ذلك القادم من رحم الفاضلة وبعدها مرّ على النجع ألف ليل ثم ألف ليل .

الفصـــل الرابـــع عشـــر

المرحلة الثانية :

— الرحلة من جارف وعبر المسافات المستحيلة .

عبير الأمسيات ذلك الساكن الراكن في أعماق البدو الرّحل ، وفي أجواء خيامهم المتعثرة ظلّ وفياً سباقاً يرافقهم حتى بترحالهم بعدما أصاب الجفاف أرضهم وتوغل في أعماقها كالعطش فغادروا النجع وجارف بخيامهم وبأمتعتهم وشياههم وبكل ما حملت نفوسهم الطيبة على ويلات الفاقة والتشرد والجوع .. فرحلوا بصغارهم وآمالهم وبكل أمانيهم .

لقد رحلوا جميعاً بدون استثناء وحتى الدجاجات والقطط وغيرها .. وأخذوا يزحفون قهراً وراء الكلأ قاصدين « الجفرة » في الجنوب تلك التي لم تدعها الحرب العامة الثانية أبداً فسلبتها ما سلبت قبل أن ترحل بويلاتها منذ ثلاثة أعوام وظلت بقايا البقايا من ويلاتها الجسام .

وها هم أولاء جميعاً أهل جارف وبعض جاراتها ومثلهم أهل الصحراء بأكملها يشكلون قافلة راحلة غائصة في أغوار الصحراء وسيتغلبون بالطبع على ما قد تبعثه الصحراء من ويلات تفاجئهم بها فقد تهاجم الثعالب الماكرة الجائعة شياههم وصغارهم وقد تهبّ في وجوههم الرياح بهبوبها المسمومة وقد يتوه فيهم العجاج ذاته وقد يحدث ما لا يتوقعون أبداً ولكن مهارتهم البارعة في الغوص ببحر الرمال تمنحهم الثقة الغالية بأنهم سيتغلبون على ما قد تفاجئهم به الصحراء ..

وها هو ذا المجاهد الأسمر ذاته الذي كاد أن يسقط في معركة القرطابية يتقدم جاهداً في صفوفهم الأولى وترافقه عائشة وصغيراتها الزادمة وعتيقة ونجلها معمر الذي ما تجاوز عقده الأول بعد .. انه يبدو أكثر وسامة من طلته الأولى في الوجود .. طفلاً واهناً اتسم بالهدوء والصلابة تلك التي صنعتها فيه الظروف ودعّمتها البيئة ومكّنها القهر بألوانه وأشكاله .. وها هو اليوم يمشي في زحام القافلة بين الرجال وينظر بتمعن إلى كل ما حوله ، وكم تألمت قدماه من شدة التعب والمسير لكنه ما كان يجرؤ أبداً على الشكوى لأنه اتسم بالخجل أولاً ثم إن المجاهد كان يغريه باستمرار حيث كان يخاطبه بالفارس المقدام .. ومعمر الصغير يصدق المجاهد الذي كان يمنحه في هذا درساً ما نسيه أبداً .

والطريق .. تكبر .. وتطول ، وما زال يمشي واهناً متباهياً بنفسه بين الجموع .. ومتعثراً بالوقت ذاته .. ووحدها ذاكرته العذراء تلك التي ما مستها شائبة بعد .. وما عرفت غير الوادي والبئر والنجع وبعض حكاياته السالفة التي كانت ترويها له عائشة عند الأمسيات .

والذاكرة العذراء تستقبل الصور وتختزنها مباشرة بدون عناء ، تختزن كل ما ارتبط بها من الصلابة والقهر معاً والتعب بدون راحة ، والنسمة المسممة بالتراب وصوراً كثيرة من هذا الشتاء الذي ما عرف المطر .. وتلك الشمس الراحلة في رحاب صدر هذا الوجود .. وصبر الناقة ذاتها تلك التي تحمل على ظهرها أخواته والحافظة الطفلة في اجتهاد بالغ ما زالت تستشف بشفافية متناهية شيئاً من كل شيء وتستقبل كل ما هو جديد .. وبحر الرمال يتسع ويكبر ومعمر منهمك جداً بالتمعن بكل ما حوله وكل ما يجول حوله يبعث بالجديد ويمّكنه كما تمكّن الصحراء كل أهلها فتمنحهم الثقة والصبر على العناء والجوع والعطش ، فمكّنه هذا الجديد برحلته الأولى الطويلة .. الطويلة من أن يتتبع تعاقب الليل بالنهار . وأن يشتق في الليالي لون النجم ذلك المتباهي بكبرياء .. الواقف في أعالي سقف رقعة الوجود .. وألا يهاب أبداً العواء .. عواء الذئاب وعواء الريح والرمال الغاضبة وحتى عواء الزمن ذاته وتعلم كيف يدهس بقدميه الحافيتين أشواك الصحراء لو وقفت حائلاً في طريقه وكيف يحذّر من مطباتها وكثبانها ومن زوابعها وأفاعيها وعقاربها حتى مكّنته أيام تلك الرحلة والرحبة العملاقة سيدة الرمال من أن يتعلم أولى الابجديات فتعلمها بمرارة ومهارة وظلّ علامها علامةً متميزة يتفاخر بها وتتفاخر به .

ولما توقفت القافلة عن المسير قبيل أن يبعث المساء بأدراجه الأولى لتستريح لليلة في عراء هذه الصحراء .. فتستريح النساء وكذلك يستريح الأطفال والشيوخ .. ويستريح القطيع وغيره من شدة عناء ومشقات الابحار في بحر الرمال بعدما قطعت القافلة الراحلة نصف المسافة تقريباً الواقعة بين وادي جارف وعاصمة الجنوب هرع الرجال ينهمكون بفوضوية مطلقة الحدود لينصبوا خيامهم قبل أن تداهمهم ظلمة الليل الكالح في أواخر هذا الشتاء المحلّ .. وانشغلوا بهذا طويلاً في الوقت الذي انشغلت الشمس فيه باستعادة خيوطها وضيائها من الأرض بعين محمرة ذات لون يشبه الدم بل هو أقرب للون البنفسج وبدون خجل كما شردت الصهاينة أهلنا بفلسطين في ذلك الحين .
بعدها فرّ كما جاءت ظلمة الليل إلى حيث خيمة أبيه ولما دلف إليها مبتسماً وجدها مكتظة بالأقرباء والأهل ، بخالاته وأخواله وعمته وأعمامه وبغيرهم .. وعلى الفور هلت عليه تحيات بعضهم بابتسام بالغ ورويداً .. رويداً انخرط في جلستهم ليشرب الشاي مثلما هم يشربونه ويسمع ما يقولون .. فالتزم الصمت كعادته في مثل هذه الجلسات الساهرة بعد أن جلس القرفصاء على مقربة من نار الحطب .. وبدأ يرشف الشاي ويستمتع بأحاديثهم الفوضوية الدافئة .. ونار الحطب هياجة تبعث بالضياء والدفء .
« من أين جاء أجدادنا » كذلك قال أحدهم يخاطب الشيخ مسعود سائلاً : وبعد أن رشف الأخير بعض الشاي أجابه قائلاً :

يقال :

يقال .. إن أجدادنا جاؤوا من الصحراء العربية بعد أن تنقلوا من شرق مصر إلى سواحل المغرب .. وقرروا الاقامة في عراء بحر الرمل .

أردف السائل بقوله :

لقد سمعت بعضهم يقول أن أجدادنا نزحوا من الساقية الحمراء وجدنا الأصلي هو الامام موسى الكاظم المدفون في العراق .

أردف الشيخ مسعود قائلاً :

نحن عرب والعرب أصلاً جاءت من مأرب .. فمهدنا مأرب وسلالتنا طاهرة ما دمنا أفضل العالمين .. وقذاف الدم ولي من أولياء الله الصالحين وهو أقرب إلينا من موسى[1] الكاظم . ما دمنا قذاذفة .. وقد يكون الكاظمي نفسه واحد من أجدادنا ولا أستبعد هذا لأننا جميعا أقصد العرب أبناء سلالة واحدة ولو كثرت الفروع في هذا المضمار فكلنا ينحدر من شجرة واحدة .. كلنا واحد .. والشيخ يتحدث بحرارة .. والكل يستمع ويستمع .. والنسوة تتحدث .. وتتحدث أحاديثاً بلون الحنة والذهب .. ونار الحطب عليها أن تبقى هياجة تبعث بالدفء والإنارة .

ومعمر الصغير ها هو قد نهض من جلسته وتسلل بهدوء ليخرج من خيمته إلى وجه العراء ولما خرج جلس على مقربة من مشارف خيمته وحيداً وكأن النجم في السماء قد استدعاه وحده ليتمعن بعيونه وبلونه وبريقه وقنديل الكون واقف .. ولكن بماذا كان يفكر معمر صديق النجم والشارد بفكره وهيامه بجمال ورونق ذلك القنديل البعيد .. فجأة تلفتت عائشة حولها فلم تجد ابنها .. فتسللت إلى خارج الخيمة وهي تنادي بصوت مبحوح « معمر .. معمر أين أنت يا ولدي ؟ » .

« أنا هنا يا أمي .. أنا هنا » كذلك قال يخاطبها ..

ولما اقتربت منه استطردت .. ماذا تفعل هنا يا معمر .

— أراقب النجم واتمتع برؤية القمر .

مدهوشة قالت : ماذا .. !! تراقب النجم وتتمتع برؤية القمر .. ألا تخاف من أن تأكلك الذئاب أو ثعالب الليل الجائعة .. هيا .. هيا ادخل .. هيا .. فدخل برفقتها إلى حيث نار الحطب ما زالت ساهرة تغرغر وحولها الطيبة تتنفس والفطرة بحالها والنقاء بأرقى مستوياته .

وبعدها أخلد معهم إلى النوم فنام نوماً عميقاً ووحدها الأحاديث في حالة غليان .. باقية ما دامت نيران الحطب وهاجة وما خمدت بعد ..

(1) هو : موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن الامام علي ابن أبي طالب . ولد بالمدينة سنة مائة وثماني وعشرين للهجرة . وتوفي في سنة 186 هـ . والكاظم سابع الائمة الاثنى عشر عند الامامية كان من سادات بني هاشم ومن أعبد أهل زمانه وأحد كبار العلماء الأجواد .. وكان قد رافق جميع الأدوار التي مر بها والده الامام (ع) ورأى المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها الامام بين المسلمين وكثرة الملتفين حوله ليأخذوا عنه معالم الدين .

من أقواله المأثورة :

أن قوماً يصبحون السلطان فيتخلصهم المؤمنون كهوفاً فهم الآمنون يوم القيامة أما والله لئن عز بالظلم في الدنيا (يعني الرشيد) ليذلن بالعدل في الآخرة . وما أهان الدنيا قوم قط إلا هنأهم الله أياها وبارك لهم فيها وما أعزها قوم قط إلا بغضهم الله إياها ..

ومرت تلك الليلة بما حفلت وتواردت من بعدها عدة ليال بعدها استأنفت القافلة سيرها وأخذت تغوص من جديد ببحر الرمال قاصدةً الجفرة في الجنوب راجية أن يصدق المثل الشعبي الليبي القائل : « نصف ربيع لفوق ولا ربيع لوطة » .

وأخيراً طلتْ « سوكنا » الجنوب زاهية فرحة بنضرة واحاتها ومراعيها الخضراء ففرحت القافلة تلك التي وصلت بعد العناء إلى مشارفها ، فوجدت الربيع عامراً في أحضانها وأطرافها .. كما النخل شامخاً بكبرياء لا يضاهيه كبرياء .

وقبل أن ترمي الإبل بحمائلها لتستريح .. وقبل أن ينصب الرجال خيامهم .. هرعت الأغنام تزاحمها الماعز لتفتتح الموسم وتبدأ بالتهام العشب بعدما شربت الماء حتى الثمالة فارتوت . ونوع من الارتياح البالغ قد أصاب تلك النفوس الوافدة للجنوب .. القادمة من العطش للماء والخضرة فارتوت وحفلت بما حفل به فصل الجمال بعدما نصبت خيامها واستقر بها المقام لعدة أشهر من عمر الزمان . والصغير معمر ما زال يحمل بيده عصاه وها هو فرح كفرحة الوجود بالماء والخضرة .. بل كفرحة الحياة بلونها الحقيقي .. ثم فرح فرحاً عظيماً عندما ناداه المجاهد وأخبره بأنه سيصحبه معه من الغد ليعرفه بالمعلم الذي يلقن الأولاد التعليم الأولي فيعلمهم أولى الكلمات وأول القراءة من كتاب الله العزيز .

فجأة .. كما تداهم الريح الخيام .. داهمتهما زغرودة الأم عائشة التي أسعدها هذا الخبر حيث أخذت تقول وبصوتٍ عالٍ : « سيتعلم معمر .. معمر سيتعلم .. وحيدي سيتعلم » .

في هذه اللحظات انتاب معمر صمت طويل .. سره يكمن بفائق السرور الذي قرأه في فرح أمه وبذلك الأمل الدفين الراكد في أعماق المجاهد .. الذي بدا عليه فرح الدنيا وهو ينقل الخبر لمعمر . وبعد الصمت بدأ الخيال الطفل ينسج صوراً مختلفة بنيانها وألوانها وصلبها حب التعلم والمعرفة ذلك الحب الكبير الذي اختلط بأنفاس معمر .. ودخل إلى شرايين دمه .. وفي مسمات جلده ووراء عينيه .. وأمامها إلى ما لا نهاية .. إلى العالم كله .. وكم طاف خياله وهو يتصور نفسه يحمل كتاباً ويقرأ به وحوله الصغار من هم في سنه وحتى الكبار الذين ما تعلموا القراءة والكتابة .. تخيل نفسه وهو يرسم الأحرف رسماً ليبعث مع الغد كلمات سيكتبها للموت الذي يراه يفترس الناس بدون استئذان ويبعث الكلمات لذلك النجم المتباهي بنفسه .. كنفسه .. وكم تلذذ صاحب هذا الخيال بتلك الصور الوليدة ثم نطق وقال بفرح .. سأتعلم .. سأتعلم ..

وبعدها فَر لقطيع أبيه ليساعده على خدمته ورعايته .. وما فارقته الفرحة ومرارة الانتظار حتى جاء صباح اليوم التالي فذهب برفقة المجاهد إلى حيث يقيم المعلم حلقته وحوله الصغار من كل مكان وفي مختلف الأعمار .

ولما وصلا بين يديه فوجىء الصغير بأن المعلم لم يرحب به كما يجب بل حدجه بنظراته الساحقة وقال يخاطبه بعصبية :

– ما اسمك . ؟

– أجابه الصغير : اسمي معمر بن محمد .

المعلم : تقدم .. تقدم .

فتقدم معمر عدة أشبار .
استطرد المعلم قائلاً : ما بالك خجلاً .. فطالب المعرفة عليه أن لا يخجل .
فتقدم معمر أكثر .. فأكثر وهو ينظر للمعلم نظرات غير عادية .
ثم أردف المعلم يخاطب المجاهد قائلا :
يمكنك الذهاب يا رجل .. ولا تشغل بالك سيتعلم بإذن الله .
وذهب المجاهد على أن يعود بعد عدة ساعات ليصحب معمر إلى خيمته .
والصغير ما زال واقفاً بلا حراك ينتظر ما سيقوله المعلم .. أو ما سيأمره به ..
وقال المعلم أخيراً .. وبعصبية ..
« ما بالك واقفاً .. هيا انخرط في صفوفهم .. هيا انخرط في صفوفهم » بعد أن أشار بيده اليسرى إلى الطلبة .
وانخرط معمر على الفور في صفوف الطلبة .
وبدأ يتلقى أولى الأوليات فى علامه .
حيث أخذ المدرس يقول وبصوتٍ عالٍ .. رددوا معي .. رددوا معي ..
بسم الله الرحمن الرحيم .
الطلبة : بسم الله الرحمن الرحيم .
المعلم : قل هو الله أحد .
الطلبة : قل هو الله أحد .
– الله الصمد .
– الله الصمد .
– لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
– لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
ثم كرة أخرى المعلم يقول والطلبة تردد ما يقوله .. وما أن مر من الوقت ربع الساعة حتى قال المعلم يخاطب الطلبة .
من منكم يقرأ لي ما رددناه من الآية الكريمة من كتاب الله العزيز .
وبعد أن احتار الطلبة في ذلك وبدأ الواحد ينظر إلى الآخر .. قال معمر أنا ..
فقال المعلم هيا يا أنت .
فقال معمر بطلاقة استغرب لها المعلم :
بسم الله الرحمن الرحيم .
قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .. صدق الله العظيم .
المعلم مدهوشاً قال : من أنت .. من أنت ..
الصغير بطلاقة : قلت لك أني معمر بن محمد .
المعلم مبتسماً : « أحسنت يا ولدي أحسنت » وبعد ذلك ضرب به المثل .
واستمر الدرس .. ومعمر شديد الانتباه لكل ما في الدرس وحتى لنظرات وحركات المعلم .

وقبيل العصر عاد المجاهد ليصحب ابنه إلى خيمته ولما وصل إلى حيث تقام حلقة الدرس انتظر قليلاً .. بعض الوقت .. خلاله كان المعلم قد أنهى درسه وقال بعدما أن عبر عن إعجابه للصغير معمر مخاطباً الطلبة :

– عند هذه الصخرة السوداء نجتمع كل يوم لنغرف ما نتمكن منه من خير وبيان القرآن الكريم ومناهله الخصبة أسمعتم ..

الطلبة : « نعم .. نعم » ثم تفرقوا إلى حيث جاؤوا .. وذهب المعلم لحاله يضم تحت ابطه بعض الكراريس ويحمل بيده كتاب الله العزيز .

ثم انصرف معمر بصحبة المجاهد الذي أخذ بدوره يرسم له ويبين الطريق من خيمته إلى حلقة الدرس على أن يأتي منذ الغد ويذهب لوحده .

ها هما قد وصلا إلى خيمتهما بعد أن انحدرت الشمس باتجاه الغروب .. ولما دلفا داخلين إليها وجداها تغص بالنسوة .. وكلهن ابتسمن لمعمر فانهالت عليه تحياتهن وخاصة تحيات خالته رجعة بن نيران التي طارت فرحاً بابن أختها ..

ومنذ ذلك اليوم بدأ معمر ينهل من مناهل القرآن الكريم .. فيذهب ويعود وحده وظلت الحال على ذلك حتى قررت القافلة العودة إلى النجع ففوجيء معمر لهذا .. وهذا يعني بالنسبة له أنه سينقطع عن الدرس ما دام الجميع قد قرروا الرحيل والعودة إلى جارف بعد مضي كل هذه الشهور في سوكنة الجنوب .

ولا مناص من العودة إلى « بئر الكراعية » ولا محال من أن ينقطع عن الدرس .. فدخل في حيرة محزنة آلمته كثيراً .. حتى بدا عليه الحزن الشديد لما انزوى وحده وجلس على مقربة من الخيمة يتفكر شارد الذهن والبال .

وكعادته ... أسعف المجاهد الموقف قائلاً لصغيره بعدما قرأ في وجهه الحزن :

– ما بالك حزيناً يا معمر .

أجابه الصغير بحزن .. لا مناص من العودة .. ولا مناص من أن انقطع عن دروس القرآن الكريم .

فأردف المجاهد بقوله :

– وأين تجد المشكلة يا ولدي ؟

معمر : أحقا يا والدي لا تجد في هذا مشكلة .

المجاهد : نعم .. لا أجد بهذا مشكلة فنحن لا بد أن نعود لجارف فجارف عمرنا وذكرياتنا ومسقط رأسنا .. ولها الكثير من الشوق في أعماقنا . أما عن علامك .. فسآتي لك بمعلم إذا شاء الله لك ذلك .. وهذا وعد أيها الفارس المقدام .

فضحك معمر .. ضحكة صافية ثم فر لأمه يساعدها في الاعداد للسفر .. وانصرف المجاهد لصحبه من الرجال ليندمج بينهم في آخر أمسية من أمسيات الجنوب .

وجاءت تلك الأمسية حافلة .. بكل ما ملكوا .. من ضحك وشوق واحتراق .. ونار الحطب مشتعلة كشعلة النصر .. فلقد انتصر الجميع لانتصار الماء والخضرة على الجفاف والعطش .

وزحف الليل .. وما زحفت عن الخير أحلامهم وآمالهم وأمانيهم ثم توغلت ظلمة الليل في صدر الكون وفي رحابه . توغلاً لم يدم .. بل فرّ هارباً إلى حيث جاء إلى أن جاء الفجر ضاحكاً .. فعلا صوت الديك موقظاً .. واستفاق الجميع كباراً وصغاراً ليغسل ندى الصبح وجوههم .. ثم لملموا أشياءهم وشكلوا من جديد القافلة التي أعلنت عن رحيلها لما أشرق الصبح وانتشر .. فأخذت تشق طريقها عائدةً إلى وادي جارف .. فدخلت بحر الرمل .. وأبحرت فيه كما تبحر خيوط الشمس وخيوط الدفء والنهار .

ومر النهار فتلاه الليل ثم تعاقبت الليالي وطالت .. والذاكرة الطفلة ما زالت تنتهز الفرصة وتستقبل الصورة بمهارة .

وذات نهار .

بالضبط بعد العصر تماماً وبينما كان يجلس المجاهد وعلى مقربة منه صغيره معمر جلسة استرخاء بعد تعب تسللت إلى مجلسهما أفعى من أفاعي هذه الصحراء .. وقفزت بغدر لتلدغ قدم الصغير فانتفض المجاهد من مكانه وحطم رأسها بقدميه .. عندها قال لصغيره ..

لا تدع الخوف يتمكن منك أبدا .. فلا شيء في هذا العالم يخيف .. والخوف من الله وحده .

نحن لها .. أفهمت يا ولدي .

معمر : لم أنتبه إليها .

المجاهد : عليك أن تكون شديد الحذر طالما تبحر في الموطن الفظيع .. فالصحراء برغم رحابة صدرها الا أن أعماقها مليئة .. ومخاطرها لا تعرف الوسط إما أن تدهسك أو تدهسها أفهمت :

– « نعم .. نعم » كذلك قال الصغير بعد أن هز رأسه إلى الأسفل .

وبعدها غادرا جلستهما .. وانصرفا إلى حيث عائشة وصغيراتها .

ومن جديد تابعت القافلة رحيلها بعد استراحة يوم واحد في عرض الصحراء وتتالت الأيام ووصلت إلى جارف .

وجارف مشتاقة لدفء أهلها وفرح صغارهم ورجائهم .. وها هي كالولهانة .. عاشقة تستقبل عشيقها .. وكذلك في حضنها « بئر الكراعية » والنجع .. هائمين لعودة الأهل لديارهم .

والأهل فرحون غانمون بالتمر والشعير .. وها هم قد نزلوا للوادي قادمين من الجنوب بعد غياب .

وقبل غياب الشمس قامت الخيام في النجع وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي ، ووحدها تلك الأمسية ما عرفت عبق العبير .. ولا الأحاديث الساهرات .. لأن البدو في خيامهم المتعثرة قد ناموا بعد أن أضناهم تعب الرحيل .. فما استطاع عبير المساء أن يكون لهم في هذا اليوم رفيقاً .

كان الصيف الحارق قد ولّى وكذلك حرارة آب اللاهبة التي امتصها امتصاصاً فصرعها ثم ابتلعها فصل الريح الغاضب ليهيء طريقا سالكة للاعصار القادم من وراء البحار .. وظلّتْ الطريق إلى فزان سالكة رغماً عن أنف الريح والاعصار .. إلا أن الصعاب لم تتخل أبدا عن مناحرة ومنازلة المجاهد الذي طالما طارده الموت وصارعه وما أسقطه .. وعن مناحرة رفاقه القاصدين فزان لمقايضة

الإبل بالتمر وبعض الحاجيات .

وها هو المجاهد محمد تقله سفينة الصحراء على ظهرها وتسبح شاردة بعيون المدى .. بأمانيه وأحلامه وحتى بذكرياته الملتهبة .. وبين تارة وأخرى كان يتذكر .. ويتذكر .. وكلما خطفه الذهول داهمته نشوة غريبة عظيمة كنشوة الراكع بين يدي ربه .

والناقة سابحة ذاهلة شاردة مثله .. تتلذذ بالصبر ولا تخاف من العطش وكذلك كان يتلذذ بكل ما تعنيه له القرظابية(1) .

والقرظابية عرفها شاباً فعرفته مجاهداً صلباً .. وصارعته وما استطاعت أن تسقطه . القرظابية رمز يبقى للكفاح المرير من أجل الوطن والحرية .

القرظابية .. ذاتها ذكريات ما زالت في كهوفها بشوقها .. وباحتراقها .. برفاقها ورفاقه .. يوم تمرد على التسلط فهزه بفزعته وعزيمة رفاقه .. ويوم أعلن أنه سيصرع الموت وسيقتله ففر منه الموت هارباً .. خائفاً .

والريح من كل صوب .. وما زال المجاهد أسيراً يخطفه الذهول ليعود به إلى الربع الأول من هذا القرن .. وصحبه المسافرون إلى فزان كل بحاله على ظهر ناقته .. المبحرة في الرمال .. وكل يلف جسمه بثوب صوفي ويلفح وجهه كما تفعل الطوارق ..

والكل يزحفون كما يزحف الخريف ليحتل بقاع العالم .

فجأة توقف الرجال لبرهة من الوقت أثر زوبعة بدأت تعترض طريقهم وتتراقص كالأفعى العملاقة لتلدغهم وكادت أن تلتف حول أحدهم وتدفع به إلى أعماق أمّنا الأرض .

لكن حذرهم أنقذ الموقف .. وخاصة أنهم يبحرون في فصل الغضب الذي تكثر فيه الزوابع والكثبان الرملية .. وكانت النتيجة هي النجاة بفضل ذلك الحذر .

وعاودوا زحفهم من جديد ..

ثم عاد الذهول ليخطف المجاهد الذي يتلذذ بكل ما كان قد حدث في ماضيه من فرح وحزن .. ومن لين وصلابة .

وها هو يتذكر يوماً جاء فيه معمر أشعل الزغرودة ثم أطفأها ثم جاء بالفرح الطويل وكم تلذذ بذكرى معمر وخاصة في المواقف التي وقفت حائلاً أمام علامه .. ليستفيق فجأة من ذهوله ويقول في سريرته قولاً فيه إصرار ..

« سيتعلم معمر .. مهما كان الثمن .. سيتعلم .. سيتعلم .. » ..

(1) القرظابية : « بئر القرظابية » ويطلق عليه اسم آخر هو قرارة القرظابية وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة سرت على بعد حوالي 20 كيلومتر . وقعت بها معركة شهيرة بين القوات الايطالية والمجاهدين يومي 29 ،28 أبريل 1915 م حقق فيها المجاهدون نصراً أدى إلى اشتعال الثورة ضد الوجود الايطالي في كامل القطر الليبي مما جعل الحكومة الايطالية تقرر انسحاب قواتها من جميع مناطق الدواخل لينحصر الوجود الايطالي في نقاط متقطعة على الساحل لا تزيد عن خمس نقاط وهي زواره – طرابلس - الخمس – بنغازي – طبرق . وهي بحق معركة الوحدة الوطنية في ليبيا حيث اجتمع فيها المجاهدون من جميع أرجاء القطر شرقه وغربه وجنوبه . « مركز الجهاد الليبي – طرابلس الغرب » .

عندئذٍ كانت الشمس قد غابت .. ثم تبعها المساء والليل .. وجاء النهار فتلاه نهار ..
ومن جديد .. تواردت الليلة تلو الليلة .. حتى وصلوا بعد مرارة السفر إلى فزان العظيمة وفيها مكثوا لعدة أيام قايضوا الإبل بالتمر وببعض الحاجيات ثم قرروا العودة للديار .. إلا أن المجاهد لم يتمكن من العودة برفقتهم لأنه عَزم على الذهاب إلى منطقة سمنو لإحضار المعلم منها ليفي بوعده لصغيره معمر .. وكم تعثر في عزيمته هذه وفي البحث عن المعلم جبريل الطاهر الذي كان قد غادر منطقته لعدة أيام .
ومكث المجاهد في سمنو ينتظر عودة جبريل .. وما أقسى وأصعب انتظاره !!
ومر على انتظاره عدة أيام .. بعدها حضر السيد جبريل وفوجىء بأن المجاهد قد انتظره طيلة هذه الأيام .. فاهتم به اهتماماً بالغا حيث استضافه في بيته لثلاثة أيام بعدها لبّى رغبة المجاهد في أن يذهب إلى جارف ليعلم ولده معمر .. وحصل ذلك .. فرحلا معاً باتجاه وادي جارف ..
ومعمر في الوادي يرقب الطريق كل يوم .. وينتظر بفارغ الصبر عودة أبيه برفقة المعلم ..
وكم مر على انتظاره .. ولا جدوى فلقد تأخر المجاهد هذه المرة وليس من عادته أن يتأخر كل هذا التأخير ..
وانتظر الصغير .. طويلاً .. طويلاً .. وما أصعب انتظار الطفولة لو أرادت لشأنها شيئاً ما .
وبعد الظهر من نفس اليوم حيث كانت الريح تناطح كل شيء .. دلف الرجال العائدون من فزان إلى النجع الواقف في حضنه بئر الكراعية .
ومعمر الصغير .. ملكته الفرحة لما سمع بقدومهم فركض باتجاههم ولن يجد في قافلتهم لا أباه ولا ناقته ولا حتى الرجل الغريب الذي سيعلمه وبدأ يتلفت يميناً وشمالاً والمجاهد ما عاد بعد .. فغمره الحزن الشديد ثم لجأ لأحدهم يسأله عن أبيه فأجابه قائلاً :
– سيتأخر أبوك بسبب احضار المعلم .. فهو ما زال في فزان . عندها استأنف الصغير انتظاره لأبيه راجياً عودته بسرعة .

وذات يوم وبينما كان يجلس على صخرة غرق نصفها في سطح التلة الصغيرة المزاحمة غيرها من الظهرت في الوادي .. لفت نظره .. من هناك .. من بعيد ناقتان قادمتان .. فابتسم ابتسامة عريضة .. عريضة .. وجعل يركض باتجاههما بعد أن نهض من جلسته .
وطلت بل أشرق وجهها .. ها هي السفينة التي تقل المجاهد قد حضرت محملة بالتمر والخيرات وتتبعها ناقة هرمة وغريبة لم يألف معمر شكلها من قبل حيث أخذ يقول في سريرته وهو ما زال راكضاً باتجاههما :
– أنها ناقة المعلم .. أنها ناقة المعلم .
ولما حاذاهما .. اقترب أكثر .. فأكثر من حاملة أبيه على ظهرها وابتسم لأبيه ابتسامة الفرح ... فابتسم المجاهد ومد يده لمعمر .. ولما مد معمر يده رفعه المجاهد إلى حضنه وقبله ثم قال له مبتسماً :
لقد حضر المعلم أيها الفارس المقدام .
فأجابه الفارس المقدام الجالس في حضنه على ظهر الناقة .

- « لقد تأخرت يا أبت » .

فأردف المجاهد قائلاً :

- « أنت السبب .. أنت السبب فأنا لم أتمكن من لقاء المعلم جبريل إلا بعد الانتظار الطويل .. الطويل .. » ثم سكت وعاد فاستطرد قائلاً :

- كيف حال أمك وأخواتك وأهل النجع .

أجابه معمر : كلهم بخير أنهم بانتظار عودتك وقدوم التمر والحاجيات .

فضحك المجاهد .. ضحكاً طويلاً .. وكذلك معمر .

وهنيهة من الوقت مرت .. وها هما قد وصلا إلى المخيم .. وبركت الناقتان من التعب لتستريحا بعد أن أزيح الحمل من على ظهرهما .. وبعد أن قدم لهما الماء الذي جاءت به عائشة .. ورحب معمر بضيفه كل الترحاب وكذلك فعل أهل النجع بمن فيهم الشيخ مسعود .

ومرّ على ذلك اليوم عام ونيف كان معمر خلاله قد استزاد من المعرفة على يد الطاهر الورع الذي علمه القراءة والكتابة ومبادىء علم الحساب والقرآن واستمتع كثيراً برفقة تلميذه الذي تميز بالمثابرة والاجتهاد البالغ وبذكائه وخياله الخصب .. وقرأ في عينيه حب التمرد والشوق لما هو جديد .. وكان يتابعه خارج حلقة الدرس ويهتم بشخصيته التي كانت تتشكل أمام ناظره وينظر فيما تفعله هذه النفس الطفلة في ظل هذه الأجواء الهرمة الأكثر قهراً وقساوة وحرماناً . وكم أعجبه منظر تلميذه عندما كان يراه مصادفة جالساً وحده منزوياً على مقربة من بئر الكراعية يتأمل .. ويفكر .. ويراقب كل ما حوله بحرص متناهي الحدود .. والذي أدهشه حتى الغرابة . أسئلته الكثيرة تلك التي لم يتمكن هو نفسه من الاجابة عليها .. بالوقت الذي لم يتنبأ الطاهر . لتلميذه إلا بالتفوق في طلب العلم لا أكثر .. لأن الظروف (ظروف الصحراء وأهلها المنسيين والجو العام ذلك الجو الفقير المعدوم) لم يسمح للطاهر أن يتخيل أبداً أن وراء هذه الشخصية التي عاش معها عاما ونيف بكل ما تملك من نقاء وصفاء ودفء ووجدان وبراعة في المنطق وحنكة طفولية ما عرفتها الطفولة .. وصلابة في الوصول إلى الهدف والنيل منه .. تلك الشخصية التي صنعتها حرقة الشمس وصقيع الشتاء وداهمها الجوع والعطش .. وكل حرمان قد يبعثه الوجود للبشر .. لم يتوقع الطاهر نفسه لها غير التفوق في طلب العلم لا أكثر .

وجاء اليوم الفاصل لينقطع الدرس .. اثر اضطرار المعلم جبريل لمغادرة النجع وعودته لدياره في فزان .

وقبل رحيله خاطب معمر قائلاً :

- مع خالص حبي أقدم لك اعتذاري واتمنى لك مستقبلاً باهراً في الاستزادة في طلب المعرفة وكل ما بقي أن أقوله أحسنت يا رفيقي الصغير .. أحسنت يا معمر .

فأجابه معمر قائلاً :

« بكل العرفان أشكرك .. فأنت الذي علمتني كتابة الحرف .. وعلمتني كيف أصنع الكلمات ودللتني على حقيقة معنى العرفان .. فها أنا أشكرك على ما علمتني إياه » .

ثم سكت .

وعاد فاستطرد قائلاً قولاً أبهر المجاهد وأدهش المعلم جبريل :
— ذات يوم سأنتصر .. وعندها سأذكرك .. واذكرك .

ثم رحل المعلم برفقة ناقته إلى فزان غانماً بما منحه إياه المجاهد .. وغانماً بذكريات عام كامل قد قضاه مع تلميذه معمر .

وبينما كان قد قطع مسافة لا تبعد عن النجع كثيراً قال في سريرته مندهشاً يردد ما قاله له الصغير في وداعه « ذات يوم سأنتصر .. وعندها سأذكرك .. وأذكرك » .

ثم داهمه الصمت فصمت طويلاً وبعدها عاد ليقول بصوت عال :

« ستنتصر .. يا معمر .. وستذكرني .. فلقد قرأت في عينيك الوفاء .. نعم .. نعم .. ستنتصر ما دمت أنا قد قرأت في عينيك الوفاء » .

وبعد ذلك جاءه الشرود الطويل .. ليساعده ويكون له رفيقاً في رحلته .. والناقة سابحة بفيافي الرمال قاصدة قفار فزان والنخل ذات الأكمام .

وهنا دخل معمر في معمعة جديدة في طلب العلم .. فالمعلم جبريل قد رحل وبرحيله انقطع الدرس .. فما كان منه إلا وأن لجأ للانزواء طويلاً في الوقت الذي كان يستفيد فيه من هذا الانزواء وبتأمل عمق الأشياء بعينيه الثاقبتين .

ومرة أخرى .. عَزم المجاهد على ان يسعف الموقف وأصرّ على أن يتعلم معمر لما لحظه فيه من اجتهاد بالغ وّجد مطلق في حب المعرفة .. فذهب إلى سرت قاصداً مدرستها ولما وصلها ودخل إليها اجتمع بالقائمين عليها وقدم لولده معمر طلباً وبعد جهد جاهد تمكن من تسجيله في المدرسة التي سيصلها معمر متأخراً .

وبعد أن تم انتحار قرص الشمس الذي ما انفك عن مناطحة الرمال ، حتى صرع فسقط في حضنها .. وابتلعته لليلة واحدة من ليالي خريف ما عرف الغضب .. ووصلت في ذلك المساء النسمة الباردة بعد سفر قادمةً من بلاد الورد الثلجية لتدخل مع العشية.خلسة داخل أجواء خيمة الفاضلة ، ولما دلفت لتحتل لها مكاناً في أجوائها الداخلية فوجئت بالصغير معمر راكعاً خاشعاً بين يدي ربه يؤدي فريضة صلاة العشاء فما كان منها إلا أن مرت من حوله ثم اقتربت منه وقبلت خده الأيسر خلسةً قبلة طويلة أحس انها قد أثلجت خده فأثارت غيرة نار الحطب المتوهجة الواقفة على يمين معمر فتأججت وألهبت ذاتها بذاتها لتجبر النسمة الوافدة على مغادرة الخيمة ، وأفلحت في ذلك عندما وقفت النسمة المطرودة خارج الخيمة حيرانة مشتاقة تود الرجوع إلى مناحرة روح اللهب واغتنمت الفرصة عندما أطل متأخراً المجاهد القادم من سرت .. وعندما دخل إلى خيمته دلفت بصحبته أثناء فرح الجميع بعودته وتوجهت مباشرة إلى حيث وقفت نار الحطب الملتهبة الأنانية وصارعتها وصارعتها حتى الثمالة فانهزمت أمامها وفرت هاربة إلى خارج الخيمة ووحدها بنت الحريق روح اللهب تلذذت بطعم انتصارها على الوافدة الدخيلة وانتعشت بانانيتها المطلقة كثيراً .. كثيراً فمن قال أن الأنانية لا يعرفها غير البشر !!

ثم جاءت الفرحة لتسقط عرش النار وتعتليه وقتا لن يدوم طويلاً ، وبعد أن فردت جناحيها وغمرت أهل الخيمة بدفئها بمن فيهم الزادمة وعتيقة توغلت في أعماق الطفل توغلاً لا مثيل له عندما عًلم من أبيه أنه سيلتحق بعد أيام بمدرسة سرت .

ورحلت تلك الأيام العدة في طريق النسيان وجاءت اللحظات الحاسمة ذات القيمة التي حطت أوصالها في دائرة انتظار الطفولة مع أول ساعة من ساعات هذا الفجر حيث جلس الصغير ينتظر بفارغ الصبر بدء لحظة الرحيل إلى سرت المدرسة والمعلم والرفاق .

وطال الانتظار .. وها قد مرّ على صلاة الصبح ساعة ونيف والمجاهد ما أعلن لولده عن لحظة البدء .

وقبل أن تشرق الشمس .. ناداه المجاهد قائلاً :

هيا .. يا ولدي فقد آن موعد الرحيل إلى سرت .

عندئذٍ غرد صوت روحه تغريداً .. فابتسم .. وابتسم ثم قال

أنا مستعد للرحيل يا أبت .

وخرجا من الخيمة قبل أن يخرج الدفء للكون .. ونهضت الناقة من رقادها ثم ركبا على ظهرها .. بعد أن غسل ندى الصبح وجهيهما وأخذا يشقان طريقهما إلى سرت ..

كانت رمال الصحراء تواكب الصبح بأغرودة النسمات الرقيقة وبأشعة الشمس التي انبثقت متأخرة .. والطريق خالية من أزير أصوات الخلائق .. قفاراً تبعث الحياة للبائسين وكأنها في هذا اليوم بالتحديد ترفق بالمجاهد وبولده أيضاً .

ومخيلة طفلة ترسم بريشتها التي لا تشبه ريشة الزمن صورة تتوقعها لسرت المدرسة والدرس والمعلم .. والنفس دافقة .. معذبة تتطلع لكل جديد .. وتنتظر كل جديد وما خطر ببالها الحلوى .. والأرجوحة .. ولا حتى التسلق إلى أعالي الأشجار الباسقة .. وكل همها الجديد والمعرفة وما أصعب هذه النفس التي ما عرفت شجون وفرح وضحك طفولتها .. وكان ذلك من صنع القدر .

والناقة في الجرداء سابحة شاردة ومثلها الماهر ونجله الواهن .. وفجأة من على مد البصر ها هي قد أطلت سرت الساكتة للمرة الأولى لناظر معمر فبدت له جديداً لم يعرفه أو يره من قبل .

سرت النائية النائمة في سبات طويل منذ وقف التاريخ لذاته بإجلال .. واقفة في مكانها بلا حراك .. لا تتزعزع .. ولا تضطرب كثيراً . فقد عرفها الأزل وعرف أنها قد خبأت في أعماقها امبراطورية قديمة وظلت من يومها خرساء لا تنطق ولا تعرف الضجة والصخب وكأنها خاشعة دوماً كخشوع الزاهدين صامتة كصمت المذبوح المعلق بحبل المشنقة .. زارها المستعمر بجحافله القذرة الملوثة وما استطاع أن يدنسها أو يلوثها .. وما مكث فيها طويلاً .. وما زارها الثلج ناصع البياض منذ طوال السنين مازار أزقتها الضيقة ولا حتى مساكنها المكعبة المتناثرة هنا وهناك على التلال وحولها .

في سرت النائمة بين البحر رفيق المدى والفالتة البيداء سيدة الفلا .. قد لا تجد للعهر موطناً فما حفلت ذات يوم بأسواق النخاسين والنحاسين والسمر .. ولا تجد فيها مواضع للذل وأذياله

المكارين الدجالين ، فلقد مكنتها التقاليد والأعراف الموروثة عن سالف الأسلاف كما تمكّن الأم رضيعها باللبن من صدرها والحنان .

والناس فيها مثل ألوانها الصافية الغافية امتصتهم حرقة الزمن وويلاته فامتصوا من البحر غضبه وسكاته .. ومنحهم حبه وحكايات الوفا من عمر الأساطير .. وكذلك الصحراء وهبتهم الكثير .. الكثير من رحابة صدرها وخوفها .. وحيرتها . وناس سرت أناس لا يعرفون غير الله مسعفاً ومنقذاً .. ضعفاء أقوياء أمام الاعصار والعطش وأمام الغيث والمطر .. وذاتهم في طباعهم كالبركان الذي لو انتفض من قاعه لجرف ما يجرف وما لا يجرف ، وذاتهم كالمحبة واللين والزغرودة من عمر الفرح .. أعزاء .. أعزاء من عزتهم عزة الجبل ذلك الذي ما اهتدى إليهم منذ مهدهم .

وها هي قد وصلت أخيراً الناقة ذات الكبرياء مناحرة العطش بعد أن قطعت على قدميها حوالي ثلاثين كيلومتراً .. ها هي قد وصلت إلى قلب سرت الساكتة لتقف .. ثم تجثو وتستريح على مقربة من بوابة مدرسة سرت الابتدائية .. عندئذٍ غادرها المجاهد وولده وهرعا ليدخلان إلى المدرسة ولما اقتربا من البوابة أكثر .. فأكثر فوجئا بأنها مغلقة بإحكام .

– « لقد تأخرنا عن موعدنا » كذلك قال المجاهد يخاطب ولده .

فنطق الصغير قائلاً : وماذا سنفعل الآن ؟

أجابه المجاهد قائلاً : يمكننا الذهاب إلى بيت أختك سالمة .. ألم تشتق إليها .

– نعم أشتاق إليها وتسعدني رؤيتها ولكن .. ولكن .. ثم سكت .

المجاهد : – ولكن ماذا يا صغيري .

– المدرسة .

المجاهد : – ستأتي إليها مع الغد برفقة زوج أختك .. هيا .. هيا .. لكي لا يفوتني الوقت ...

ورحلا .. إلى حيث يقف بيت سالمة .. وعلى مقربة منه توقفت الناقة ثم جثت كرة أخرى لتستريح .. ودلف معمر وأبوه لبيت سالمة .

وفرحت سالمة بضيفيها كل الفرح .. وأسرعت لتعد لهما الطعام والشراب وقبيل العصر غادر المجاهد سرت قاصداً الوادي .

وفي صبيحة اليوم التالي ذهب معمر الصغير برفقة زوج أخته إلى المدرسة ولما دخلها للوهلة الأولى شعر بلذة الانتصار .. فلقد تحقق ما أراد .. لكنه فجع عندما دخل الفصل وقابله المعلم بإحتقار .. ولكن علام هذا الاحتقار ؟ ربما يكون هذا أسلوباً سخيفاً يعتمده المعلم لرهبة الطالب المستجد .. ثم ثار غضب الصغير الذي ظلّ كامناً في نفسه عندما بدأ الطلبة يضحكون .. ويضحكون .. ويضحكون ساخرين من منظر الصغير الذي يرتدي ثيابه البدوية .. ولم يبال الصغير بهم بل حدجهم جميعاً بنظرته الساحقة .. وتقدم نحو المقعد المخصص له وجلس عليه لأول مرة ثم بدأ الدرس بعد عدة لحظات .. والطلاب ما كفوا عن السخرية أبداً .. فصرخ أخيراً في وجههم المعلم الذي أخذ يقول :

يكفي .. يكفي .. لنبدأ الدرس .

وما أن بدأ الدرس حتى قال المعلم ..

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » بدون أن يبدأ بالبسملة .

فرفع معمر يده ليقاطعه قائلاً :

أيحق لك يا أستاذ أن تقرأ آية بينة من كتاب الله دون أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم .

فدهش المعلم من البدوي الصغير وقال له بعصبية :

لا تقطع الدرس أيها البدوي .

وضحك الجميع ضحكاً طويلاً .. طويلاً .. والصغير كالواهن يكبت غضبه في أعماقه .

ومر ذلك اليوم بما حمّل لمعمر .. فضاق فيه صدره .. وما انتابه الاحباط !! وأيام الدرس في سرت المدرسة قد أسرعت لتلتهم عاماً كاملاً من عمر طفولته الخرساء التي شارفت على الرحيل بدون رجعة وللأبد ، في الوقت الذي بدأ الزمان العاهر يتلذذ بالسطّو على طفولة ليبيا الاستقلال فنهش منها ما نهش وأمات الفرحة المصنوعة « فرحة الاستقلال » فرحة الأخذ بعد عطاء مختار البطل ورفاقه فسقطت عذرية طفولة الاستقلال وهي في فجر يفاعتها إثر قيام وتأسيس مملكة اتحادية في كانون الأول من عام 1951م ضمت طرابلس وبنغازي وفزان وترأس الملك إدريس الأول بن محمد المهدي السنوسي الذي خضع للاستعمار الغربي بكل ما يعني الخضوع وأكثر .

وأما معمر الذي بدأت أيام الصبا تتودد إليه بعذاباتها وحرمانها وأحلامها وأمانيها فقد اشتد عوده وطلت يفاعته فازداد القهر من حوله وتفاقمت الهموم في نفسه .. وظلّ دؤوباً مجتهداً لا يعرف الراحة أبداً ولا يكف عن طلب العلم والمعرفة .. وحاول بذكائه اختصار الوقت ففاز باختصاره .. ونال اعجاب كلّ الذين سخروا منه ذات يوم .. يوم رآهم للوهلة الأولى ، فسيطر عليهم بنبله وتفوقه وأخلاقه وجعلهم يلجئون إليه ويتوددونه بعدما عرفوه بارعاً بطموحه وفكره ومسلكه ، وماهراً أدهشهم بمهارته في طلب العلم وفي اجتهاده ، وممتعاً برونقه وأناقته وأحاديثه التي ما خلت من الفائدة والتشويق وحب الأرض .. ووصل به الحد لأن يجلس وحوله الطلبة بكراريسهم ينتظرون منه أن يدلهم على حل مسألة رياضية أو يشرح لهم إعراب جملة أو يكشف لهم عن مصدر فقهي أو تاريخي يستشهدون فيه بمقرراتهم .

ووحده الألم رفيق الحرمان والأسى ظلّ الحميم الذي لا يفارقه خلال تلك السنوات في سرت والدروس التي أخذت تتوارد .. وكما تواردت كان يكبر بحكم الطبيعة البشرية .

الألم لم يكن يفارقه وحتى يوم كان يلجأ لزيارة عائشة الفاضلة وأهله في جارف كل يوم خميس كان عليه أن يقطع مسافة ثلاثين كيلومتراً مشياً على قدميه ليصل لديار أهله فيطمئن عليهم ويساعدهم في الحرث أيام الحراثة .. وفي القطاف أيام القطاف.. وفي الحصاد وفي رعي شياه أبيه كل يوم جمعة .

تلك الرحلة الأسبوعية كانت تدمي قدميه وتشبعه من الصلابة ما أشبعته لكنها كانت قاسية مُرة مرارة العلقم وأكثر .

تلك الرحلة الأسبوعية من جارف للمعرفة ومن المعرفة إليها دامت دوام الفصول فتوغلت أشياؤها في عمقه ووجدانه .. وكانت بحد ذاتها مدرسة تعلم منها ما لم يتعلمه في الجفرة والخيمة وسرت .

طعم الصقيع في الشتاء القارص .. وويل أعاصير الخريف الرملية المتعبة ، وحدة الشمس الحارقة والجوع والعطش والحرمان بألوانه .. الفراغ والتأمل في الوجود في رحابه لساعات وساعات ورفقة الطريق الموحشة الوعرة التى ما خلت من الأفاعي والعقارب الصفراء كالموت .. كل هذا أبجدية من أبجديات كثيرة تعلمها في أولى سني حياته .. ومرّ العام ثم عام وجاء عام .

الفصل الخامس عشر

المرحلة الثالثة :

الرحلة من سنين الغصّة لفزان ميلاد الصرخة

مثلما تتأهب في أعماقنا الصرخة وتترجي لاهثةً بشغف أن تنبثق من مواضعها فينا ، لتزعزع ما لا يتزعزع وتوجع ما لا يتوجع فتدوي دّوياً وتدوي لتثأر لنا لحسنا ولوجداننا بعد أن تفاقم بنا الألم ومثله قد فعلت الأسية ، وكذلك القهر بأشكاله الفولاذية لتعيد إلينا بدون رجاء طريق الحرية وتنتشلنا من المسمكة الهوائية الآدمية .. تلك المسمكة التي لا تعرف صفاء لون الماء ولا نقاء لون الندى ولا حتى الاحلام الماوردية ، مسمكة اسمها البلاد العربية الممزقة عاشت فينا فعشنا لها وفيها غصبا بدون كلأ أو حرية ، نطارد الرغيف في الملأ وقبل أن نتمكن منه يكون قد ذاب من جسمنا ولحمنا وذاب في دفئنا وحسنا .

في المسمكة الآدمية نخضع للأذيال ونطيع الأذناب ونفرط بالطاعة للتيجان .. للقرصان ذات الأنياب الصفراوية ، فنتذوق طعم العلقم ونتلذذ بالحرمان ثم نصمت بعد اللذة فيهبّ علينا ويملكنا فيضيع فينا وبعد أن يضيع يتوهنا فتضّج من التوهان عقولنا فيسعفنا العطش ، فنتذكر أننا ظمأى في آخر رمق .

وبعد العناء نعثر في قلب المسمكة على مستنقع ملوث ومنه نرتوي .. ونرتوي حتى الثمالة عندها تنتصر الجرثومة فتصل بيسر إلى أعماقنا وبيسر تتوغل لتنخر جسم الصرخة وهي تحتضر لتنفجر وتتمكن الجرثومة بالقوة والعنف من أن تخمدها فتكسحها كسحاً وتفر الصرخة مريضة لاهثة لتخرج من أعماقنا بدون أن ندري كيف خرجت ، فنعاهد أنفسنا على أن نعيدها إلينا ذات يوم عندما نضمن لها طريق العودة المعبد .

ونظل في المسمكة كسالى تملكنا التنهيدة وتحيا علينا .. فلا نعرف للهيجان والغضب طريقاً فنذبح ذاتنا بآمال الظلم والطغيان .. وننتظر بالفراغ على أن يبعث لنا الوجود بزغرودة الغد ..

وزغرودة الفرح فتضيع منا الصرخة ، ولا محال فلقد خرجت من قلب المسمكة .

ووحده المتباهي بنفسه الذي طالما أدمت الطريق قدميه ومرت به الطفولة بدون أن يعرفها أو أن يتذوق طعم أيامها الخاليات ، ذلك الفتى المتمرد أراد أن تحيا في أعماقه الصرخة بعد أن أدرك جيداً أنها خارج المسمكة فجاهد ليستدرجها إليه فأفلح باستدراجها إليه وتمكن منها بإحكام فدخلت إلى أعماقه الملتهبة خانعة مطيعة ومكنت ذاتها من ذاته وتذوقت من خلاله رحيق اللهب الكامن في عروقه ضد الفاقة والتسلط والظلم .. فعاشت طفولة حقيقية في كيانه وها هي أول يراعتها في يراعته وتتهيأ لتتأهب من جديد وتنبثق بقوة وإرادة لا تعرف اللين والرجاء لتوجع وتزعزع .. وما أدراك !!

وبينما كانت الشمس الغاربة تسترجع من الكون ضياءها .. لملم معمر أشياءه وغادر مع هذا المغيب سرت الغصة والحرمان سرت المدرسة .. غادرها مودعاً فيها سنوات المرارة التي قضاها مجبراً برها وقهرها في سبيل الحصول على المعرفة وطلب العلم .

وإلى حيث جارف البدء والولادة أخذ يمشي ويجر جسمه المتعب وهو يتذكر تارةً الأمس بما حفل وتارة أخرى تداهمه نشوة الطموح بالصور المزخرفة الملونة التي ربما ستكون مع الغد الآت . وبين الأمس والغد ظلت الصرخة كامنة في أعماقه راكدة تود أن تتأهب لها الظروف لتنفجر .. وما انفجرت بعد .

والطريق للبدء والولادة ما زالت تطول .. وتطول وما رحمته أبداً من عذاباتها فلقد أدمت قدميه وأهلكت أنفاسه وما استسلم لها أبداً .

عنيدٌ هذا الفتى المتمرد .. عنيد ابن المجاهد .. وعليه أن يصل للنجع حيث أهله وحكاياتهم السالفة المحزنة .

ومرَّ آخر النهار كئيباً ودلف للكون الليل بظلامه الموحش ، والطريق تطول وغير الله ما كان له رفيق .. فالليل مؤنس وموحش ، والخوف في جيئة إليه .. وذهوب ، والساعات قد أفلتت من عمر الوقت ، والغيم قد فرّ فمرّ والنجم قد بدا في الأفق براقاً ساهياً وعينا معمر المتعبتان تتأملان كل ما يلمع في الظلمة ، والنفس مسكينة باتت توّاقة للوصول .. للدفء والراحة بعد التعب ، والفالتة البيداء قد احتضنت في عبّها النسمات المثلجة .

والحذر سيد الموقف فيه النجاة والسلامة من أنياب الثعالب الصفراء التي لا تجير تائها ، أما القدمان فما زالتا تلتهمان المسافة للولادة فقد قطعها تقريباً .. وما هي إلا خطوات معدودات وتستقبله جارف بخيامها ودفئها .

والخطوة تلتهم الخطوة .

وفجأة أصاب النفس ارتياح شديد فرمى الحذر من أوصاله وغاب الخوف عنه من جيئة وذهوب وبدا الليل مؤنساً لا موحشاً ، وظلّ البارىء وحده الرفيق فانتشى الفتى برؤية تلك الخيام المتعثرة الواقفة في الوادي ..

والخطوة تتقدم باتجاه خيمة الفاضلة .

وها هو المتباهي بنفسه قد وصل أخيراً وبعد العناء إلى خيمته فرفع صوته قائلاً :

– لقد عاد معمر يا أم سالمة .

فسمعته أمه .. فانتابها الفرح وتراكضت إليه هائمة .. ولما رأته ضمته إلى صدرها .. طويلاً .. طويلاً .. وما كلمته .

عندئذٍ كان المجاهد متمدداً مسترخياً على فراشه شارد الذهن مستغرقاً بذهول قد ملكه وما عتقه بالرغم من أنه قد سمع صوت ولده الوحيد ينادي أم سالمة ، وبلا شعور ابتسم ابتسامة مشرقة وهو لا زال ذاهلاً بيوم المويلح[1] .

وما هي إلا لحظات دلف خلالها النجل وأمه إلى داخل الخيمة وإلى حيث تمدد المجاهد حيث تراكض الصغير نحوه ليضرع إليه ويلثم يديه فكان لقاء حافلاً بالحرارة والدفء والابتسام .

وبعد أن استفاق المجاهد من ذهوله بيوم المويلح خاطب ولده بصوت خشن فيه ما فيه من اللوم والعتاب قائلاً :

– ألم أقل لك أيها الفارس المقدام أن في الصباح رباحا فلماذا أراك تسري إلينا ليلاً .

فأجابه معمر قائلاً بدفء :

– لقد غلبني الشوق إليكم يا أبتي فلم أُرد الانتظار حتى الصباح ..

« ولكن .. ولكن الطريق موحشة ليلاً وقد تعرضك للهلاك والمتاعب » كذلك قالت الفاضلة بصوت خائف .

فاستطرد النجل قائلاً :

– الحمد لله .. الحمد لله فها أنا قد وصلت سالماً .

فأردفت الفاضلة تقول :

– سأعد لك الطعام .

– افعلي ما شئت يا أماه .

ولما نهضت الفاضلة لتعد الطعام لولدها .. بدأ الحديث بين معمر وأبيه في استفسار وجواب حول حال سرت والمدرسة وسالمة وزوجها وأولادها وحال جارف ونجعها وأهلها .

وكانت المفاجأة عندما أخذ المجاهد يقول :

– سنرحل من أجلك لفزان لكي تتمكن من الالتحاق بالمدرسة الاعدادية في سبها .. سنرحل من أجلك أيها الفارس المقدام .

ففرح الفتى وكذلك أمه التي جلبت له الطعام .. وبدأ الأخير بالتهام الطعام ، كان يتناول اللقمة

---

(1) يوم المويلح : هو صدام وقع بين المجاهدين الذين كانوا يتجهون بنجوعهم جنوباً مع القوات الايطالية المنسحبة بتاقرفت بقيادة الجنرال جراتسياني حيث استطاع قلة من أولئك المجاهدين أن يتصدوا لتلك القوات الايطالية من موقع المويلح في الشمال الشرقي من قرارة تاقرفت على مدى اثني عشرة ساعة كبدوا فيها القوات الايطالية خسائر فادحة واستشهد منهم حوالي ستة .
« علي البصيري – مركز الجهاد الليبي » .

ليبتلعها .. فيبتلعه الذهول بفزان وسبها لكن احساساً مشوشاً كان ينتابه كلما حاول أن يرسم بمخيلته صورة لفزان الجنوب ..

وانقضت تلك الليلة بدفئها وما عادت في عمر الزمان .

وذات يوم .. وقبل أن يقترب الصبح بدت جارف الحزينة خجلى بعد أن تناثرت على جسمها ظفائر الفجر ولما بدا أول الضوء هاتفاً للنشور .. استيقظ المجاهد من نومه وبدأ اليوم بذلك الاحساس بأماكن الألم في جسمه ، فطالعه على الفور سقف الخيمة فجلس ، وحاول الوقوف وما استطاع .. فلقد ملكته غيبوبة قصيرة تنتابه من حين إلى آخر فعاد ورمي بجسمه للفراش ثم فرت لحظات وبعدها نهض من فراشه كرة أخرى فطالعه سقف الخيمة ، وحاول النهوض فنهض وهو يدرك أن هيكله مريض تعب ، وعندما خلع جلبابه ليبدل ثيابه مر بيده اليمنى على جسمه فتوقفت أصابع اليد على جرح قديم ما التأم بعد في كتفه الأيسر ذلك الجرح ظل من بقايا أيام الجهاد المشرف علامة محفورة لازمته طوال حياته ثم هالته البرودة فهمس لنفسه بتمرد « عليَّ أن لا أستسلم للألم من أجل نجلي من أجل معمر » .

وبينما كان يرتدي ملابس الخروج نظر لولده النائم نظرات عميقة ثم ابتسم غصباً وركب مداسه « حذاءه » في طريق خروجه . فخرج ومر على الحظيرة ، كانت الفاضلة قد حلبت الحليب وها هي ذي في طريقها للتنور لتضع خبز الشعير .. وبعد أن توضأ المجاهد عاد لخيمته وجلس بين يدي الله ليؤدي فريضة صلاة الصبح .. فصلى وبعد أن ختم صلاته رفع يديه نحو سقف الخيمة راجياً من الله أن يوفقه في علام ابنه الوحيد .

وفي لحظة دخول عائشة للخيمة بما حفلت يداها من الخبز .. أيقظ المجاهد ولده فاستيقظ الأخير .. وهرع للماء ليغسل وجهه ويتوضأ استعدادٌ لصلاة الصبح .

وعلى مائدة الافطار جلسوا ليتناولوا الطعام ، كان الطعام لقيمات مكسورة مغموسة بجفاف الأيام وقساوتها .. فشربوا الشاي وبعدها تأهبوا للرحيل لمدينة النخل ذو الأكام .

أريحي النفس بدأ يلملم أشياء خيمته المبعثرة ثم لفها بإحكام ورفعها على ظهر الناقة ثم مكّنها .. وراح ينهمك هنا وهناك استعداداً للرحيل ومثله الفتى قد فعل .

أما الفاضلة فانهمكت في بيت أختها رجعة في وداع أهلها وجاراتها .

وقبل أن تبعث الشمس بحدة دفئها سار موكبهم مودعاً جارف وأهلها نحو الصحراء وإلى عمقها .. توغلوا .

معمر يبدو اليوم حزيناً فرحاً شارد الذهن بالأيام الماضيات والأيام الآتيات وأريحي النفس على ظهر ناقته ما زال يشكو من شدة الألم في كتفه ذلك الألم كان يبعث في نفسه نشوة غريبة ويذكره بذلك الماضي الحافل وبشبابه الذي ما عاد .

أما أم سالمة فهي أكثر سعادة من زوجها وولدها .. فسعادتها اليوم ليس لها مثيل لأنها تعلم أن نجلها سيدخل المدرسة الاعدادية بسبها .. « نعم .. نعم لقد كبر نجلي » كذلك قالت في سريرتها قولاً انتشت منه مرات ومرات .

والرحلة إلى فزان يلزمها الوقت الطويل والتعب والابحار بمهارة في البيداء الفالتة المترامية .. ووحده

المجاهد يتقدمهم وكذلك الشمس قد سبقتهم فغابت بعد أن أغربت في العمق .. والنوق حمر النعم سابحة شاردة والظلمة قد شقت أدراجها وتكالبت على الكون فسادت في الملأ .

والنوق تواكب سيرها في بحر الرمل .

فجأة .. صاح المجاهد يخاطب زوجه وولده قائلاً :

« لنسترح قليلاً .. لنسترح قليلاً » وعلى الفور توقف الموكب عن المسير في مكان ما بعرض الصحراء .

وها هم أولاء جميعاً وسط العراء الخالي تلفهم العتمة وتلفحهم الريح الباردة ويرافقهم السكون المريب .

ست عيون راحلة للمعرفة .. لميلاد الصرخة .

ست عيون راحلة . بعذاباتها .. لترى النور .. وما أعظم هذه الرحلة .. ما أتعبها .. ما أخطرها .

وخوفاً من المخاطر . ومن أجل الدفء أشعل المجاهد الحطب بعد أن جلبه الفتى من بين الامتعة ومع نار الحطب ودفئه جلسوا جميعاً ليتناولوا الطعام ويشربوا الشاي وبعدها مرت بضعة ساعات من الليل فاستسلمت الزوجة وولدها لسلطان النوم فناما متكئين على أمتعتهم .

وعين المجاهد ما ذاقت النوم ، ولما طلع النهار استأنف الموكب رحيله وأخذ يتابع الغوص والابحار في عمق الصحراء الشاسعة ، فابتلع الأيام بلياليها وبردها ومرها وبعد المشقات والصعاب ها هو قد وصل إلى مشارف سبها التابعة لولاية فزان تلك المدينة المنفية في عمق الجنوب .

وفزان بدورها تسكن قلب الجنوب فتسكنها الواحات الزاهرة والزاخرة بنخيلها الباسق ، عريقة قد طلت للتاريخ وعليه برغم أنفها ومنفاها وحصنت بدفئها على مر الأزمان كل من التهبت في أعماقهم الصرخة وعاش فيهم الرفض بكل الوانه من أجل التغيير والحرية وضد الاستبداد والظلم حيث كانت هذه الولاية هي التربة المناسبة والصالحة للجوء العناصر الثائرة على الحكم في كل العصور فكان الميلاد منها وكان الجديد .

في المنفية فزان عاشت أحقاد الظلم حقبات طويلة الأمد .. فأوجعت وصرعت وعاشت أخبار الحروب كحروب سيف النصر[1] في العهدين العثماني والقرمانلي وحرب خليفة الزاوي[2] واغارات عمال السنوسية من أمثال محمد علي العابد وأتباعه .

---

(1) هو الشيخ أحمد سيف النصر من ولد نصر بن زايد بن سليمان بن وهب بن رافع بن ذياب من بني سيام واشتهرت قبيلتهم بأولاد سليمان ، وهو سليمان بن وهب المتقدم ذكره .. وكانت وما زالت رياستهم في ولد نصر وهم من صميم العرب سلفاً وخلفاً وفي سنة 1221 هـ أرسل يوسف باشا القرمانلي الشيخ أحمد ضد جيشا .. فالتقى به في سرت ودافع الشيخ أحمد ومن معه دفاعاً مجيداً واسفرت الحرب عن قتله وتفرق انصاره وأسر أبنه عبد الجليل وكان صبياً لم يبلغ الحلم . « اعلام ليبيا / الطاهر الزاوي » .

(2) هو خليفة الدعيك . تخرج من المدارس التركية العسكرية برتبة ضابط وأول عهده بالحرب الطرابلسية انه جاء مع سرب من الشام سنة 1915 م أيام القرطابية على طريق برقة وسبب وجوده في فزان أنه لما هزم محمد العابد وداعيته كبل السيد وطرد من الجبل سنة 1916 م وبقى في فزان (مرزق) ولما التحق نوري بك بمصراته سنة 1916 م كان العابد ما يزال بفزان فأرسل إليه نوري خمسمائة مقاتل لطرده منها برياسة احسان ثاقب أفندي وهو ضابط طرابلسي تخرج من المدرسة العسكرية العثمانية وارفقه معه خليفة أفندي الدعيك . وهذا هو أول عهده بفزان .

وها هي سبها تستقبل الفتى الذي طالما أدمت الطريق إلى المعرفة قدميه واستطاع بكل جدارة أن يستدرج الصرخة إلى أعماقه بعد أن خرجت من قلب المسمكة .

ها هو ذا ينظر بدهش ومن على مد البصر إلى تلك القلعة التي سيحاذيها الموكب بعد قليل .. وازداد تأمله لها فدلته في أطلالها على أن الماضي هنا كان يعيش ، ولما حاذاها تمعن بأبراجها الأربعة التي وقفت شامخة في أعلى الهضبة .

والموكب يزحف باتجاه قلب سبها وفي القلب توقف فأعلن الوصول ومنذئذٍ استقرت عائلة المجاهد بين الأقرباء والأحبة ، فبدأت سنوات الصرخة مسيرتها مسايرة تماماً عمر الفتى الذي التحق مباشرة بالمدرسة الاعدادية ، تلك الواقفة لوحدها بعيداً عن المساكن والضجة والشغب .

وأيام الدرس في المدرسة الاعدادية كانت تنمي فكره يوماً بعد يوم فتنامى الحس الوطني والشعور القومي لديه .

وكلما امتدت الأيام .. كان يكبر بحكم الطبيعة البشرية ، فتكبر في أعماقه الصرخة تلك التي مكنتها الظروف المحيطة به والتي ساعدته على أن يواكب بتمرد رحلة العصيان ضد سلطان التسلط ولوحده .. ذلك التسلط الظالم الذي كان يلمسه ويتحسسه في أدق الأوليات التي كانت تحيا في حياته وحياة أهله فبدأ طموحه المجنون يتخطى أولى مراحل ولادته ، بعد أن استهدى له طريقاً وامتطى أول المنابر ليصرخ ويقول ويرفض .. ويحاول أن يعبر عما يختلج في أعماقه الثائرة من أجل التغيير الشامل ..فوقفت من حوله الوجوه باهتة حائرة مدهوشة فيه ومنه وكم استغربت تلك الوجوه تصرفاته واهتماماته وتصوراته وأفعاله المشاغبة التي ما عرفت المراهقة في سن المراهقة .. فاتفقت تلك الوجوه على أن وراء هذا الفتى هستيريا .. أو هوس وبدورنا نلمس لها العذر لأن من الجنون أن يصدق أحد أن حكم المملكة يمكن الاطاحة به والأكثر غرابة أن يقف مثل معمر الفارغ اليدين الفقير الصغير في وجه سلطان الظلم والطغيان ذلك الواثق من نفسه كثقة النهار بالضوء بل كثقة الليل بالظلام .

ولكن وجوهاً عشقت المستحيل وعرفت معمر عن كثب وعاشت الوجع ذاته وأهلكتها الظروف حتى طفح الكيل .. صدقت ذلك الطموح على أنه أمل صعب المنال ، فشجعته بقدر استطاعتها ولم تكن هي ذاتها قادرة على العطاء .

وكبرت الصرخة لمّا حفل ذلك العام الزاخر بالمآسي والويلات في الداخل والخارج في الأزقة والمدن والعواصم ففيه هبّ العدوان الثلاثي على مصر .. وفيه تفاقم الظلم في الساحات الليبية والعربية . وفيه أدرك الفتى حقيقة الفرحة المزيفة التي عاشها شعبه . تلك اكذوبة الاستقلال الذي كثرت مظالمه فما نسّي شيئاً لم ينسَ أن يشوه الحب في الناس وفي المدن وفي الصحراء ذاتها .. لم ينس أبداً أن يطيل عمر القهر الذي وهبه لنفوس الفقراء .. لحياتهم .. لأحلامهم لدفئهم ..

لقد أدرك الفتى خطورة الهيمنة الأجنبية الاستعمارية على ليبيا .. تلك التي عشقها إلى آخر منحدر في مستويات العشق .

فالحدث الذي هزّ مصر هزاً جعله يتعرف وعلى الأقل على هوية ذابحه أولاً .. وعلى خارطة الوطن الممزق .

لقد عرف وتعرف .. وتعرف على ما يحدث في قلب المسمكة .. كما أنه وصل إلى هوية الناصر الخالد عبد الناصر فعشق فيه قوميته ... وفرح لانتصاراته .. ومنذ ذلك الوقت انهمك بمتابعة الفكر السياسي والفكر الثوري .. فطالع الكتب السياسية والثورية والاجتماعية التي كانت تدخل إلى ا لديار خلسةً عن طريق مصر عبد الناصر .

ذلك الفكر .. مع تلك الظروف .. وفي ظل المحيط المظلم والأحداث المتتالية العصيبة في حياة الأمة دفعت به ليفوز في رحلة التمرد ويقطع شوطاً لا بأس به ذلك الشوط الذي جاء مبكراً جداً والذي توج عندما قامت الوحدة بين مصر وسورية .. فقيام تلك الوحدة ألهب مشاعره وأجج عواطفه تجاه أصقاع المسمكة .. فهبّ ليؤيد الوحدة بل ليؤيد ما يطمح له .. وبعنفوان وحنكة هي أقرب للدهاء .. في مرحلة التهجين قام بتنظيم الصرخة التي تمثلت بالمظاهرات التي اجتاحت شوارع سبها الخائفة .. سبها الخرساء الطرشاء العمياء .

وذات يوم انتاب المجاهد قلق بالغ عندما أخبره معلم المدرسة بأن تصرفات ولده معمر لا ترضي أبداً وقد تضر بمسيرته التعليمية .. فملكه الخوف من ذلك .. وتصور بألم أن مسيرة علام معمر قد توقفت بسبب تصرفاته وتدخله بالشئون السياسية .. ثم طرد من خياله ذلك التصور وصاح بأعلى صوته راجفاً .. مرتعشاً .. غاضباً

« لا .. لا .. يستحيل أن يحدث ذلك .. يستحيل أن يحدث ذلك » قال ذلك باصرار عنيد وعيناه المتعبتان تودان البكاء وما بكى ووحدها نفسه المعذبة ظلت على الدوام تواقةً لنجاحات معمر . وعندما عاد معمر من مدرسته في ذلك اليوم أبى المجاهد أن ينبس ببنت شفة بخصوص ما قاله له معلم المدرسة لأن ثقته بتصرفات ولده كبيرة .. ومطلقة الحدود قد صنعها له فزرعها فيه

ولما خاطبه قائلاً : ما أخبار المدرسة أيها الفارس المقدام

فأجابه :« كل شيء إلى هذه اللحظة على ما يرام » ثم انصرم ذلك اليوم .

في تلك الفترة كان معمر قد أرسى في فكره أيديولوجية خاصة بنهجه حيث أخذ يتصرف بأكثر دقة وأحسن الاختيار فيما يتعلق بمسألة الوقت ومعطياته .. لخلق ما يود خلقه في ظل الأجواء السائدة .

وبعد أن تقدمت به الحال وتكشفت له القواعد الظالمة التي تحكم وتتحكم في الأصقاع .. امتلأت زوادته بالمعرفة والبيان والتبيان .. وعليه أن ينشر ويبدل .. فلن يرضيه غير ضياء الحق والحقيقة .. وكسبا للرضى بدأ ينتهز الفرص .. والفرص كثيرة .. كثيرة ..

وها هي قد جاءت الفرصة الحزينة المؤلمة .. فلقد وقعت الكارثة تمزق جسد الوحدة بين سورية ومصر فجاء الانفصال كالكابوس الرهيب .. واستاء معمر وتألم .. لذلك الحدث .. ولكنه لن يدع الفرصة تفوته .. فهبّ غاضباً وقام بمظاهرة ليعبر عن مدى استيائه واستياء وسخط شعب ليبيا على قرار سورية بالانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة في الواحد والعشرين من أيلول عام واحد وستين وتسعمائة وألف .

وهبّ معه كل من آلمهم الانفصال وخاصة رفاقه الذين بدءوا معه النضال منذ إنشاء حركة

التنظيم السري التي شقت أدراجها للساحات السياسية منذ مطلع العام 1959 م .

فنددت المظاهرة بقرار حكومة دمشق بالانفصال عن دولة الجمهورية العربية المتحدة في ظل أجواء تعسفية ظالمة . ونددت بالمظالم فطالبت بعودة صوت الحق الخائف .

ووحدها كلمات معمر الصارخة قد ألهبت مشاعر المتظاهرين وبثت الحذر في نفوس الحكام المتخاذلين .. فما كانت تلك النفوس المريضة تصدق أن في سبها مثل هذا الاضطراب الذي لو امتد عمره لحرك ساكناً .

كلمات معمر .. اجتازت حدود سبها .. ثم حدود ليبيا ودخلت لمصر مباشرة لمسامع الخالد الناصر جمال عبد الناصر .

وبعد تلك المظاهرة .. استمر معمر .. بالتنديد ضد المظالم .. ولكن من يملكون زمام الأمور في المسمكة وقفوا للصرخة ليخمدوها .. فما استطاعوا .. وحاولوا .. وحاولوا .. وما استطاعوا ..

فوصلت بهم الحال للاضطراب ولما وجدوا الحل .. هجروها بل طردوها بعد ملاحقتها وهي برغم ما نضجت بعد .

وحدث ما لم يستطع أن يتصوره المجاهد .. حيث طرد الثائر الذي استدرج الصرخة لأعماقه وتمكن منها بإحكام .. لقد طرد من مدرسته هو وبعض رفاقه ففجع المجاهد لهذا .. وفجعت عائشة أما الفتى نفسه فازداد إصراراً على المواظبة في طريقه .. وازداد غضبه فأقسم على البداية . أقسم للنهاية .

قرار طرد معمر القذافي من المدرسة وعقوبات أخرى للطلاب الآخرين

السيد / مدير مدرسة سبها المركزية .. بعد التحية ..

بالاشارة إلى التقرير المقدم منكم ومن نائب مدرسة سبها المركزية . ومن مراقب القسم الداخلي بخصوص الطلبة الذين قاموا بالمظاهرة في /5/ اكتوبر عام 1961 م . فإني انقل إليكم العقوبات التي نراها ضرورية التطبيق ضد الطلبة الآتية اسمائهم لارتكابهم أعمالاً لا تتماشى وواجبتهم الدراسية والطلبة هم :

1 – الطالب / معمر ابومنيار القذافي

« الطرد من المدرسة مع حرمانه من الدراسة في مدارس الولاية » .

2 – الطالب / المدني الصديق

« الطرد من القسم الداخلي بكافة المدارس الحكومية بالولاية » .

3 – الطالب / مصباح الغويل

« الطرد من القسم الداخلي بكافة المدارس الحكومية بالولاية » .

4 – الطالب / علي أبو قلية

« الطرد من المدرسة والأقسام الداخلية لمدة 15 يوم مع اخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بأن يتكفل بتعنيفه وتأديبه » .

9 - 8 - 7 - 6 .... إلخ .

لقد تم اتخاذ العقوبات اعلاه تطبيقاً لنص القرار الوزاري رقم (5) الخاص بالعقوبات التأديبية للطلبة ويطلب من مدير المدرسة المركزية بسبها ومراقب القسم الداخلي العمل على تنفيذ ما ورد أعلاه في أقرب وقت ممكن ..

في 29 - 10 - 1961 م

التوقيع

علي الجومسة

ناظر التربية والتعليم -- ولاية فزان

في تلك الأثناء انتاب العائلة حزن عميق وكأن الآمال قد ضاعت فالفاضلة بدورها ما صدقت الكارثة وكذلك المجاهد الذي ما استسلم أبداً بل أصر على قوله بدون أن يصيبه الضعف ومن جديد أخذ يقول ويردد ويتمتم ويهمس « يستحيل أن يحدث ذلك » فعزم فوراً وقرر الرحيل لمصراته بعد أن فقد الأمل في فزان بأكملها فغادر سبها الجنوب ناقماً معانداً كل الصعاب التي وقفت حائلاً أمام مسيرة تعليم نجله .

أما الفاضلة فقد شعرت بالاطمئنان بعد الخوف والفاجعة وعلى الأقل عندما ادركت أن مسيرة علام معمر لن تتوقف أبداً فيمكنه المتابعة في ولاية أخرى .

لكن معمر الصرخة ذاتها أحب سبها حباً غريباً ففيها وضع أولى اللبنات وأسس لقيام ما يريد قيامه وفيها استهدى على أول الطريق لطموحه المجنون العظيم .. وفيها كان ميلاد الصرخة .. لكنه وقبل أن يغادرها وعدها وعد الحر بيوم اللقاء والعودة ولو بعد حين .. فلو كان ذلك الحين مستحيلاً سيعود إليها رغم أنف المستحيل ولا بد من لحظة الانتصار الآتية :

الفصـــل الســـادس عشـــر

المرحلة الرابعة :

- الرحلة من سيبريا النفس الباردة إلى دفء مصراتة .

الجليد .. جليد الدماغ والفكر في الزمن العربي العاهر الذي أصاب النفوس المضطهدة المذلولة للأجساد التي أضحت هياكل طيعة مريضة لا تعرف الدفء وكل ما حولها بارد لاهث بالصقيع .. تلك الأجساد المنهارة ما استطاعت أن تميز بين الصرخة والفرحة لأن الذل والاضطهاد يركبها فتقله على ظهرها غصباً ولا تستنجد .. عليها أن تقوم بدورها الذي ينحصر في العمالة والعتالة والخضوع للنذالة .

ووحده الصقيع حليف الجليد يحتلها فيسكن حتى في رغيفها وقوتها وينتهك عقلانيتها وأعرافها وتقاليدها .. ويفتك بحسها ووجدانها وبعفتها وعذريتها لتبقى معزولة حافية عارية .. وذاكرتها تصبح مشلولة تماماً منفصلة عن الرؤية والتطلع وعن الصورة وحتى عن العقل الباطن .

ذاكرتها المسمومة تضطهد المخيلة وتمنعها من أن تفرز الصور أو أن تتمعن بالتفاصيل أو أن تقف عند الفواصل وعليها أن لا تدرك معنى الاستفهام أو أن تبحث جاهدة بمعطيات الحس الإنساني أو أن يدركها الضمير البشري ذاته .

في سيبريا النفس الباردة التي يسمونها الوطن العربي عليك أن لا تصرخ فتفجع وأي فجع ذاك !!

عليك أن لا تتجاوز حدود أوليات العتمة وأن لا تخرج من بوتقة الظلم والقهر الكالحة يجب أن تعيش ميتاً وعليك أن لا تموت .. لتظل الكوابيس لك رفيقاً وسياسة التجويع مسلكاً ورغيف الخبز هو عليك الرقيب .

في سبيريا العرب المتجمدة يجب أن تقول شيئاً في الخضوع والطاعة والخنوع ولو قلت غير ذلك فأنت الجريمة وأنت العقاب وأنت البهيمة .

بهائم .. نحن علينا أن نعيش من دون أن نضحك ، فالبهائم التي تنتمي لفصيلة الحيوان نجدها .. ونراها تبتسم ابتسامات هي أصفى اليوم من عمر البشر .

بهائماً علينا أن نعيش من دون كلا وحرية ، فالبهائم ما أعلنت الجوع بعد في مملكتها الحيوانية فمازلنا نراها تأكل وتشرب وتسرح مطلقة العنان ، وحتى الطيور تغرد وتغني وأطفالنا نيام على عتبة الجحيم في بؤرة الجوع وفي مستنقع الخوف الرهيب .

الجليد من أقصانا إلى أقصانا .

فى المخيخ وفي الشبكية وفي الأطراف ، في كرات الدم وفي عمق الشرايين .

الجليد في حياتنا المهزومة الهاربة من أي انتصار .

الجليد في شوارعنا وبيوتنا ومدننا الغارقة في لجة الانتظار .

الجليد في الكراريس والمدارس والجامعات تلك المستقطبة كل الاستقطاب .

الجليد في « المزابل » وفي عمر النفايات في داخل أنابيب القذارة وحتى في عمق العذارى .

الجليد منه تفر لتهاجر الأدمغة للدفء .. فلو ظلت ستموت ولو خرجت ستموت ولكننا سنتفق لو قلت أن لكل قاعدة شواذاً .

فلو قلنا أن الحب قد انتهى من الوجود واندثر فالواحد الأحد ما زال باقياً موجوداً .. قهاراً لا يموت .. هو الحب والحب هو .. إذن فالحب يبقى موجوداً .

ولو قلنا أن التاريخ أحرق وغدا بقايا ورماد .. فإن ذكرى المختار والجالط وأبو منيار ما زالت باقية إذن أهل التاريخ باقون .

وإذا الصور قد انتزعت غصباً من كهوف ذكرياتنا .. فالورد من البنفسج والأرجوان بحدائقه مازال مطلاً .. والتين في بساتينه شامخ . وكذلك التوت في حاكورة جدتي .. حُي زاهٍ معطاء يعيش فى ظل أصفى وأنقى ممالك الوجود في المملكة النباتية الدافئة .

إذن الورد يبقى صورة والتين صورة والتوت في حاكورة جدتي صورة باقية زاهية وكذلك لو قلنا بتشدد إن الإسلام بات يحيا في الزمن المقتول .. فإنه لن ينقرض ما دام كتاب العزيز موجوداً .

وكذلك لو قلنا فيما يخص شمس سبها إن الصرخة التي غابت غصباً وقهراً على أيدي الضلال والظلم برحيل معمر الصرخة منها .. فهذا لا يعني أنها لن تشرق أبداً ما دام معمر مواكباً رحلة تمرده ورفضه .. وما زال يعيش .. فها هي ذي مصراته[1] العريقة المبعثرة في دياجير الظلمة .. المدينة المرسومة كلوحة أبدع من لوحات لبدة[2] التاريخ ، مرسومة كالشواطىء العذرية الواقفة في وجهها منذ الأزل .

(1) مصراته من المدن الكبيرة المشهورة في ليبيا وتقع شرقي مدينة طرابلس بنحو 215كيلومتر . وقد اشتهرت منذ القدم بالنشاط التجاري وتقع على بداية خليج سرت في الشمال وعاصمتها قديما (قصر حمد) ويقال أن أرضها غنية بمعادن كثيرة كالزئبق والكبريت .

(2) لُبْدَة : مدينة بين برقة والريقية ، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة وهو حصن في بنيان الأول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة ، يسكن هذا الحصن قوم من العرب نحو ألف فارس يحاربون كل من حاربهم ، ولا يعطون طاعة لأحد ، يقاومون مائة ألف ما بين فارس وراجل كانت به وقعة بين أبي العباس أحمد بن طولون وأهل الريقية فقال أبو العباس يذكر ذلك :

ان كنت سائلةً عني وعن خبري ... فها أنا الليثُ والصمصامةُ الذكَرُ
من آل طُولون أصلي ، ان سألت فما ... في المفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرّي بلبدة إذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتدر
إذاً لعانيت مني ما تبادره ... عني الأحاديث والأنباء والخبر

« معجم البلدان »

مصراته الدفء والطيبة ، الود والمحبة ها هي تستقبل الصرخة المطرودة القادمة من فزان .. من سبها الجنوب التي أرادها الطغيان باردةً متجمدة لا صوت للحق فيها ولا حتى للصدى .

مصراته بروعة عذراء حورية فيها .. بروعة أهلها وأعراقهم وأعرافهم بحوانيتها وشوارعها وساحاتها الزاهرة .. وقفت لتفتح صدرها لروح المتمرد لتحتفي بدفئه رغم دفئها وهي تبكي من المظالم فيها وتضحك لتمنح للصرخة الوافدة من حياتها عامين كاملين ، ولتسلخ بدهاء من حياة تلك الصرخة عامين كاملين ، وتفوز بعامين من حياة التمرد البطل فكان في ذلك بعد حين وساماً لها تفاخرت به .. وكم تفاخرت !!

والمتمرد على حكام سبها دخلها متألماً حزيناً وعلى الفور أخذ يتربع في صدرها لأنه عرفها جيداً وعرف أنه لا يملك اليوم الزوادة .. لقد أدرك أنه جائع لطلب المعرفة وطلب الوصول لصوت الحق الخائف وعليه أن يلتحق مباشرة بإحدى مدارسها ليتمكن من أن يعاند الزمن .. ففعل وتمكن من ذلك بجهوده الشخصية وحصد أول ثمار زرعه الذي كان قد زرعه فيما مضى أثناء وجوده في سبها الجنوب ، فلقد تمكن أحد أصدقائه المقربين الذي كان قد عرفه منذ طفولته الخرساء والذي كان قد كلفه بتحريك وتجنيد واستقطاب عناصر للتنظيم السري في هذه المدينة من أن يسهل عملية التحاقه بالمدرسة بالرغم من أنه لم يكن يحمل بيديه أية أوراق رسمية تخص التحاقه وتسجيله بالحياة الدراسية .

ونجحت الأيام في عطاءاتها فتواردت مسايرة لمسيرة علامه بخط يوازي تماماً زمن المظالم وعمر القسوة ووحدها أخلاقه السامية قد أفلحت في استيعاب الظروف الحالكة الكالحة وجذب محبة الناس لصفوفه ولطريقه ولساحات طموحه الذي تخطى بدوره مرحلة جديدة ومهمة بفضل الظروف واعتباراتها وكل معطياتها في كافة المستويات والميادين .

فلقد كبرت ساحة حركته المدنية التي أسسها ومكّنها في مصراته بفضل إدراكه ووعيه السباق لجذب كل ما هو جديد والاستفادة منه على النحو الأسلم .

وما إن انتهى العام الدراسي لسنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف حتى تخرج فيه منتصراً واعداً بالانتصار الأكبر .

وخلال العام ذاته عزّم على أن يعقد أول جمعية عمومية لإدارة حركته التي اشترك فيها رفاق دربه من كل الأصقاع الليبية .. وتم فعلاً عقد أول جمعية لحركته بعد جهد كبير في البحث والعناء والانتظار بسرية مطلقة .. وقد رسمت تلك الجلسة الخيوط العريضة والتفاصيل للأيام الآتية .

ومن أهم مقرراتها قرار يقضي بأن يدخل بعض عناصرها المجتمعين إلى الكلية الحربية حيث يؤلفون نواة الضباط الوحدويين الأحرار .. وكان على هؤلاء أن يضمنوا للحركة مساعدة الجيش بكل قطاعاته البرية والبحرية والجوية .

في الوقت الذي كان فيه قصر الملك ادريس في مصراته منفصلاً تماما عن الأجواء الخارجية حيث عّزل نفسه في أجواء السمر الصاخبة تلك التى سلبت سحر الليل ونكهته وسرقت وجه الفجر ذاته .

قصر مصراته الذي غصَّ بما لذَّ وطاب ، بالخادمات الجاريات الجميلات اللواتي خضعن فيه للنشوة واللذة والخطايا بين أيدي الخطائين الدجالين ليمارسن الجنون بغرائزه الحيوانية ويركعن

كما يركع الماس على منضدة قذرة في سوق النخاسة .

في قصر مصراته المعزول عن دفء البشر تغادر العفة ولا يبقى غير الرذيلة ففيه هي السلطان كالنفوس المريضة اللاهثة في عمق أجوائه لكل ما هو ملوث .

ووحده الكابتن (طاور)[1] يدير العهر فيه بأبشع مستوياته ذلك القواد الذي طالما طاف يتفقد ويلون ويزخرف قاعات النوم والسمر في القصور الملكية التي تناثرت في البلاد الليبية كعلامات مميزة لسلطان المملكة وبؤر للفساد والدعارة والرذيلة .

تلك القصور .. كقصر الخلد بطرابلس ، وقصر المنار في بنغازي وقصر طيبة بالبيضاء ، وقصر غريان بغريان وقصر الجغبوب بسبها وقصر اجدابيا باجدابيا وقصر سرت بالخليج .. وقفت للعهر مواطن ولطاور ليديرها ويدبرها فكم دبّر لانتهاك عذرية العذارى .. وكم سلب ما سلبه من الأعراف والتقاليد داخل وخارج القصور .

أجواء القصور تلك كان يدرك الفتى ألوان عهرها .. ولهذا نراه يسرع في تحقيق طموحه لأن الشارع لا يهم من توهم القمار ولياليه .. من توهتهم العاهرات والخمر وأصناف اللذة الحيوانية لذلك .. كان معمر وحده المستفيد من تدرج خطواته .. التى جاءت كالبرق تلمع .. ولما لمعت أعمت هؤلاء الأوغاد .

(1) طاور : هو الكابتن طاور .. مشرف انجليزي للقصور الملكية المعروف في جنوب طرابلس أيام الإدارة البريطانية . وكان يلقب بمستشار القصور .

عين هذا الإنجليزي في منصبه بتوصية من محمود المنتصر الذي كان على معرفة به وقد استضافه عندما ذهب محمود المنتصر قبل الاستقلال الى بريطانيا للاتصال بالحكومة البريطانية ونشأت بينهما صداقة .

الفصـــل الســـابع عشـــر

المرحلة الخامسة :

— الرحلة من دفء القرار إلى بنغازي أعتاب الانتصار .

أرجوانة(1) للمدى أمٌّ الفقير وطالب المنى ، مضيافة كريمة كوجه الطفولة ومثل الابتسام والرجا ومواطن للأعمى والبصير .. والبصير فاقد الثنا ، على أكتافها حمائل النخيل وأعباءٌ أثقلت كاهلها على مرّ السنين .

وفي عمقها ترعرع التاريخ فشمخ ومثله ترعرعت أحلام المساكين . حبيبة للود وللوداد فيها ألف حكاية ، تذبحك بدفئها وفي صوتها ألف أغرودة وزغرودة للهيام والسوسنا ، وتلف في حضنها الساهرين في وجه الفزع للفوز بآخر هزيع .

مناضلةٌ وفي عرفانها المناهل ، عربية عريقة مجيدةٌ بنضالاتها وانتصاراتها فكم زارها الويل بالمآسي وما فجعت ، وكم بسياط الجلاد ضربت وما صرعتْ وكم على أبوابها المظالم قد سحقتْ .

أرجوانة معطاءة والندى في عمرها ظلّ كالماس ما ذبحته صباحات الشمس والمدى ، أرجوانة في الليل هي السحر رغم الدجى ، وفي النهار صوت لن يسقط فيه الحق والمنى .. وذات مرة ..

(1) هي بنغازي: (بني غازي) : مدينة عربية انشئت في المائة الأولى بعد الألف هجريا تقريبا ومر بها الرحالة العياشي سنة 1072 هـ فوجد فيها عاملاً لصاحب طرابلس واهم ما جاء في الدليل السياحي عن مدينة بنغازي أنها عرفت خلال تاريخها الطويل الأسماء التالية بوسبريدس في عهد اليونان وبرنيق في عهد البطالمة والرومان ثم بني غازي في العهد الإسلامي .
وتقع مدينة بنغازي على شبه جزيرة محصورة بين البحر وملاحة السلماني أما الآن فقد ازداد عدد سكانها وامتدت المباني فتكونت مدينة بنغازي الحالية بشوارعها الفسيحة وجامعتها ومستشفياتها ومبانيها وفنادقها وحدائقها الجميلة الزاهرة فصارت من المدن المشيدة على أحدث طراز معماري إلى جانب اشعاعها الثقافي والحضاري .. بارك الله بأهلها .

« للمؤلف »

ذات مرة جاءها المختار[1] مكبلاً مساقاً للمحاكمة ، وهو يدرك أنه سيدفع الثمن غالياً ..

لم يكن يتصور الشيخ الأسد أن شيئاً ما يمكن أن يوقف مسيرة جهاده ، وأن كابوس الظلم والاستعباد سيكون قادراً على أن يخمد في أغوار نفسه الصرخة .

جاءها المختار متمرداً حزيناً في آخر محطاته التى ما أدرك التعب فيها والخذلان يومها اهتز العصب في كيانها وكم اضطربت فانتحبت وحزنت لما غاصت بكل ما فيها من ناس وبيوت وحارات وشوارع وشواطىء ورمال وطيبة وحسرة ورهبة وخوف في عيون المختار ، وعيونه كانت تستخلص من رحابها حزن الرجال وكبرياؤهم وأمل الأطفال ورجاؤهم وتغرف بقدر ما استطاعت غرفه من جمالها الأخاذ الأرجواني الحزين ومن تلك الذكريات الباقية الواقفة متربعة هنا .. وهناك تلك التي عاشت ذات مرة وستعيش وعيناه مازالتا تحدقان في مداخلها المضطهدة ، وفي أجوائها الكئيبة المفزوعة .

« ولكن .. لا .. لا سيذهب المختار الجسد وستبقى روحه فيك » . كذلك قال الشيخ الأسد في سريرته يخاطبها قبل أن يدخل إلى قاعة المحكمة الصورية المظلمة ثم وعدها في ذلك اليوم بقرار دافىء مثل دفئه ومثل دفء مسيرته الجهادية الطويلة وكان وعده لها صادقا .

وقد أبت الإرجوانة الحزينة أن يرحل عنها الشيخ مع دفئه فجعلت تلاحقه إلى حيث وقفت مقصلة الموت على مرآة الأحبة والرمال في سلوق[2] العظيمة . ولما مات الجسد استدعته لأن ينغمس في رحابها الطاهرة المفزوعة ليبقى .. ويبقى .. وحدث ذلك فزغردت حينذاك للموت أروع زغرودة وأقامت في حضنها قرابين الغناء لدفء الجهاد وشيخ الجهاد ، ودف القرار وشيخ القرار .

ودار بعد ذلك الزمان دورة ليعود إليها بالزغرودة .. عندما جاءها نجل جارف المنسية من دفء القرار لأعتاب الأظفار .

وها هي ذي تزغرد لقدومه زغرودة صامتة وتفرح فرح الساكتين المذعورين .

ها هي بنغازي تضمه إلى رحابة صدرها وتتمعن بكل ما فيه وهي تدرك أن وراء خطواته العنيدة زحفاً وانتصاراً .. فانتصاراً .

ولما توغل نجل جارف في عمقها اهتز فيها العصب بعد السنين النائمة فهزّ كيانها رويداً .. ببطء مثل اللحظات ، ومن يومها ظلت تنتظر زمن الأظفار ذلك الآتي لا محالة .

وفي حضنها التحق بالكلية العسكرية تلك التي ظفرت به لعدة أعوام متتالية فمنحته من قهرها وعذاباتها وقسوتها ما منحته وزودته من زوادتها .. فأثرته ثم أثراها وأثراها .

---

(1) عمر المختار : « 1867 م – 1931 م » شيخ المجاهدين من قبيلة المنفة العربية ولد في بلدة البطنان بطبرق أو ولاية برقة وتلقى علومه الدينية في جغبوب مركز الدعوة السنوسية ولما حفظ القرآن وأتم دروسه عُين شيخا على زاوية القصور بالجبل الأخضر .. اختاره السيد محمد المهدي شيخاً لزاوية كلك بالسودان . عاد إلى برقة عام 1903 م لادارة شئون زاوية القصور حتى 1921 م ، وعندما احتل الايطاليون الفاشست ليبيا هب للدفاع عن أرضه فتولى قيادة الحرس الوطنية ضدهم وباشر الجهاد سنين طويلة حتى قبض عليه الايطاليون واسروه وقدموه لمحاكمة صورية حكمت عليه بالموت شنقاً ونفذ الحكم في ساحة عامة أمام أبناء الشعب الليبي بمدينة سلوق عام 1931 م . « الموسوعة العربية » .

(2) « سلوق » مكان ببرقة جنوبي بنغازي إلى الشرق بنحو 51 كيلومتر قال عنه العياشي أثناء مروره به سنة 1072 هـ هو آخر برقة الحمراء من الناحية الغربية وهما الآن من المناطق العامرة والآهلة بالسكان وبها منشآت مختلفة ومدارس ومشفيات .

ولم تكن تلك السنوات حافية في حياته بل كانت أكثر سنوات عمره التهاباً وخوفاً وعناداً .

حيث أخذ يعّبد الطريق للانتصار ، فاطلع خلالها عن كثب على واقع الجيش فتوغل في عمقه ليدرك أنه لا يمثل تلك القيادات الجائرة والرتب العالية الملتفة ككلاب الحراسة حول كرسي العرش الملكي وأذنابه ، وتبين له بعد استكشاف أن فراغاً كبيراً في أغواره يمكن الاستفادة منه وتوظيفه لمسيرة طموحه ودربه الهادف للخلاص .

لقد أدرك معمر يقين اللعبة القذرة التي كانت تمثلها القيادات برهبتها وبطشها على الجماهير المغلوبة .. فغاص بجدارة ومهارة في الجوهر وتمكن من فهم تلك اللعبة لعبة المظاهر المزيفة المخيفة التي كانت بدورها كالشبح تقف في وجه الجماهير .

والرفاق حوله ، وحوله الظروف في صالحه ، ووحدها ايديولوجيته في كسب ما يخدم طموحه وطموح العريقة ليبيا قد أرست وبإحكام واتقان قواعدها فمكنت جذورها بقوة في العمق الجماهيري ذاته ، واستطاع نجل جارف المنسية وبقدرة قادر أن يكسب إلى صفوفه العاملين في كل الاتجاهات والميادين .

بدءاً من الجيش ووصولاً للجامعات ثم للصدارة في أعماق النفوس الهياجة الثائرة في أغلب الأصقاع الليبية .

وذات يوم مشهود وبينما كان معمر داخل ثكنته هبت الصرخة في أعماق بنغازي العظيمة التي أخذت بدورها تعلن الرفض والعصيان المدني ضد البطش والظلم .

فالتهبت أعماقه لأن الأسوار والجدران والقوانين العسكرية الصارمة وقفت حائلاً بينه وبين جماهيره في قلب المدينة لكنه كان يعلم أن الجدران والقوانين الصارمة والأسوار لن تفصله أبداً عن لهيب الحدث ذاته .. فاضطرب اضطراباً شديداً وبدأت رحلة الغليان في أعماقه تتفاقم .. وتتفاقم بشدة .

وبنغازي الرافضة للذل والاحتقار ، للفساد والرذيلة ، للحكم المتسلط والعمالة قامت في حضنها المظاهرات لتهز وتصرع ولكنها سرعان ما قمعت على يد الطغيان بالرصاص والبطش وهي في أوجها .

تلك المظاهرات ، وتلك الظروف استطاعت وبشكل غير مباشر أن تكشف لمعمر حقيقة الرفض الجماهيري الملتهب فانتشى رغم جسمه المضطرب ورغم الذي قد أصابه من الويلات التي حطت أثقالها على كل من صرخ وتظاهر لقد انتشى نشوة عظيمة رغم أن الأسوار ما زالت واقفة بينه وبين الساحات المقتولة .. فاشتد عزمه على المضي في طريقه وعلى أن يبدل الحال بعد حين .

فأسرع لتشكيل تنظيمه داخل صفوف الجيش الذي سار بخط مواز مع تنظيمه المدني الواسع النطاق ، ثم شكل بعد ذلك اللجنة المركزية للضباط الوحدويين الأحرار داخل الكلية العسكرية وبدأ العزيمة على إقامة اجتماعاتها من حين إلى آخر في أحلك الظروف وأصعبها التي أخذت تتم وتتوالى في زمن المخاطر وفي اخطر المواقع .

وكان أول اجتماع لها على شاطىء « طلميثة »[1] في عام اربعة وستين وتسعمائة وألف حيث

(1) « طلميثة » .. بلدة على ساحل البحر شرق بنغازي بنحو 104,5 كيلومترات واسمها تحريف لاسم المدينة قديماً وهو « بطولمايس »=

انبثق عن ذلك الاجتماع الأول قرار يقضي بتكوين لجنة شعبية تعمل مستقلة كلياً من الناحية التنظيمية عن اللجنة المركزية للضباط الوحدويين .. والأخيرة بدورها فشلت في دورها للاضطهاد الذي كان سائداً وقتذاك وأفلحت بعض الشيء في تحقيق وتنفيذ عدة مهمات كلفت فيها لخدمة مخططها المرسوم .

وبحبكة ذكية تمكن نجل جارف من أن يترك له قاعدة في كل دفعة في الكلية العسكرية ، حتى لا يتخرج الضباط من الكلية إلا وتكون معظم الدفعة قد انضمت للحركة ، وعندما يتخرجون يجدون أمامهم ضباطاً أحراراً فيبدأ التلاؤم والتلاحم بين الضابط المستجد والضابط القديم ، وبهذا يكون قد ضمن الجيش بشكل مبدئي .

ولن تغفل عن عينه المواقع الأكثر أهمية وتأثيراً كالجامعات والمدارس والدوائر الرسمية والحكومية ذات الأهمية حيث أخذ يمهد وبحنكة ودهاء للتوغل في أعماقها وتمكن من ذلك بحسن اختياره للعناصر العاملة في صفوفه على تحقيق طموحه وطموح ليبيا العملاقة .

حيث كان يبدأ اجتماعاته التي كانت تعقد في العراء النظيف وتحت الأشجار وفي ذرى الصخور أو في خيام البادية بكلمة « العفة » ثم العفة ثم العفة ثم الالتزام .

ومن اجتماعات طلميثة إلى سيدي خليفة إلى فندق النهضة[1] وعلى الرصيف مقابل معهد لاسالي والحركة ما زالت نشطة في خطواتها مواكبة للأحداث .. ومهتمة بالصغيرة والكبيرة على المستويين المحلي والعربي وحتى على المستوى العالمي .

تلك الاجتماعات التي كانت تتوالى في الظروف العصيبة ازدادت حرارتها واشتد حرصها على المواظبة لتحقيق النصر وعبر المخاوف والمخاطر .. حتى وصل بها الأمر لأن ترمي على عاتق عاقديها أعباءً اثقلت كاهلهم فوصل الحد لأن يبيع أحدهم ما في بيته من أثاث أو أن يبيع حلي زوجته أو أخته لدعم الحركة مادياً .. ووصل الأمر لأن يتبرع غالبية أعضاء الحركة برواتبهم في سبيل دعمها وتلبية حاجياتها والمشكلة كانت تكمن بفقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية .. واخص في هذا الصدد أعضاء اللجنة المركزية بالذات وتدرجت من بعد ذلك الحوادث الجسام في عمر الأحرار المتوجهين إلى الانتصار بقيادة الفكر المدبر المثابر على مواظبة النضال من أجل الخلاص .. والطريق ما زالت أمامه سالكة رغم أنها قد طالت وتشعبت وتعقدت وكثرت فيها

= التي أسست في القرن السادس . قام كمرسى عدين (بارش) المرج حالياً .
وطلميثة مدينة هادئة ومركز جميل بين البحر والجبل والغابات وبها متحف للآثار من آثارها المدافن الطلمثية والصهريج العظيم والمسرح الروماني ويربطها بمدينة المرج طريق معبد .. وتأتي طلميثة في الدرجة الثانية من حيث الأهمية التاريخية بعد قورنيا أما عمليات الكشف عن أطلالها فما زالت مستمرة للآن من قبل مصلحة الآثار .

(1) « فندق النهضة » فندق في العاصمة الثقافية بنغازي شهد ذات يوم اجتماعاً من ابرز تلك الاجتماعات وأقساها حيث اضطر اعضاء الحركة لعقد لقاءً لهم فيه فتقاطروا عليه في أوقات متأخرة ومتفاوتة من الليل حيث جاءهم في الصباح معمر ووجدهم نائمين في أوضاع مختلفة وفوق الكراسي لعدم وجود أماكن ولأن الوقت كان متأخراً وفي ذلك الصباح تم الاجتماع وتقرر فيه أن يقدم كل عضو من أعضاء اللجنة المركزية للضباط الوحدويين الأحرار تقريراً في كل شهر عن الضباط الغير منضمين للحركة وخاصة من ذوي الرتب الكبيرة لكي لا يظلم أحد عند الحكم عليه .. وأثر ذلك الاجتماع الهام توالت التقارير السرية عن قادة الوحدات والألوية ومعاونيهم وأخذت الصورة تتضح أمام ناظر المجتمعين في الاجتماع آنف الذكر .

العراقيل والحواجز والمطبات الصعبة ، لكن مهارته وحسن تدبيره وحرصه الشديد على انجاح مخططه الرامي لاسقاط ودحر كيان الظلم .. دفع بعجلة الرفض على أن تتقدم وتتقدم لتلتهم الخطوات بسرعة وتبتلع العراقيل والظروف الصعبة ، واستطاع فعلاً أن يلتهم المسافة الواقعة بينه وبين كيان البطش وقاعه المعتم .. بجدارة لما اشتد الألم وتعاظم فتفاقم في صفوف الجماهير المغلوبة البائسة .

ولما جاء الزمان بذلك اليوم الذي طالما انتظرته عائشة طويلاً .. طويلاً وذاقت ما ذاقت من أجله المرارة والألم والعلقم واعتبرته أول انتصار لنجلها البطل .

فها هو نجلها قد أطل كشمس هذا الصباح الجارف ، لقد جاء المدبر لمسقط رأسه ضابطاً ففرح الأهل به وكذلك النجع الذي طالما أسكره الحنين إليه .

« نعم .. نعم لقد أصبح ولدي ضابطاً في الجيش » . كذلك قال المجاهد يتفاخر بولده أمام ذويه كما يتفاخر المحارب بانتصارات المعركة بعد النصر المبين .

ومعمر الصرخة ، معمر المدبر ، معمر المخطط لدحر القهر ما زال ملتصقاً بصحرائه كالتصاق الصحراء برمالها ودفئها وأهلها .

ها هو ذا ينكب على مساعدة أهله وخاصة مساعدة المجاهد واهتماماته بالمواشي و لم يمض وقت طويل حتى غادر الضابط أهله ومرابع طفولته عائداً للعظيمة بنغازي قاصداً ثكنات قار يونس حيث التحق هناك بالقيادة العامة بقسم الاتصالات « الاشارة » .

ومرّ من عمر الزمان عام كامل حافل بالنضالات ومخاطرها والخطوة للانتصار .. تتقدم .. تزحف زحفاً لتكسح وتدحر كل ما كان يقف في وجهها حائلاً .

وذات يوم وقبل أن ينغمس العصر في صدر النهار هرع أحد الرفاق يبحث عن المدبر المعلم في الأجواء الداخلية للثكنات ليخبره عما بعث في أعماقه الفرحة .. ولما صادفه على مشارف أحد المهاجع مبتسماً قال له بصوت مرتفع فيه ما فيه من الفرحة .

ستذهب إلى مدينة الأضواء .. ستذهب إلى لندن .

فما كان من المدبر إلا أن صمت قليلاً ثم أخذ يخاطبه قائلاً بصوت خافت :

أعلم ذلك .. أعلم ذلك وأشكرك على مشاعرك النبيلة تجاهي .

فأردف الأول قائلاً :

ولكن .. ولكن ما بالي أراك غير سعيد بذلك .

المدبر .. « لا .. لا .. فأنا لست حزيناً ولا فرحاً » .

استطرد الأول :

ولكن لماذا فأنا أعتقد أن في ايفادك أنت وبعض الرفاق إلى لندن فائدة كبيرة لمسيرتنا .

المدبر : سنقرر ذلك فيما بعد .

ثم افترقا كلٌ في اتجاه .

وبعد عدة أيام قرر الرفاق الاستعداد للرحيل إلى لندن ، وبعد قرارهم هذا ذهب كل على حده لزيارة أهله في أجازة ليومين .

فغادر نجل جارف أهله بعد أن قضى معهم ليلتين ثم أقلته الطائرة مع رفاقه إلى بريطانيا .
ولما دلف إلى حضن الطائرة وجلس على مقربة من احدى نوافذها بدأ ينتابه بل داهمه شعور غريب محزن لم يداهمه من قبل وكأن ذلك الشعور كان ينطق ويقول :
الطغيان يحاول أن يسلخني عن العملاقة .. « ولكن .. لا .. لا .. لن تطول غيبتي »
هكذا قال في سريرته قبل أن تقلع الطائرة .
ولما أقلعت وبدأت تغادر غاص بناظريه عبر النافذة في عيون السمراء ليبيا .. ليبيا الأرض والناس .. والمظالم ، ليبيا أدريس والفسق والرديلة ، ليبيا الحب ، ليبيا عائشة والمجاهد والرفاق .
وعندما تلاطمت الطائرة بالغيم خطفه الذهول طويلاً .. طويلاً حيث أخذ يسترجع شريط الذكريات ويتذكر .
فتذكر أولى أيامه الحافيات على مقربة من بئر الكراعية ، فتذكر جارف وأهلها .. كم توقف عند عائشة وعند أبو منيار .. وتذكر أخواته الزادمة وسالمة وعتيقة .
ومضى شريط الذكريات يستعرض بشوق ونشوة واجتهاد أحداث وحكايات تلك السنين الزاخرة الحافلة بالويلات والحب معاً ..
فها هو ذا يتذكر أيام الدرس في الجفرة ، ولما خطرت بباله سرت تذكر ويلات تلك الطريق التي طالما أدمت قدميه ، ثم داهمته ذكريات سبها الصرخة فتذكر الرفاق فيها .. وأيام المظاهرات .. ويوم كان الطرد والحقد والقهر .
والطائرة ما زالت تبحر في الأجواء الرحبة .
ووحدها ذاكرته كانت تبحر في عمق تلك السنين .. فما زال أسيراً لها يخطفه الذهول ويشده بما ملك إلى ذلك الماضي الذي ما رحمه أبداً من الصرخة للدفء وللقرار ثم لأعتاب الانتصار .

الفصــــل الأخــــير

نشوة في أوج دربها يرافقها بعض شجن ودفء .. وفجأة تتحول كما يتحول الوطن غصباً لعاصفة الصحراء .. يحولها عمر الوقت الخائف لسؤال لا جواب له يرافقه بعضاً من توتر وهذيان لنفس معذبة تود أن تجرف وتغرف من البيان ما استطاعت إلى ذلك جرفاً بعد أن غابت عنها الحقيقة وكذلك تبيانها وبيانها منذ أول السنين .

تلك النفس ما زالت غاضبة مضطربة تود بلهفة لا حدود لها أن تختصر الزمن والمسافات المستحيلة كما اختصرتها ذات يوم جارف المنسية .. لتقف في وجه الطغيان بما ملكت ..

وها هي ذي تقف الليلة مشتاقة .. مشتاقة مثل شوق اليفاعة للطفولة والصبا .. تقف لتبتلع بفاهها الصغير كلمة تشدها .. تأخذها عنوة من فم المستحيل الذي بات عندها شوقاً وكشفاً وتبياناً .. وسيدلها على تلك الأيادي القذرة الظالمة التي سحقت ذات مرة بيته المتعثر المسكين وقتلت أمه وتوهت الشيخ وأخته زهرة .

وها هي ذي النفس تتنهد .. تنهيدة معذبة لتقول بصوت خافت لم تسمعه الجدران بعد أن وقفت العين عن القراءة في آخر المراحل على أعتاب الانتصار .. من قصة طويلة هي ذلك الماضي الذي سيبدأ غداً ..

« ياه .. ياه .. ياه ولكن ماذا عن بقية القصة قصة ذاك العصر الذي جاء .. وماذا عن بقية المراحل في حياة نجل جارف الذي وقف حياته ليسقط الظلم ويدحر كيانه دحراً .. وماذا عن رحلته إلى لندن ماذا عن تلك الرحلة في مدينة الأضواء الصاخبة مدينة الوحش الإنسان !! » ..

ثم سكت .وعاد فأردف يتمتم قائلاً :

« ولكن .. ولكن كيف استطاع أن يبدل العذابات ويصنع ما في الخواطر أحلاماً !! » .

ثم ران عليه صمت طويل وبعد الصمت نهض من قعدته على الفراش وأخذ يخطو .. باتجاه النافذة

خطوات متعبة .. ولما اقترب منها ونظر عبرها داهمته ابتسامة الفجر ذلك المزدان بالألوان القزحية الشفافة التي بدت تطل على الأرجاء وبيروت في سباتها ما زالت غافلة عن وجوه الأشباح .. تلك الوجوه القذرة العميلة التي ما زالت تخيفها بأقنعتها ووقاحتها وقبحها .. وقبح مسلكها المتسلط البغيض الشنيع .

ثم استرجع الخطوة بخطوة .. وعاد لفراشه منهمكاً متشوقاً لشيء ما .. بعد القراءة والابحار طويلاً في بحر الفكر الأخضر ثم لجأ للنوم فنام نوماً عميقاً .

ولما جاء الصباح ندياً .. استيقظت أوديت من نومها كما يستيقظ الندى قبل الشروق .. وما أن أشرقت الشمس حتى كانت قد أعدت مائدة الافطار .. وانتظرت صعب .. لأن يستيقظ لكن صعبا كان مستغرقاً في نوم عميق بعد ليلة طويلة ساهرة كان قد قضاها في رحلة سنوات ما قبل الولادة .

وانتظرته .. ولما طال انتظارها هرعت إلى غرفته فأيقظته فاستيقظ تعباً وبدا ما حول عينيه منتفخاً .. وعلى المائدة خاطبته قائلة :

– يبدو أنك قد أطلت السهرة ليلة أمس .

– كانت رحلة حافلة زاخرة .

– أي رحلة ؟

– رحلة سنوات ما قبل الولادة في حياة الرجل العصر والعصر الرجل ابن جارف المنسية .

– اتقصد أنك قد قرأت في رحاب الفكر الأخضر .

– لا .. لا .. بل قرأت في رحاب القذافي .. أعني حياته ونشأته وصرخته من ولادته وإلى أعتاب الانتصار .

– أأعجبتك القصة ؟

– انها مذهلة حياة هذا الرجل .. فتصوري أن ينتفض الحرمان في وجه الطغيان وهو لا يملك عابرة القارات .

– ولكن كيف استطاع أن يفجر عصر الجماهير .

– إلى هذا الوقت لا أدري ؟ ولكن الحرمان والبؤس والقهر بألوانه مع الاجتهاد والعمل على تحقيق الطموح .. قادرين على أن يفجرا الزمن لو اجتمعا في وقت واحد .

– « ياه .. ياه .. ألهذه الدرجة أنت متأثر بما قرأت » .

– لم أكن أدري يا أمي أن الانتصار قد دخل في جعبة الفقراء ..

– « ألا .. تود أن تأكل .. هيا » تفضل وتناول طعامك فتناول طعامه بصحبة أمه .

وبعد الافطار .. لملمت أوديت المائدة ثم تأهبت استعداداً للخروج .. فخرجت إلى مقر عملها .

في تلك الأثناء كان صعب قد احتل مكانه وراء نافذة تطل على وجه البحر .. ويدأ يتمعن بالبحر .. وبالموج .. وبوجه النهار إلى أن استدعاه الشاطىء إليه فهرع باتجاهه راكضاً وما أن وطئت أقدامه الرمال حتى اختار مكاناً فيه وجلس طويلاً .. جلسة كانت تتصل بذلك الماضي البعيد .. وتشتاق بلهفة إلى ذلك الآتي .. إلى المستقبل المجهول .. ولما غلبته نشوة الاطلاع على الحقيقة فرّ للمكتبات الواقفة هنا وهناك ليبحث عن الجزء التالي من بقية القصة .

وها هو ذا .. قد دخل إلى مكتبة وخرج منها لأخرى .. ولا جدوى فالجزء التالي من القصة غير موجود .

وبالصدفة وبعد أن سئم من السؤال عما يريده لفت نظره مجلد أخضر تصدر احدى الواجهات لمكتبة الأيام الواقفة مقابل « الروشة » فهرع ودلف إليها وتمكن من شراء المجلد لما عرف أنه ميثاق اتحاد الدول العربية المطبوع في جماهيرية العرب الأولى .

ثم لفه تحت إبطه وأسرع إلى أوديت ليخبرها عن فائق سروره بالعثور على الميثاق .

ولما دخل إلى البيت لم يجدها ..

كان الليل قد بدأ يعلن رحلته ليجتاح الأجواء والأرجاء .. فهرع بعد أن وضع المجلد على المنضدة في غرفة الصالون ليقف وراء النافذة التي تطل على الشارع الخلفي ليترقب عودة أمه وهو في بالغ التوتر والقلق .

ومرت نصف ساعة وها هي قد أشرقت ابتسامته أخيراً لما حضرت السيارة الصغيرة التي تقل في حضنها أوديت .. فترك النافذة وخطا باتجاه أريكة صغيرة ليجلس عليها .

ولحظات مرت بدون قلق وها هي أوديت قد دلفت أخيراً للبيت ..

« لماذا تأخرتِ » كذلك قال يخاطبها بعصبية .

أوديت مبتسمة قالت :

– عذراً يا حبيبي إنها ظروف المشفى القاهرة التي تضطرني في هذه الأيام العصيبة للبقاء على رأس عملي وخاصة اليوم فقد كان عاصفاً بانفجار سيارة مفخخة في منطقة « البربير » أدى ذلك الانفجار إلى قتل العشرات من الاطفال أثناء انصرافهم من مدرستهم القريبة من مكان الحادث .

صعب : إلى متى ستبقى الحال هكذا في بيروت ؟

أوديت : .. لا تهتم .. لا تهتم فالله وحده وليّ التدبير .

ثم استطردت فقالت :

– وأنت ماذا فعلت هل ذهبت للمكتبات ؟

– نعم .. ولكنني لم أعثر على ما أريد .. وللأسف .

– وماذا ستفعل الآن ؟

– لقد وفقت في شراء هذا المجلد .. وبعد أن مد يده اليمنى إلى المنضدة وتناول من عليها الميثاق قال : انه ميثاق اتحاد الدول العربية المطبوع في جماهيرية العرب الأولى .

أوديت : ولكنه مجلد .

صعب : أدري أنه مجلد .

أوديت : ستحتاج إلى وقت طويل لتتمكن من قراءته .
صعب : ربما عدة أيام لا أكثر .
أوديت : افعل ما تشاء .. وكل همي أن تفوز بما تريد .
صعب : سأفوز .. سأفوز بإذن الله .

وبعد أن ران عليهما صمت .. استأذنت أوديت وانصرفت لتبدل ثيابها وتعد مائدة العشاء .

وبعد العشاء ..

دخل صعب إلى غرفته وعلى الفور تمدد على فراشه ثم جلس بعد عدة لحظات وتناول الميثاق ..

وبدأ القراءة بصوت عالٍ لم يزعج أوديت المستلقية المرتخية على فراشها حيث قال :

« .. انطلاقاً من الايمان

ميثاق الاتحاد العربي(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

انطلاقاً من الايمان بالانتماء القومي للأمة العربية وتراثنا الحضاري المشترك .
وإدراكا للواقع الاقليمي المتردي في الوطن العربي وللعدوان الصهيوني الامبريالي الذي يستهدف تدمير الوجود العربي .
ووعيا بالمصير العربي الواحد ووصولا إلى عمل مشترك يضمن الحفاظ على مستقبل هذه الأمة لمواجهة كافة الأخطار والتحديات .
وإيمانا بأن الوحدة العربية هي السبيل الوحيد ليس فقط من أجل البقاء بل للخروج من التخلف الاقتصادي وتحقيق التقدم والتنمية وتأمين مستقبل لائق لهذه الأمة .
ووعيا لما أجابت عنه تجارب متعددة خاضتها الأمة العربية في تاريخها الحديث وما تقتضيه الظروف من سعي دؤوب لبلوغ الهدف المتوخى عن طريق التدرج والبدء بالحد الأدنى .
وإدراكاً بأن أقوم سبيل إلى ذلك يتمثل في إقامة اتحاد بين الأقطار العربية يؤمن الحفاظ على خصوصياتها الذاتية ويحقق جمع الامكانيات العربية الاستراتيجية لمعالجة قضاياها المصيرية .
واعتباراً لكون هذا الاتحاد يشكل منطلقاً تاريخياً في سبيل تحقيق وحدة الأمة العربية .
فقد اتفق الأطراف الموقعون على هذا على اقامة اتحاد يسمى « الاتحاد العربي » وفقا للميثاق المرفق وملحقاته .

(1) « ميثاق الاتحاد العربي » .

ميثاق الاتحاد العربي

البند الأول

ينشأ بمقتضى هذا الميثاق اتحاد عربي بين الأقطار العربية الموقعة عليه والقابلة لاحكامه ويسمى « الاتحاد العربي » .

ويكون للاتحاد الشخصية القانونية ، كما يتمتع بالاهلية اللازمة لاداء مهامه في الاقطار الأعضاء وفي المجال الدولي ، وتقوم أجهزة الاتحاد بتمثيله في حدود اختصاص كل منها .

أهداف الاتحاد

- نهج سياسة عربية مشتركة في كافة الميادين .
- حماية الوطن العربي والدفاع عن سلامة أراضيه .
- تحقيق تنمية اقتصادية عربية واجتماعية وإرساء الوحدة الاقتصادية العربية على أسس سليمة .
- إحياء الثقافة العربية الإسلامية .
- تطوير البحث العلمي .
- رفع مستوى معيشة المواطن العربي وتحسين ظروف عمله وانتاجه وتوفير السبل له لمواكبة التطور الاقتصادى والاجتماعي والثقافي .

البند الثاني

يهدف الاتحاد إلى ما يلي :

- العمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة .
- توثيق عرى الاخوة بين اطرافه .
- العمل لرقي الأمة العربية والدفاع عن حقوقها وحماية مصالحها .

البند الثالث

تهدف السياسة المشتركة المشار إليها في البند السابق إلى تحقيق الأغراض التالية :

- في المجال الدولي :

تعزيز علاقات الأطراف دولياً وتطوير وابراز دورها على كافة المستويات وفي المنظمات والهيئات الدولية والاقليمية قصد الحفاظ على السلم والأمن الدوليين وانماء العلاقات الودية بين الأمم وتحقيق التعاون الدولي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثنائية والإنسانية .

- في المجال العربي :

تعزيز أواصر الأخوة والمودة بين الأطراف واقامة تعاون وثيق بينها وعلى الأخص فيما يلي :

في مجـال الدفـاع : صيانة استقلال الأطراف ورد أي اعتداء عليها أو على أي منها .
في المجال الاقتصادي : تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية – صناعية وزراعية وتجارية وإنسانية بأحدث منشآت مشتركة واعداد برامج عامة ونوعية لتحقيق التلاحم بين أطرافه .
في مجال التعليم والثقافة والعلوم والبحث العلمي :
تنمية التعليم وتوحيد المناهج وأساليب التدريس وصيانة الهوية القومية العربية واحداث مؤسسات ثقافية مشتركة للحفاظ على تطويره وانمائه وتشجيع البحث العلمي .

أجهـزة الاتحـاد

البند الرابع

يكون للاتحاد العربي الأجهزة التالية :
أولاً : رئاسة عليا للاتحاد ، ويلحق بها :
1 – مجلس تنفيذي يلحق به :
(أ) لجنة تنفيذية .
(ب) مجالس اتحادية .
2 – أمانة دائمة .
ثانياً : مؤتمر قومي .
ثالثاً : محكمة اتحادية .
رابعاً : مصرف مركزي للاحرار .
خامساً : شرطة اتحادية .

الرئاسة العليا للاتحاد

الرئاسة

البند الخامس

تتكون الرئاسة العليا للاتحاد من ملوك ورؤساء الاقطار الاعضاء
ويكون لها دون غيرها سلطة اصدار القرارات المتعلقة بالسياسة العليا للاتحاد وتصدر قراراتها بالأغلبية .
وللرئاسة أن تصدر توصيات في الشئون التي تراها .
وتنعقد الرئاسة مرة كل ستة أشهر تختار من بين أعضائها رئيساً للدورة يتولى إدارة شئونها كما يتولى إدارة شئون الاتحاد لذات الفترة .

قرارات الرئاسة وتوصياتها

البند السادس

تكون قرارات الرئاسة ملزمة للأقطار الاعضاء وتتمتع بأسبقية في التنفيذ على غيرها من القرارات الصادرة من هيئات الاقطار الأعضاء .

ويلتزم الأعضاء بعدم اصدار أو تنفيذ ما يناقض قرارات الرئاسة أو يتعارض مع أحكامها أو ينقص من آثارها .

المجلس التنفيذي

البند السابع

يتكون المجلس التنفيذي من أمناء اللجان الشعبية العامة ورؤساء وزارات أو حكومات الأقطار الأعضاء وتكون رئاسته بالتناوب بين أعضائه ويعقد المجلس التنفيذي اجتماعاً دورياً كل ستة أشهر .

البند الثامن

يختص المجلس التنفيذي بما يلي :

- اقتراح السياسة العامة للاتحاد والخطط اللازمة لنموه وتقدمه .
- اعداد مشروع جدوى أعمال رئاسة الاتحاد .
- متابعة تنفيذ القوانين الاتحادية وقرارات الرئاسة والسياسة العامة والخطط .
- متابعة أعمال اللجنة التنفيذية .

اللجنة التنفيذية

البند التاسع

تتكون اللجنة التنفيذية من رؤوساء المجالس الاتحادية ويرأس اجتماعاتها أحد أعضاء المجلس التنفيذية بالتناوب .

وتعقد اجتماعاتها مرة كل ثلاثة أشهر على الأقل .

البند العاشر

تختص اللجنة التنفيذية بما يلي :

- اعداد مشاريع القوانين .
- اعداد مشاريع الميزانيات .
- مراجعة خطط وأعمال المجالس التنفيذية ومتابعة تنفيذها .
- الأشراف على تنفيذ الميزانية الاتحادية وميزانية التنمية .
- اصدار اللوائح والقرارات اللازمة لتنفيذ القوانين .

البند الحادي عشر

لا يجوز الجمع بين رئاسة المجلس التنفيذية واللجنة التنفيذية ، كما لا يجوز أن يكون رئيس المجلس التنفيذي أو اللجنة التنفيذية تابعاً لجنسية الدولة التي منها رئيس دورة الرئاسة .

المجالس الاتحادية

البند الثاني عشر

يكون للاتحاد العربي المجالس التالية :

- مجلس الشئون السياسية .
- مجلس شئون الدفاع .
- مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية .
- مجلس التعليم والشئون الثقافية .
- مجلس شئون البحث العلمي .
- مجلس التشريعات والشئون القضائية .
- مجلس الشئون الداخلية .
- مجلس الصحة والشئون الاجتماعية .
- مجلس شئون العمل .
- مجلس شئون الطاقة والمياه .
- مجلس شئون المواصلات والاتصالات .

مجلس الشئون السياسية

البند الثالث عشر

يتكون مجلس الشئون السياسية من أمناء وزراء الشئون الخارجية بالأقطار الأعضاء . ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

كما يجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الرابع عشر

يختص مجلس الشئون السياسية بما يلي :

- العمل على تحقيق أهداف الاتحاد في اقامة وحدة عربية شاملة .
- تنفيذ قرارات الرئاسة في شئون العلاقات الخارجية .
- العمل على توحيد السياسة الخارجية للاقطار الأعضاء .
- دراسة القضايا السياسية للاتحاد وتحديد موقف موحد منها .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة أحالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون الدفاع

البند الخامس عشر

يتكون مجلس شئون الدفاع من وزراء الدفاع بالأقطار الأعضاء ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم كما يجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند السادس عشر

يختص مجلس شئون الدفاع بما يلي :

- حماية الأمن القومي ووضع خطط لتأمين سلامة الاتحاد وأعضائه .
- دراسة قضايا الاتحاد في شئون الدفاع .
- العمل على توحيد شئون التجييش والتدريب والتسليح بين أقطار الاتحاد .
- إقامة صناعات حربية مشتركة ومتكاملة .
- انشاء قيادة أركان عربية واحدة .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية

البند السابع عشر

يتكون مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء التخطيط والاقتصاد والصناعة والزراعة للأقطار الأعضاء .

ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثامن عشر

يختص مجلس الشئون الاقتصادية والغذائية بما يلي :

- العمل على توحيد البنية الاقتصادية الأساسية للأقطار الأعضاء .
- تسهيل انتقال رؤوس الأموال وممارسة النشاط الاقتصادي .
- توحيد وسائل استغلال مصادر الثروة الطبيعية في الأقطار الأعضاء وبما في ذلك :

(أ) توحيد شروط استغلال مصادر الثروة الطبيعية وتوحيد سياسة انتاجها وتسعيرها .

(ب) انشاء مؤسسات قومية لاستغلال مصادر الثروة الطبيعية .

(ج) توحيد سياسة تسويق المنتجات القائمة على مصادر الثروة الطبيعية ومنع المنافسة بين الأقطار الأعضاء .

- وضع سياسة قومية مشتركة للتعريفة الجمركية وإلغاء تلك التعريفة بين الأقطار الأعضاء .
- توزيع الصناعات بين الأقطار الأعضاء بما يحقق التكامل الاقتصادي بينها .

مجلس التعليم والشئون الثقافية

البند التاسع عشر

يتكون مجلس التعليم والشئون الثقافية من أمناء اللجان الشعبية العامة ووزراء التعليم والثقافة والاعلام للاقطار الاعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند العشرون

يختص مجلس التعليم والشئون الثقافية بما يلي :

– تنمية التعليم وتوحيد المناهج وأساليب التدريس وتعريب التعليم العالي .

– احداث مؤسسات ثقافية مشتركة للحفاظ على التراث الثقافي العربي الإسلامي والعمل على تطويره وانمائه .

– تبادل الخبرات والمعلومات والبحوث العلمية والتقنية وتبادل الأساتذة والمدرسين والخبراء .

– توحيد المصطلحات وتصنيف المعلومات .

– وضع سياسة اعلامية موحدة .

– أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون البحث العلمي

البند الحادي والعشرون

يتكون مجلس شئون البحث العلمي من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء البحث العلمي للأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثاني والعشرون :

يختص مجلس شئون البحث العلمي بما يلي :

– تنسيق سياسة البحث العلمي في الأقطار الأعضاء ووضع خطة موحدة لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للوطن العربي .

– اعداد البحوث والدراسات التي تستلزمها التنمية العربية بالتعاون والتنسيق مع مؤسسات ومراكز البحث العلمي الاتحادية والقطرية ووضع الخطط التنفيذية لتلك البحوث والدراسات والقيام بها .

– تنمية ودعم وتشجيع مؤسسات ومراكز البحث العلمي ووضع الخطط لتنظيم وتوثيق التعاون فيما بينها وبين غيرها من المؤسسات العلمية .

– تشجيع وتوثيق وتنظيم البحث العلمي في الوطن العربي وتبادل البيانات والمعلومات وتوثيقها .

– تعبئة جهود العلماء والباحثين العرب في سبيل تحقيق النهضة العلمية والتقنية المنشودة ، وتهيئة كافة السبل الضرورية لتأدية رسالتهم .

– انشاء هيئة قومية للبحث العلمي .

– الاهتمام بوسائل التقنية وتشجيع الاختراعات والعمل على حمايتها وتسجيلها في الأقطار الأعضاء .

– أية مسائل ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس التشريعات والشئون القضائية

البند الثالث والعشرون

يتكون مجلس التشريعات والشئون القضائية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء العدل للأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس الاستعانة بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الرابع والعشرون

يختص مجلس التشريعات والشئون القضائية بما يلي :

- مراجعة واعداد مشاريع القوانين الاتحادية وصياغة اللوائح والقرارات الاتحادية .
- وضع سياسة موحدة تهدف إلى توحيد التشريعات والنظم القضائية في الأقطار الأعضاء .
- احداث مؤسسات قضائية مشتركة بين الأقطار الأعضاء .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس الشئون الداخلية

البند الخامس والعشرون

يتكون مجلس الشئون الداخلية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء الداخلية للأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند السادس والعشرون

يختص مجلس الشئون الداخلية بما يلي :

- وضع سياسة أمنية عربية موحدة .
- توحيد الاجراءات والنظم الخاصة بالجنسية ووضع خطة لالغاء الجنسيات القطرية واستبدالها بالجنسية العربية الواحدة .
- وضع النظم والاجراءات الخاصة بتسهيل اجراءات الدخول والخروج بين الأقطار الأعضاء .
- وضع النظم الخاصة بتوحيد البطاقات وجوازات السفر ووثائق التنقل .
- توحيد نظم الشرطة في الأقطار الأعضاء والاشراف على الشرطة الاتحادية .
- الاشراف على تسليم المجرمين بين الأقطار الأعضاء .
- دراسة التدابير والصعوبات ووضع الانظمة الملائمة للمؤسسات الاصلاحية والعقابية ومعاملة المذنبين والرعاية اللاحقة لهم .
- اعداد الدراسات والبحوث العلمية المتعلقة باسباب وعوامل الانحراف والجريمة وبواعثها

وخاصة ما يتعلق منها بالاحداث ومعاملتهم واصلاحهم .
– أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس الصحة والشئون الاجتماعية

البند السابع والعشرون

يتكون مجلس الصحة والشئون الاجتماعية من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء الصحة والشئون الاجتماعية للأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثامن والعشرون

يختص مجلس الصحة والشئون الاجتماعية بما يلي :

– وضع سياسة موحدة في مجال الصحة والشئون الاجتماعية تهدف إلى رفع المستوى الصحى (البدني والنفسي) للفرد العربي .
– تنسيق وتوحيد الخطط والبرامج المتعلقة بصحة المجتمع والوقاية من الأمراض ومكافحتها ومنع تسرب الأمراض الوبائية .
– وضع خطة لتنفيذ سياسة دوائية عربية موحدة وتأسيس شركات ومؤسسات للشئون الدوائية والمستلزمات الطبية .
– النهوض بالخدمات الصحية والمهنية ودور الرعاية الاجتماعية وانشاء ودعم المؤسسات والمراكز الهادفة إلى ذلك .
– وضع سياسة موحدة لنظام التأمينات والضمان الاجتماعي .
– أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون العمل

البند التاسع والعشرون

يتكون مجلس شئون العمل من أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء العمل للأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثلاثون

يختص مجلس شئون العمل بالاتحاد بما يلي :

– توحيد التشريعات العمالية وظروف وشروط العمل ووضع خطة مشتركة تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ورفع مستوى القوى العاملة .
– اعداد الدراسات والابحاث في مجالس تخطيط القوى العاملة وتشغيلها وكذلك في مجال علاقات العمل والإدارة بغية اقامة هذه العلاقات على أسس مستقرة عادلة .

- اقتراح السبل والوسائل لتوزيع استخدام العمالة العربية بما يكفل الاستغناء عن العمالة الأجنبية واقتراح السبل والوسائل الخاصة بانتقال العمالة بين الاقطار الأعضاء بسهولة ويسر .
- خلق وسائل تشجيع توطين العمالة العربية بين الأقطار الأعضاء .
- اقتراح توزيع الخبرات العربية في مجال العمل بما يحقق أغراض التنمية العربية .
- إنشاء مراكز للتدريب والتأهيل المهني وتوزيعها بين الأقطار الأعضاء .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

مجلس شئون الطاقة والمياه

البند الحادي والثلاثون

يتكون مجلس شئون الطاقة والمياه من أمناء اللجان الشعبية العامة ، ووزراء النفط والكهرباء والطاقة والزراعة في الأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الثاني والثلاثون

يختص مجلس شئون الطاقة والمياه بما يلي :

- وضع خطة قومية لاستكشاف واستغلال مصادر الطاقة المختلفة .
- تنظم استعمال مصادر الطاقة العربية وربط الأقصار الأعضاء بشبكات قومية في مجال النفط الخام والغاز الطبيعي والكهرباء والطاقة الذرية .
- وضع خطط لاستكشاف واستغلال الطاقة البديلة والمتجددة .
- انشاء وكالة عربية للطاقة النووية .
- دراسة مصادر المياه المتاحة في الاقطار الأعضاء من سطحية وجوفية .
- العمل على رفع كفاءة استغلال المياه بتنفيذ شبكات قومية للري وربط الشبكات القائمة .
- توزيع المياه بين الأقطار الأعضاء بما يحقق الاستفادة المثلى من الأراضي الزراعية الخصبة في الوطن العربي .

مجلس شئون المواصلات والاتصالات

البند الثالث والثلاثون

يتكون مجلس شئون المواصلات والاتصالات أمناء اللجان الشعبية العامة ، وزراء المواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية في الأقطار الأعضاء .

ويجوز بقرار من الرئاسة اضافة أعضاء آخرين بحكم مناصبهم أو تخصصهم .

ويجوز للمجلس أن يستعين بمن يرى الاستعانة به في حالات خاصة يراها .

البند الرابع والثلاثون

يختص مجلس شئون المواصلات والاتصالات بما يلي :

- توحيد وربط وسائل نقل الاشخاص والبضائع على أساس قومي وانشاء مؤسسات قومية للنقل البري والجوي والبحري .
- توحيد وربط الاتصالات السلكية واللاسلكية بجميع أنواعها وانشاء شبكة اتصالات عربية موحدة .
- العمل على تحقيق البرامج من خلال انشاء هيئات قومية تنفيذية متخصصة تتولى شئون الأنشطة التابعة للقطاع .
- توحيد المواصفات الفنية وذلك لكافة الأنشطة التابعة لقطاع النقل والمواصلات والاتصالات على المستوى القومي .
- العمل على وضع السياسات الموحدة لتعريفات النقل والاتصالات على المستوى القومي .
- توحيد المصطلحات العلمية في مجال الارصاد الجوية وانشاء مركز قومي موحد للبحوث العلمية وتطبيقاتها العلمية في هذا المجال .
- أية مسائل أخرى ترى الرئاسة احالتها إليه لدراستها أو تنفيذها .

البند الخامس والثلاثون

يعقد كل مجلس دورة واحدة كل ثلاثة أشهر .

ويرأس اجتماعات المجلس بالتناوب رئيس من بين أعضائه ويحدد رئيس دورة الرئاسة مكان الاجتماع وموعده . ويجوز بقرار من الرئاسة دعوة المجالس مجتمعة أو دعوة بعض منها لبحث المسائل المشتركة .

كما يكون لكل مجلس تشكيل فرق عمل من بين أعضائه لدراسة مسألة أو مسائل معينة .

البند السادس والثلاثون

يكون رئيس دورة كل مجلس أميناً للاتحاد لشئون ذلك المجلس ويعمل الأمين الاتحادي تحت إشراف ووفقاً لتوجيهات رئيس اللجنة التنفيذية .

الأمانة الدائمة

البند السابع والثلاثون

يكون للرئاسة أمانة دائمة تناط بأمين عام وأمناء مساعدين وعدد كاف من الموظفين ويبين ملحق خاص اختصاص الامانة الدائمة والقواعد المنظمة لسير أعمالها .

المؤتمر القومي

البند الثامن والثلاثون

المؤتمر القومي هو السلطة التشريعية العليا للاتحاد ويتألف من مندوبين عن المجالس التشريعية

للأقطار الأعضاء بعدد متساو لكل منها .

ويختص المؤتمر باصدار القوانين الاتحادية كما يختص بدراسة السياسة التشريعية للأقطار الأعضاء قصد توحيدها.

ويعد المؤتمر لائحته الداخلية ويصدر بها قرار الرئاسة .

البند التاسع والثلاثون

للرئاسة والمجلس التنفيذي واللجنة التنفيذية وأعضاء المؤتمر القومي تقديم مشاريع القوانين الاتحادية .

ويجوز للرئاسة أن تطلب من المؤتمر القومي بحث أية مسألة تراها وتقديم توصيات بشأنها .

البند الأربعون

ويجوز للمؤتمر أن يطلب احاطة أو معلومات أو تقارير من المجالس الاتحادية أو الأقطار الأعضاء في كل ما يتعلق بشئون الاتحاد ويكون له حق مناقشتها واصدار توصيات بشأنها .

البند الحادي والأربعون

يعقد المؤتمر دورة كل سنة يختار من بين أعضائه أمانة له من أمين وأمناء مساعدين وتحدد اللائحة الداخلية للمؤتمر كيفية سير أعماله وإدارة جلساته .

البند الثاني والأربعون

تعرض القوانين الاتحادية المقرة من المؤتمر على الرئاسة في أول اجتماع لاصدارها .

البند الثالث والأربعون

ويكون للرئاسة الحق في إعادة القوانين إلى المؤتمر بملاحظات حولها فإذا أصر المؤتمر على ما قرره تعين على الرئاسة اصدارها .

البند الرابع والأربعون

مع عدم الاخلال بالمنصوص عليه في البند ٤٢ تعرض نتائج أعمال المؤتمر القومي واللجنة التنفيذية على الرئاسة لاتخاذ ما تراه بشأنها من قرارات .

الشرطة الاتحادية

البند الخامس والأربعون

يحدد قرار من الرئاسة تكوين الشرطة الاتحادية وتشكيلاتها وعدد وحداتها ومهامها .

وتلتزم الاقطار الأعضاء بتقديم التسهيلات والمهمات والقواعد وغيرها من المتطلبات للشرطة الاتحادية وفقاً للقرارات التي تصدرها الرئاسة بناء على عرض من مجلس الشئون الداخلية .

المحكمة الاتحادية العربية

البند السادس والأربعون

تشكل المحكمة الاتحادية من رئيس وأعضاء يصدر بتعيينهم قرار من الرئاسة ويصدر قرار من الرئاسة بالنظام الأساسي للمحكمة الاتحادية وتصدر الجمعية العمومية للمحكمة لائحتها الداخلية والاجرائية .

البند السابع والأربعون

تختص المحكمة بالفصل فيما ينشأ بين الاقطار الأعضاء من منازعات ، أو بين الاتحاد وأي قطر أو أكثر من أعضائه .

ولها على وجه الخصوص النظر في المسائل التالية :

(أ) المنازعات المتعلقة بتفسير أو تنفيذ هذا الميثاق والملاحق والاتفاقات والبروتوكولات الملحقة به .

(ب) المنازعات التي تنشأ بين الأقطار الأعضاء أو بين الاتحاد وأي قطر وأكثر من أعضائه تنفيذاً لقرارات الرئاسة .

وفجأة .. توقف عن القراءة .. ثم أغلق المجلد ووضعه على منضدة قريبة وقفت تلازم السرير .

ونفسه المشتاقة ليوم النصر العظيم .. لذلك المستحيل في زمن اللا استحالة تلذذت بيقظتها وهي تتصور تصورات كان منبعها « الميثاق » ذلك الخلاص. وتنهدت تنهيدات قصيرة وطويلة .. كان عمقها الميثاق .. ففرحت للتنهيدة ثم بكت بدون دموع في حرارة ما عرفها زمن البكاء العربي بعد .

ولما بدأت الأجفان تتراقص .. خضعت فاستسلمت العيون للنوم ورضوانه فتمدد الجسد في الفراش للدفء وهو ملتهب .. وأغمضت العينان ولما هدأت آخر الأنفاس جاء الاسترخاء ثم الراحة والنفس غير مرتاحة ما زالت حيرانة بين حزنها وغبطتها .. والدماغ نشط يصارع صور الخيال الخصب وأحداثاً مخزونة في الذاكرة الفتية المسمومة .

والعينان مغمضتان يشدهما حبل النوم بالقوة لدياجيره المنيرة المظلمة .

فجأة .. غادرت الروح وظلت الأنفاس دافئة وظلت دقات القلب التي ما سكتت فطرق الحلم أبواب النفس .. جاء ليستدعيها ويتحفها بأمانيها وآمالها بدون جهد أو عناء لتدخل عالمه فيدخل عالمها وتحيا الأسطورة ، تحيا الأسطورة عن قرب ، تلك التي عجز عن تصويرها وتحقيقها واقعنا العربي العاهر المتعب الظالم .

وفي الحلم .. تراءى له « انه وبينما كان يجلس على أريكة مريحة وقفت في مقابلة جهاز (التلفاز) الذي ما زال يعرض لليوم الثالث على التوالي وبدون انقطاع ترتيل الآيات البينات من كتاب الله العزيز .. » .

« ولكن ما الذي قد حدث في العالم العربي حتى يعرض التلفاز وعلى غير عادته ترتيل القرآن الكريم بهذا التواصل الذي لا مثيل له .. من قبل .. لماذا كل هذه الأيام .. ولماذا لم يستأنف برامجه بعد ؟ » كذلك قال صعب في سريرته مدهوشاً كل الدهش .

فجأة توقف الصوت .. صوت الإذاعة المرئية .. وما أن مرت عدة ثوانٍ حتى عاد الصوت يقول : « هنا رأس جدير .. تلفزيون دولة يعرب الكبرى » .

« هنا رأس جدير .. تلفزيون دولة يعرب الكبرى » أعزائي المشاهدون من المحيط إلى الخليج أسعد الله أوقاتكم .

من رأس جدير عاصمة الدولة الكبرى نتابع معكم بثنا في هذا اليوم التاريخي العظيم الذي سننتقل فيه معكم إلى مدينة « مكة المكرمة » لنقل حفل العقاب .. عقاب الذين كانوا بحق سياطاً ظالمة تحكمت فينا على مر السنين الطويلة .. تلك السياط الديكتاتورية التي طالما جلدتنا حتى الثمالة .. فطفح الكيل .. طفح الكيل .

ولما جاء يومنا هذا يوم انتصار الجماهير بقيام وحدتهم الكبرى وباطاحة كل الأنظمة العاهرة .. يوم العقاب والحساب الذي سنتابع أحداثه على الهواء مباشرةً ..

فتعالوا معنا إلى مدينة مكة المكرمة لنحيا اللحظات الحاسمة تلك التي سنطوي فيها الصفحة السوداء في حياة الأمة .

تعالوا معنا ..

تعالوا معنا ..

وعينا صعب مشدودتان باتجاه الشاشة .. وكذلك كل العيون في بلاد العرب في مشرقها وفي مغربها .. كلها تنتظر ما سيحدث بعد قليل في مكة المكرمة ..

وعلى الشاشة ها هي قد ظهرت المدينة المقدسة العظيمة مكة المكرمة .. ثم زحف البث باتجاه ساحة العقاب .

وفي ساحة العقاب .. ها هي قد ظهرت البراميل المصطفة الواحد تلو الآخر .. تلك البراميل المملوءة بالأسيد المكثف .. التي وقفت تنتظر ضيوفها على مرأى الرمال وعين الشمس اللاهبة .. وأمامها بالضبط وقف قفص الاتهام الحديدي الفولاذي وفي داخله وضعت الكراسي الفخمة المطعمة بالذهب والماس والمرجان تلك التي جيء بها من قصور الحكام بعد أن أسقطتهم جماهير الوحدة .

والتلفاز ما زال ينقل البث حياً على الهواء مباشرة .

وصعب ما زال مشدوداً إليه .. ولما سيبعثه الحدث الفاصل بين القذارة والطهارة ..

وها هم الدكتاتوريين قد جاءوا .. مذعورين مأسورين مسوقين ليوم الحساب لينالوا عقابهم على أكمل وجه ومن خلفهم وأمامهم هبت الجماهير العربية المسلمة لاهثة غاضبة تود أن تبتلعهم بصراخها .. وغضبها ولم تكن قادرة على الانتظار .. إلا أن سلطات دولة يعرّب الكبرى قد أوقفت هياجهم بحاجز أوقفته فاصلاً وحائلاً بين غضبهم وبين المتهمين بسرقة الوطن واغتياله .

ها هم الدكتّاتوريون قد أدخلوا مذلولين إلى قفص الاتهام .. والجماهير العربية في البلاد العربية تتابع ما يجرى في ساحة العقاب عبر شاشات التلفزة التابعة لتلفزيون يعرّب .

الأطفال في بيوتهم والشيوخ في المقاهي وفي الحارات .. والنساء في المدن والأرياف والكل ينظر بشوق وبشغف لا مثيل له إلى الشاشة .

لحظات ويبدأ القصاص .

لحظات ويبدأ القصاص .. وها هو قد بدأ فعلاً ...

فحضر أحد القضاة المسلمين المكلف بمحاكمتهم .. وجلس على كرسي يقابل القفص وأمامه وقفت مكبرات الصوت .. ليبدأ الكلام ويقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿[1] فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة[2] يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ « صدق الله العظيم » .

في هذا اليوم المبارك العظيم يقف الحق منتصراً ليجيء يوم حساب الطغيان الذي طالما انتظرناه طويلاً .. وقد جاء بقوة البارىء العظيم .. فتحية إلى هذا اليوم .. وتحية إلى كل الفاتحين الوحدويين الذين دأبوا واجتهدوا على مر السنين لنعيش معاً هذا اليوم العظيم .

وأنا الآن بدوري وقد كلفت بمحاكمة الطغيان ذاته استسمحكم وابدأ القصاص .

وبدأ القصاص .. فعزفت الموسيقى القومية النشيد الوحدوي القومي ثم أخذ المكلف بالمحاكمة يقول مخاطباً الانذال في قفص الاتهام :

– أيها المتهمون بتعرية جسد هذا الوطن ..

– أيها القادة السلاطين المتسلطين .. الذين وقفتم وعلى مدى السنين لتجويع أطفالنا وسحق آبائنا ؛ وقتل أمهاتنا ، وتدمير منازلنا .. وكم انتهكتم أعرافنا وطاردتم إسلامنا .. كم تلذذتم بقهرنا .. فقتلتم المحبة في ربوعنا الطاهرة . وأقمتم من أجل الشرفاء السجون والقلاع القاهرة .. كم .. وكم .. وكم ..

والآن جاء يوم الحساب .. فمن الذي صهينكم علينا .. من الذي سلطكم على شعوبنا .. من .. من .. من ..

وقادة الزمن العاهر .. ساكتون مذعورون لا ينطقون أبداً ..

ثم أردف المحاكم قائلاً :

– كيف يكون القصاص ؟

الاعدام شنقاً ، قليل عليكم وهذا قصاص لا يرضى الله عزّ وجل .

أنسيتم صبرا وشاتيلا ، ومذبحة بحر البقر ، وبيروت ، وبيسان ، والساحات العربية التي صرعت والناس التي حقرت .. واستذلت .. وسحقت .

بسجونكم الرهيبة وأساليب تعذيبكم للشرفاء .. إعلامكم الصهيوني المزيف وتواطئكم مع الامبريالية في السر والعلن .

ووقوفكم ضد الإسلام الذي كاد أن يقتل في ظل ممالككم وجمهورياتكم الظالمة وكتاب الحق الذي ياما طاردتموه .. وكم سلبتم رحيق المنابر تلك التي غدت لخدمتكم وخدمة تسلطكم وحقدكم على الجماهير ..

يا أيها المتسلطون الذين قتلتم بقوة المبادىء .. وانتهكتم الأعراف .. فاغتصبتم الحقائق وافترستم الديمقراطيات .. وذبحتم البلاد بآلاف الأشكال ..

---

(1) سورة القصص – من كتاب الله العزيز الآية « 40 – 41 » .

(2) أئمةً : قادة في الضلال .

لقد قتلتم الآمال .. وسرقتم الخيرات ، وافترستم الطفولة ، وأكسدتم النسمات وفجعتم الأرواح وقلعتم الأعين .. وبعتم الأطراف واغتصبتم العذارى والنساء وشردتم الأهالي .. ووقفتم بمدافعكم وصواريخكم ضد المسيرات الوحدوية تشجعون الحدود .. وتصنعون السدود في وجه الجماهير للحرية ..

كم لوثتم الأرض ودنستموها ..

كم جوعتم ، وكم تخاذلتم ، فأي قصاص برأيكم سيرضي الله .

أي قصاص سيرضي كل هؤلاء المتجمهرين من كل الأصقاع العربية .. أي قصاص سيرضي الإسلام ذاته .. لا قصاص غير البراميل المؤكسدة « ماء النار » ..

لا قصاص غير البراميل المؤكسدة .. فهيا تقدموا .. الواحد تلو الآخر لتنالوا .. ما تذوقناه على مر السنين ..

هيا تقدموا .. لتعلموا أن الله حق .. ولا إله إلا الله .. أظننتم أنكم خالدون والبارىء موجود لا يقهر .. هيا تقدموا .. وتذوقوا ماء النار .. بعض ما تذوقناه على مر السنين .

والقادة في القفص مذعورون .. مشلولون .. ومنهم من سقط صريعاً ..

الحاكم : هيا تقدموا .. لنسرع بقصاصكم ونطوي السجل الأسود في حياة أمتنا العظيمة ونبدأ من جديد في ظل حكم الجمهور وزمن الضحية .. لنبدأ ونعيد حضارة محمد ﷺ ومجد صلاح الدين والوليد .. هيا .. لنطو السجل الأسود برحيلكم ..

ووعداً ..

أن تعود قريباً بيسان والخليل .

وأن تعود قرحتا الجولان واسكندرونة ..

ووعداً .

أن نعيش بعد اليوم أحراراً كما ولدتنا أمهاتنا .

وأن نعيد الكرة .. فنعيد زمن الرازي وابن سينا وابن خلدون .

هيا أسرعوا .. لنختصر اللحظات وننهي وقت الحساب في يوم العقاب هذا .. لنعيد للأرض خضرتها وخيراتها المتبعثرة في لندن وواشنطن وباريس .

هيا أيها القذارة بعينها .

هيا تقدموا للبراميل المؤكسدة ولتسبح فيها أجسادكم التي ما اغتسلت ذات يوم بالماء بل كانت تغتسل بالحليب الذي حرم على أفواه أطفالنا .

لن .. نرضى ..

لن .. نرضى في يعرب غير الطهارة .

لن نرضى في يعرب غير الطهارة .

وها هم أخيراً .. القادة .. قادة الزمن العاهر يساقون كالبهائم للبراميل المؤكسدة الواقفة على مرآة الرمال وعين الشمس اللاهبة .. في الفاضلة مكة المكرمة والبراميل تنتظرهم بفارغ الصبر ..

ها هي ذي ستبتلعهم بعد قليل لتطوي القذارة وتطوي القذارة .. لتحيا الطهارة . وتحيا الطهارة .. وفجأة ..

وفجأة يسقط الحلم الصعب .. فيستيقظ صعب من نومه أثر دويّ انفجار وقع قبل قليل في النائمة بيروت ..

لقد توقف الحلم وعاشت الديكتاتورية .

تمـــــت

فضل عفاش

شتاء عام الوحدة ، ١٩٩١ ، بنغازي - ليبيا

المراجع المعاونة للجزء الأول

(أ) الكـــتب :

1 - « كتاب الله العزيز » .

2 - « الكتاب الأخضر » - معمر القذافي - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - طرابلس 1986 م .

3 - « السجل القومي » بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي - المجلد السنوي السابع - منشورات مؤتمر الشعب العام 1975 م .

4 - رجالات في أمة - فضل عفاش - دار المعرفة بدمشق 1987 م .

5 - معجم البلدان - للشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت البغدادي - دار صادر - بيروت 1979 م .

6 - ايديولوجية الثورة الليبية - د . محمد مصطفى زيدان - دار مكتبة الأندلس - بنغازي - ليبيا 1973 م .

7 - رئيسي ابني - فريدريك موسكات - مؤسسة آدم للنشر والتوزيع - مالطا 1982 م .

8 - القذافي رسول الصحراء - ميريلا بيانكو - دار الشورى - بيروت 1974 م .

9 - برقة قديماً وحديثاً - السنوسي محمد الغزالي - دار الكتاب الليبي 1973 م .

10 - ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية - محمد مصطفى بازامة - اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب - طرابلس 1965 م .

11 - حقيقة ادريس - صدر عن الادعاء العام - منشورات الفاتح - طرابلس 1976 م .

12 - القذافي وعملية القدس - أوراسيو كالديرون - المنشأة العامة للنشر - طرابلس 1982 م .

13 - الطريق إلى لوزان - د . محمد عبد الكريم الوافي - دار الفرجاني - طرابلس 1977 م .

14 - ميثاق الاتحاد العربي - مطابع الثورة العربية - طرابلس - ليبيا .

15 - القرظابية - سلسلة معارك الجهاد - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي - ليبيا 1990 م .

16 - صفحات من قصة الثورة - معمر القذافي - دار مكتبة الفكر - طرابلس - ليبيا 1974 م .

17 - امامان موسى الكاظم وعلي الرضا - أحمد مغنية - مطبعة الانصاف - بيروت .

18 - معجم البلدان الليبية - الطاهر أحمد الزاوى - مكتبة النور - طرابلس 1986 م .

19 - « الاعلام » قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب - خير الدين الزركلي - ط 3 - بيروت 1969 م

(ب) الدوريات والصحف :

- الفكر العربي – أعداد مختلفة .
- الجيل – العدد 7 – المجلد 9 تموز – يوليو 1988 م .
- الكفاح العربي – أعداد مختلفة .
- الشورى – أعداد مختلفة .
- المستقبل – أعداد مختلفة .
- الثقافة العربية – العدد 5 – السنة 12 .
- الموقف العربي – أعداد مختلفة .
- الطالب ، الزحف الأخضر – الشرق الأوسط – السفير – الشرق – البيان — وغيرها من الصحف العربية .

بالاضافة إلى اللقاءات الشخصية .

صدر للمؤلف

- « كهوف الذكريات » - مجموعة قصصية - بيروت - 1985 م .
- « قصـر البـوم » - رواية إنسانية - دمشق - 1987 م .
- « رجالات في أمة » - الجزء الأول « سورية » - دراسات فكرية - دمشق - 1988 م .
- « رجالات في أمة » - الجزء الثاني « الجزائر » - دراسات فكرية - دمشق - 1988 م .
- « المجالس الشعبية والنيابية في الوطن العربي » الجزء الأول - « مجلس الشعب في سورية » - دراسات سياسية - دمشق - 1989 م .
- « الزمن الذي لا يعود » - رواية سياسية - بيروت - 1990 م .

قـريبـاً :

- « رجالات في أمة » - الجزء الثالث « ليبيا » .
- « الماضي يبدأ غداً » - الجزء الثاني في قصة حياة الزعيم العربي الليبي « معمر القذافي » في حياة عربي .

رقم الايداع بدار الكتب (مصر) 7194 / 1991



هـذه الروايـة

مما لا شك فيه أن الرواية التحريضية السياسية ما زالت غائبة تماماً .. ولا وجود لها في ساحاتنا الثقافية لأسباب عدة تفرضها علينا القيود التعسفية الظالمة التي تصنعها بمهارة السياسات المختلفة في أصقاع البلاد العربية .

وبغياب هذه الروّاية .. تغيب الكلمة النظيفة بل تهاجر عن مسامعنا في رحلة سفر بعيدة !!

واليوم وعبر « الماضي يبدأ غداً » للكاتب العربي السوري فضل عفاش .. تحاول الرواية التحريضية السياسية أن تشق أدراجها إلى ساحاتنا الثقافية بعد الغياب .. لتفوز وتنفرد بالقصة الكاملة لحياة الزعيم العربي الليبي « معمـر القذافـي » .. وبتصوري أن في هذا الفوز .. لفتة ذكية من المؤلف لاختياره هذه الشخصية الأكثر شعبية في الوطن العربي والعالم .. تلك الشخصية التي انفردت ولوحدها بكل ما يعنيه التحريض ضد الظلم والاستبـداد ولخدمـة الجيـل والإنسانية ..

الناشـر



04